تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد علي أبو ريان
أستاذ الفلسفة وتاريخها
ومدير مركز التراث القومي والمخطوطات
جامعة الاسكندرية

الإسلام السياسي في الميزان

والبديل : الاسلام المتكامل

وملحق به بحث عن
نحو أيديولوجية عربية إسلامية

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الازاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

الإسلام السياسي في الميزان

والبديل : الإسلام المتكامل

وملحق به بحث عن

نحو أيديولوجية عربية إسلامية

الأستاذ الدكتور

محمد علي أبو ريان

أستاذ الفلسفة وتاريخها

ومدير مركز التراث القومي والمخطوطات

جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ...﴾

الأنفال آية (٦٠)

﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم﴾

الأنفال آية (٧٤)

﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ البقرة آية (٧٤)

﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ الروم آية (٤٧)

إلـى

أرواح شهداء البوسنة والهرسك الأبرار

إلـى

الصامدين المرابطين فى سائر الجبهات العربية

والإسـلامية فـى أشرف معركـة للدفـاع عــن
الإسلام بما ينطوى عليه مـن قيـم الحق والخير
والحرية وكرامة البشر .

أهدى هذا السفر المتواضع عن الإسلام المتكامل إلى أشجع الرجـال المجاهدين والمدافعين عن وطنهم الاسلامى فى البوسنة والهرسك ـ تأكيداً لمعنى الأخوة الإسلامية وأستنفاراً للمسلمين المتقاعدين عـن الجهـاد فـى سائر أرجاء العالم الإسلامى، تذكيراً بعز غابر، ومجـد مـرتقـب، وإنـذاراً بأندلس جديدة ـ لاقدر الله ـ حتى يكف المسلمون عن الكلام والمبارزة الإعلامية والخضوع لإرادة الدول العظمى، بدلاً مـن الجنـوح إلى العمـل الجاد لنصـرة الإسـلام فـى هـذه البـلاد المغتصبـة، وفـى غيرهـا مـن بـلاد الإسلام الأخرى حتى لايسجل علينا العار والمذلة ... اللهم فأشهد.

المؤلف

مقدمة عامة

لقد أساء البعض — ولاسيما من العلمانيين والشيوعيين وغيرهم — فهم حقيقة الإسلام، وأقاموا أدلتهم فيما يختص بفصل الدين عن الدولة على أساس نموذج مسيحى تنفصل فيه السلطة الدنيوية عن السلطة الروحية؛ بينما جاء دين الختم أى الإسلام لكى يجمع بين تيارين أساسيين فى حياة البشر .

أولهما : التيار الدنيوى .

وثانيهما : التيار الأخروى، ويربط بينهما رباط أساسى هو من أهم مقاصد الشريعة والتى تتحقق بها سعادة الإنسان فى الدنيا وفى الآخرة فقد جعل الإسلام الدنيا طريقاً للآخرة ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً ﴾[1] .

ومن هذا المنطلق ينبغى أن نرسم حياة المسلم فى حدود ما ألزمته به الشريعة الغراء ويجب أولاً أن نميز بين ما ورد فى النص الإلهى وفى حديث الرسول ﷺ وبين اجتهادات الفقهاء .

وأما ما ورد فى النص والحديث فلا مجال للاجتهاد فيه إذ أنه ينطوى على أمور ملزمة للمسلم إذا أراد أن يحسن إسلامه وأن يكون من خير أمة أخرجت للناس الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وهم المسلمون .

أما اجتهادات الفقهاء وآراؤهم الاحتمالية فهى غير ملزمة لكافة المسلمين ومن هنا نشأت المذاهب الفقهية الأربعة وبرز من نسميهم بأهل السنة بالمعنيين

---

(١) الكهف آية (٤٦) .

الخاص والعام وظهرت كذلك مواقف المعتزلة والماتُريدية والفلاسفة الموفقين بين العقل والنقل .

وبالجملة ظهرت مذاهب علم الكلام وتفرد الأصوليون الفقهاء بمواقف عقلية بصدد الشريعة ، ولكن هذه المواقف الاخيرة كلها لم يحاول أصحابها المساس بالعقيدة أو بالنصوص الإسلامية الحقة الواجب احترامها .

وعلى هذا النحو فإنه لأول مرة فى تاريخ الأديان السماوية ترسم الألوهية أسلوب حياة المؤمن فى "نطاق الكتاب والسنة" وتحدد معالم الطريق لتحقيق الرفاهية بكل معانيها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والروحية لأبناء المجتمع الإنساني كافة .

ويجب أن نعترف بأن الشريعة والعقيدة الإسلامية قد جاءت بحسب الفطرة الانسانية ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾[1] .

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[2] .

وسنرى فى هذا البحث كيف أن الإسلام بمعنييه العقائدى والحضارى إنما يجمع بين دفتيه سائر الأديان السماوية إذ هو ملة إبراهيم حنيفاً أى دين موسى وعيسى وسائر الانبياء ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[3].

---

(١) الروم آية (٣٠) .

(٢) آل عمران آية (١٩) .

(٣) الشورى آية (١٣) .

فالدين واحد عند الله مادام المصدر مصدراً أوحد هو الله سبحانه وتعالى وما تبدلت كلمات الله على مر العصور .

وقد جاءت نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لكى تعطى لنا هذا المعنى التاريخى والعميق ولكى تنسخ شرائع موسى وغيره من الانبياء وتضع شريعة نهائية مكتملة إلى يوم الدين وهذا واضح فى الآية التى نطق بها الرسول فى حجة الوداع ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] والرسول إنما يقصد فى هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام أتمم معنى الدين كله كما ذكرنا وليس دين الختم وحده .

والأمر الذى يجب أن يكون موضع بحثنا العميق فى هذا الكتاب، هو أن الله سبحانه وتعالى لايحدد بالقطع فى القرآن سورة مكتملة للنظام الاسلامى السياسى بل وضع القواعد العريضة لكى يسترشد بها المسلمون حينما يضعون أى تقنين أو صياغة لنظم الحكم الإسلامية بل وجه النظر بشدة إلى ضرورة إلتزام الحاكم بمبادئ الشريعة وقواعدها وإقامة الحدود الشرعية على العصاة والالتزام بآراء المسلمين فى أمورهم ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾[2] .

ومن هذا المنطلق وضع المسلمون الأصول الأربعة للأحكام الشرعية وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس وكانت لهم آراء فى معنى الاجماع هل هو إجماع أهل الحل والعقد أم إجماع المدينتين مكة والمدينة أم إجماع سائر الأمصار الإسلامية، ونحن إذا حللنا المستوى الأخير للإجماع فإنه يبرز لنا كل معانى الديمقراطية القديمة والمعاصرة .

---

(١) المائدة آية (٣) .

(٢) الشورى آية (٣٨) .

ولما كان إجماع الأمصار الإسلامية مستحيلا من الناحية الواقعية لهذا فإنه لابد من أن ينوب عن كل قطر إسلامى مجموعة من المختارين شعبيا الذين يمثلونهم عن سائر الأمصار الإسلامية، وهم الذين تتكون منهم هيئة المشورة وإبداء الرأى لرئيس الدولة الإسلامية أو حاكمها الأول، وهذا أيضا هو معنى التمثيل النيابى فى الديمقراطية .

ومما تجدر الإشارة إليه ما اختلف فيه المسلمون فيما يختص بمعنى الشورى فى الإسلام فقد فسر البعض الشورى بأنها مطابقة للديمقراطية ـ كما ذكرنا - وفسر البعض الآخر معنى الشورى بأنها الاستشارة غير الملزمة للحاكم، وعلى هذا الدرب سار المسلمون إلى عصرنا هذا بعيداً عن ديمقراطية الإسلام الحقة واقتراباً من نظم الحكم المطلق المستبد، وهذا التفسير للشورى يتعارض مع روح الإسلام ومبادئه، الحقة فقد كان الرسول الكريم يستشير المسلمين فى كل شئون الدنيا قائلاً لهم " أنتم أعلم بشئون دنياكم " وقد يغير رأيه بحسب ما يستمع إليه من آراء أهل الخبرة - كما هو الحال فى مشكلة تأبير النخل وحفر الخندق فى المدينة- يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾[1] .

وقد فسر البعض هذه الآية بأن المشورة تكون على النحو الذى أسلفنا، أى بمجرد الاستشارة يليها العزم على المضى فى تنفيذ الرأى، وهذا غير صحيح فالآية إنما تشير إلى أن الشورى واجبة والالتزام بها واجب، ولكن تنفيذ الرأى الذى انتهت إليه الجماعة الإسلامية يحتاج إلى بصر بالظروف المحيطة بمجال التنفيذ، وقد يكون النبى صلى الله عليه وسلم هوالحاكم الإسلامى الأكثر إلماماً وإحاطة بالظروف ، ولهذا كان لزاماً عليه أن يتدبر الأمر قبل تنفيذه لكى يُكتب

---

(١) آل عمران آية (١٥٩) .

له النجاح، وهو بعد أن يُلم بأطراف الموضوع، ويُفكر فى كل الظروف المناسبة يعزم على التنفيذ، وهذا هو معنى "فإذا عزمت فتوكل على الله" وقد قال سبحانه وتعالى فى الذكر الحكيم إن من الأنبياء من هم أولو العزم ومنهم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وينبغى أيضا فى هذه الدراسة أن نميز بين الإسلام وتعاليمه كما وردت فى الكتاب والسنة وبين الإسلام التاريخى، ذلك أنه إذا لم يكن المسلمون قد التزموا فى تاريخهم بهذه القواعد الشرعية فهم لاشك إنما يكونون بعيدين عن روح الإسلام ومبادئه .

ولهذا فإن الإسلام كدين لم يتأخر بل المسلمون هم سبب التأخر الذى لحق بهم فى عصور الظلام ، ومن ثم فلا يجب أن يتحمل الإسلام وزر تأخرهم على أية صورة من الصور .

أما قول البعض بأن حكومة الرسول كانت إلهية فما القول فى حكومة عمر بن الخطاب، ومهما قيل أن عمر بن الخطاب كان ملهماً إلا أنه لم يكن رسولاً نبياً وكذلك يصدق هذا القول على حكومة عمر بن عبد العزيز التى قيل عنها إنها نفحة من نفحات النبوة إلا أن هؤلاء الحكام الأخيار جميعا قد افلحوا فى تدبير شئون الرعية لأنهم ترسموا خطط الإسلام الحق وأشاعوا العدل بين الناس ذلك أن أهم مقاصد الشريعة بعد التوحيد هى إشاعة العدل والإستقرار بين الناس .

وكذلك فإن الأخلاق هى المحور الرئيسى الذى يتوخاه الكتاب الكريم وذلك يعنى أن الله سبحانه وتعالى جاء بدين الفطرة ـــ كما ذكرنا ـــ الذى ينطوى على مبادئ الاخلاق وقواعد السلوك المُثلى ويجب أن ندرك أن كل العقائد إنما تبنى على أخلاق إما أن تكون موجهة إلى الإنسان أو من الإنسان

إلى ربه فمثلاً يقول الله عن الصلاة وهى الممارسة الأساسية للعقيدة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾[1] .

فالصلاة والصوم والزكاة وحج البيت إنما تنطوى كلها على معان أخلاقية واجتماعية عميقة لها أثرها فى حياة الإنسان المسلم .

وإذا كنا نرى أن هناك التزاماً يفرض على المسلم التمسك بأصول التوحيد والعقيدة وألا يكون مسلماً إلا إذا التزم بالعقيدة وقواعدها فاننا من ناحية أخرى نترك للمسلم حرية الاختيار بين آراء المجتهدين فله أن يتبع أى مذهب فقهى يراه مادام ملتزماً بأساسيات العقيدة وقد يصيب الفقيه أو يخطئ فى اجتهاده وله أجره فى كلتا الحالتين .

هذا بالنسبة لأهل السنة والجماعة أما بالنسبة للمسلمين الخارجين على مقتضيات السنة الإسلامية ومنهم الشيعة وغيرهم فهؤلاء يؤمنون بعصمة الإمام وأن كلامه لايرد وأن الإمام فى أى عصر معصوم من الخطأ وهذه فكرة يهودية مسيحية فالبابا عند المسيحين "مثلاً" له أن يبدل بحسب رأيه وبحسب المجامع الإكليريكية فيما يمارسه المسيحيون من طقوس العبادة وغيرها وهو معصوم من الخطأ وينطق باسم الرب وهذا ليس موجوداً فى الإسلام فالعصمة لله وحده ولرسوله وعصمة الرسول ايضاً فيما ينطق به عن الوحى فحسب، أما فى شئون الدنيا فهو غير معصوم من الخطأ وآيات القرآن الدالة على ذلك كثيرة وواضحة وذلك مثل الآية التى نزلت فى عبد الله بن أم مكتوم ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ﴾[2] .

---

(١) العنكبوت آية (٤٥) .

(٢) عبس آيات (١،٢،٣)

وكذلك قوله تعالى ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً وإذاً لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً ﴾[1] .

والآية التى نزلت فى مولاه زيد بن حارثة حين تزوج من زينب بنت جحش فنزل الذكر الحكيم يقول ﴿ وتخفى فى نفسك ما ا لله مبديه وتخشى الناس وا لله أحق أن تخشاه﴾[2] .

ولكن الشيعة اشتطوا فى معالجة موضوع الإمامة حتى قالت الاسماعيلية بالإمام وهو "الحكيم المتأله" أى الذى يتقمص شخصية الإله وبالغ الدروز والنصيرية والبهائية حتى خرجوا عن الإسلام الصحيح واعتنق الشيعة المعتدلون مبدأ ولاية الفقيه "الحاكميه" أو الدولة الإسلامية وأن يطبق الشريعة والدين بحزافيره ويتمثل هذا فيما ابتدعه الامام الخومينى وهذا بعيد عن الإسلام السنى لذلك ينبغي أن ننبه إلى أن الإسلام لم يدعوا إلى النظام الملكى وقد نص القرآن على أنه لا ولاية للعهد بالنسبة للرسول ﴿ وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول ا لله وخاتم النبيين ﴾[3] .

ولهذا خضع المسلمون لنظام البيعة العامة لاختيار خليفة الرسول عليه الصلاة والسلام كما حدث فى سقيفة قس بن ساعده بعد وفاة الرسول الكريم وعلى أساس المشاورات فى هذه السقيفة ظهر نظام (الخلفاء الراشدين) وهذا أصلح النظم الإسلامية لحكم المسلمين مادام أمرهم شورى بينهم وقد وضع المسلمون فيما بعد شرائط جمة لإمامة المسلمين أو لخلافتهم ونرى نسقاً منها عند الفارابى وعند الماوردى وجميعها لاتحصر الخليفة أو الإمام فى دائرة ضيقة

---

(١) الاسراء آيات (٧٤،٧٥) .

(٢) الاحزاب آية (٣٧) .

(٣) الاحزاب آية (٤٠) .

وهى ولاية العهد ونحن نعرف أن معاوية هو الذى رسم طريق الملكية فى الإسلام وهو نظام يحمل كل معانى الاستبداد بين دفتيه إذ لم يلتزم فى حقيقة الامر بالبيعة العامة وبالشريعة الغراء .

ومن هنا ظهرت عصور الاستبداد فى التاريخ الإسلامى، فلم نحمل إذن الإسلام ـ كما ذكرنا ـ وزر هذا الانحطاط التاريخى للدولة الإسلامية ؟

وعلى ضوء ما ذكرناه من عدم تحديد الشكل الإسلامى للحكم من قيامه على الشورى وعلى البيعة للحاكم وعلى التزام الإسلام الفطرة الإنسانية الحقة وكيف أنه إنما جاء لتحقيق سعادة الانسان سنحاول فى هذا البحث شرح المفاهيم الدينية التى لابد من اتباعها فى أى نظام يستشرف به المسلمون .

وأول ما يحضرنا بهذا الصدد معالجة مصطلح الإسلام السياسى، فقد وضع هذا المصطلح بطريقة خاطئة تحمل معنى التمييز بين اللاهوت وشئون الدنيا كما هو فى شئون المسيحية، وسوف نرى أن حظ الإسلام كان غير حظ المسيحية فى الدنيا والدين .

فالمسيحية وضعت شريعتها فى المجامع الإكليريكية كما هو الحال فى مجمع "نيقيه" وأعضاء هذه المجامع هم الذين يشرعون للمسيحيين، فمثلاً كان بطرس الرسول متزوجاً بأكثر من واحدة وظل المسيحيون على هذا النحو إلى أن صدر رأى المجامع الإكليريكية بأن الزواج يكون من واحدة فقط و لم يأمر الله صراحة فى الانجيل بهذا الرأى .

فى العصر الحديث أى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما بدأ التبشير يغزو افريقيا الوسطى الإستوائية تساءل الافريقيون وكان منهم مسيحيون ووثنيون يحتفظون بأكثر من زوجة، هل تحرمهم المسيحية

من هذا الامتياز الذى ظلوا عاكفين عليه فترة طويلة من الزمان فنقل المبشرون المسيحيون هذا التساؤل إلى البابا فى روما فى هذا الوقت فأفتى بأنه يمكن ان يصرح لهذا الجيل من المسيحين بأن تكون لهم أكثر من زوجة، فإذا انقضى أجل هذا الجيل فإنه يمكن تطبيق شريعة المسيحية على الجيل التالى لهم، ومعنى هذا أن تعاليم الكنيسة فيما يختص بالزواج كانت عرضة للتغير والتبديل وهذا لايمكن أن يحدث فى الإسلام .

وقد حاول بعض المسلمين فى شمال إفريقيا عدم الالتزام بفكرة تعدد الزوجات وذلك بتأثير الاستعمار الفرنسى ولكن أحداً من المسلمين لم يقبل منهم ذلك أو تطبيقه لأن شريعة الله لايمكن أن تبدلها الأيام ولعلنا نشير إلى أن تعدد الزوجات فى الإسلام قد وقف حائلاً بين شيوع التسرى ونظام العشيقات فى أوربا وامريكا بحيث يكون أمراً مألوفا وقد ذكر الكاتب الفرنسى "أندريه جيد": إنه إذا لم يكن فى الإسلام من فضل إلا فكرة تعدد الزوجات فكفى به ديناً يفهم الإنسان ورغباته وغرائزه فهماً دقيقاً .

ونحن فى هذا الكتاب سنحاول استخدام العقل فى الاسترشاد بقواعد الإسلام ولكننا لن نقصر ولاية المسلمين أو رئاسة الدولة فى المجتمع الاسلامى على فقيه او أزهرى أى على رجال الدين والمتخصصين فى الأمور الدينية وذلك للأسباب التالية :

١ ـ معرفة الإسلام ومبادئه فرض عين بالنسبة لكل مسلم وليس فرض كفاية ولهذا فإنه لايوجد كهنوت فى الإسلام أى نظام للكهنة أو القسس يترقى أفراده تدريجيا إلى منصب البابا فى سلم جامد محدود .

٢ ـ إنه مادمنا قد تركنا الباب مفتوحا على مصرعيه بحيث يتولى المسلم الكفء شئون الدولة فينبغى أن يكون أول شرط فيه أن يكون عارفاً وعاملاً

بالإسلام وشريعته حتى لايخرج عن حدود هذه الشريعة وليس من الضرورى أن يكون أزهرياً أو فقيهاً .

٣ ـ إن التزام الحاكم بمبادئ الإسلام إنما ينبغ من أن دستور الدولة ينص على أن الإسلام دين الدولة ومعنى هذا أنه ينبغى أن نضع شرائعنا المدنية مسترشدين بالشريعة الإسلامية حتى نضمن للمسلم أن يصل بسفينة الدنيا إلى هدفها الآخير أى الآخرة بسلام وسعادة فى الدارين .

وفى كثير من البلدان الإسلامية يلتزم المسلمون بتقنين الشريعة الإسلامية وقد كان الفقيه "السنهورى" وهو أعظم فقيه فى البلاد العربية قد قنن الشريعة الإسلامية وظهرت صياغتها فى القانون المدنى وقوانين الاحوال الشخصية وظل القانون الجنائى كما هو فى صياغته الوضعية التى تحتاج إلى تقنين إسلامى كامل وهذا هو النسق الذى تطبقه السعودية فيما يعرف بنظام الحدود الشرعى، مع أن نظام الحدود لايشكل إلا جزءاً ضئيلاً من أركان الشريعة الإسلامية ويمكن اجتهاداً التعزير فيه أو استغلال الظروف المصاحبة لكل حدث على حدة والاستناد إليها فى إيقاف تنفيذ الحدود سواء بالنسبة لظروف الفرد أو ملابسات العصر.

والأمر الذى يثير الدهشه والعجب أن معظم البلاد الإسلامية والعربية ومن بينها مصر لاتطبق نظام الحدود الشرعية كما هو مطبق فى السعودية ومع هذا فإن الإسلام يهاجم بقسوة وبضراوة فى مصر وفى هذه البلاد التى لاتطبق هذه الحدود الشرعية بحزافيرها ونحن نتساءل عن السر الكامن وراء هذا الموقف الغريب من مصر بالذات بهذا الصدد؟ والجواب على هذا التساؤل إنما يرجع إلى استشراء الحركة العلمانية فى مصر التى تنطوى على نوايا تآمرية هدامة تكاد تجهز على الدين ومفاهيمه، تارة بحجة الرجوع إلى العالمية، وتارة آخرى بحجة

الاستناد إلى العلم أو العقل مع أن احداً من المكابرين لايمكن أن ينكر على الإسلام دوره فى إرساء قواعد عالمية الدين وكيف أن الإسلام ارسل إلى الناس كافة فلا يختص بشعب دون شعب آخر فضلاً عن أنه ينفتح على كل الآراء والمذاهب السديدة التى تتوافق مع الشرعية العلمية والعقلانية وقد نبذ الإسلام الكهنوت الدينى والتزمت العقائدى رغم ادعاء العلمانيين بأن السلفية قد جمدت العقيدة الإسلامية وقضت على سماحتها .

وقد تغافل هؤلاء عمداً عن وقائع الدراسة المقارنة للأديان أو مايسمى بفلسفة الدين وكيف أن أصحاب الأديان الأخرى سماوية أو غير سماويه إنما يجعلون للدين ظاهراً وباطناً أى أن هناك فريقاً من أتباع الدين بصفة عامة يتمسكون بظاهر النصوص الدينية بدون أى تدخل للعقل أو تأويل لهذه النصوص؟ ولعل فريقاً من السلفية ينهجون على هذا النحو بل فى حقيقة الأمر نجد أن معظم معتنقى الأديان من عامة الشعب إنما يشكلون السلفية الساذجة فى أى دين؟ الذين قد يغالى بعضهم فى هذا الاتجاه النصى المتحجر فيلتحقون بركب الظاهرية أو قد ينتهى بهم الأمر إلى الغلو فى هذا الاتجاه كثيراً فيظهر منهم المشبهة ، وهذا اتجاه ترفضه السلفية المستنيرة ، إذ أن هؤلاء ـ وهم أتباع الإسلام السنى ـ الذين يرفضون تمزق المسلمين إلى فرق وشيع متناحرة إنما يعملون على أن ينطلق الإسلام فى حدود الكتاب والسنة فحسب، وهم يحكمون العقل فيما يحتمل التأويل القريب على طريقة أبى حامد الغزالى بحيث لايخرج هذا التأويل بالنص عن مرماه الحقيقى أو يبتعد به عن مقاصد الشريعة ومبادئها .

وقد ظهر لنا من خلال تطور الحركة السلفية فى الإسلام أن هذا هو الطريق الذى سلكه ابن تيمية مع أن البعض يرمى هذا الفقيه المستنير بالتخلف

والجمود وعدم استخدام القياس الأصولى وهذا غير صحيح ويعد افتراء على شيخ الإسلام العظيم كما سنرى فى فصول هذا الكتاب .

وينبغى إذن أن نضع النقط والحروف مقدماً فى هذه العجالة على مايستهدفه هؤلاء العلمانيون بالنسبة للاسلام ومبادئه لاسيما بعد أن انكشف الغطاء عن التياثهم بالشيوعية المتردية ومساندة فلولها المندحرة وما تضمره من ترصد وحقد على الإسلام فى محاولة مكشوفة لهدم العقيدة الإسلامية مختفين وراء ما يزعمه من مقولة الإسلام السياسى المضللة مع أنهم يعلمون جيداً ـــ إذا كانوا يدعون أنهم يلتزمون جادة العلم ومنهجه ـــ يعلمون أن للإسلام عدة أوجه حيوية مرتبطة بجميع أنشطة الإنسان فى الدنيا وفى توجيه للآخرة ومن ثم فاللاسلام وجه سياسى واجتماعى وأخلاقى واقتصادى .... إلخ فضلاً عن أنه يتمثل أساساً أو جذرياً فى عقيدة سمحة تصلح للإنسان فى كل زمان ومكان وفضلاً عن أنه هو الدين الوحيد الذى يمكن أن يعيش فى كنفه ويستظل به أهل الذمة أى غير المسلمين فيكون لهم حق الحياة والرعاية والحماية لمعابدهم وممارستهم الدينية كما ورد فى نص وثيقة عمر لبطريرك بيت المقدس، هذه الوثيقة التى تنضح بتعاليم الكتاب والسنة ذلك أن قرآننا قد ألزمنا بمعاملة أهل الكتاب معاملة طيبة واعتبار ديارهم دار سلام إلا إذا نقضوا العهد مع أن هؤلاء أى الكتابين ينتهزون دائماً أى فرصة حينما يكون بيدهم السلطان للتنكيل بالمسلمين وإزهاق أرواحاهم وليس ماحدث بالأندلس بغائب عن الأذهان وما حدث ايضاً فى فلسطين وما يجرى الآن فى البوسنة والهرسك من فظائع وأهوال سكتت عنها المسيحية واليهودية وأباحتها حتى يتم الإجهاز على الإسلام فى كل مكان ، ناهيك بما يحدث للمسلمين فى بلاد وثنية كالهند أو فى كشمير داخل الولايات الهندية نفسها . وكل هذه أدلة نسوقها للدلالة على مدى

استخفاف الغرب المسيحى ومعه الصهيونية بكل ما يعرضه الإسلام من سماحة ومودة ورغبة فى السلام والتعايش مع الشعوب الأخرى غير المسلمة .

والأمر الذى لاشك فيه أن هذه المعاملة السيئة وغير المثلية التى يتحدانا بها الغرب رغم تمسكنا دائماً بالسلام ورفع أغصان الزيتون إنما يرجع إلى ضعف المسلمين وتأخرهم وانقسامهم على أنفسهم واستناد حكامهم إلى الدول الكبرى الطاغية لتصريف أمورهم فضلاً عن استهتارهم بكل المبادئ والقيم الإسلامية واستنزاف ثروات بلادهم على موائد القمار وأصناف اللهو والمفاسد والتسرى وبناء المستشفيات للحيوانات وغيرها والسكوت المتعمد عن نُصرة المضطهدين من المسلمين فى جميع أنحاء العالم، والاكتفاء بالكلام الحمس المدبج إن أمكن دون إعلان الجهاد والسعى لتوحيد كلمة الأمة لرفع الأخطار عن حقوقها ، ولايكون ذلك إلا بالدعوة إلى يقظة إسلامية عارمة والوقوف فى مواجهة تشتيت وحدة المسلمين وتفرقهم لشجب كل معارضة عملاً بما ورد فى الذكر الحكيم ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله ﴾[1] . وهل يمكن بعد هذا التوجيه الإلهى أن ينبرى بعض خبثاء الدعاة الذين يحسبهم الغافل كمدافعين عن الإسلام ؟

هل يمكن أن نقبل دعواهم القائلة بأن الإسلام لايشكل أمة واحدة بل أمم كثيرة وكيف نصدق دعوى هؤلاء المارقين إذا كان الرسول صلى ا لله عليه وسلم يقول بأن المسلمين كأسنان المشط، وأن المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص، وأنه لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . ومن ثم فاننا يجب أن نقف فى مواجهة صلبة ضد الدعوى العرقية التى يتبناها مع الأسف بعض حكامنا الذين يعارضون اتجاه الشعوب الإسلامية فى تصميم على نصرة

---

(١) آل عمران آية (١١٠) .

المسلمين فى البوسنة والهرسك مثلاً ، وفى الهند بدعوى أن المسلمين فى هذه البلاد يختلفون عنا عرقياً وهذه الدعوى قبائلية جاهلية تشكل خطراً على الوحدة الإسلامية فى عصر تتوحد فيه أوربا ويظهر التكتل السياسى والاقتصادى بين مجموعات من الدول تختلف فيما بينها فى أغلب الأمور ولايجمع بينها إلا المصالح الاقتصادية فحسب بينما نجد أنه قد ورد فى الذكر الحكيم أن المسلمين أمة واحدة، وبذلك يعد التمسك بالنعرة القبلية هجوماً مباشراً على الدين ومبادئه فى محاولة لاحياء النزعات العرقية والقبلية البغيضة بين قطاعات الأمة الإسلامية ولعلنا نذكر أنه يرجع إلى الشعوب الفارسية الفضل الأكبر فى إذكاء روح الإسلام وقيام حضارته ومجده العظيم ولهذا فاننا يجب أن نفطن إلى أن بث روح الانفصال والعرقية إنما يعد عملاً عدائياً ضد وحدة الإسلام وروحه، وكذلك هو من قبيل الغزو الثقافى الموجه من الغرب ومن غير المسلمين إلى قلب الأمة الإسلامية وعقائدها للقضاء على وحدتها وتمسكها ، وهذا مالاحظناه فى تسلل هذه الآراء الهدامة والمشبوهة عن طريق إسرائيل إلى كل بلدان الشرق الأوسط يساندها الغرب وأمريكا بصفة خاصة . وهم إنما يعملون فى خفاء ودهاء من خلال بعض الحكام الموالين لهم فى المنطقة ، ولهذا فانهم يحرضون هؤلاء الحكام على الجماعات الإسلامية وليس على التيارات المتطرفة منها فحسب، بل ايضاً على أى تيار إسلامى معتدل، وهم يشجعون استبداد الحكام وسلوكهم المعارض فى حقيقة الأمر للإسلام ومبادئه، ويغفل هؤلاء أعينهم عن العدالة العرجاء التى تطبق بالنسبة للمسلمين فيكيل أصحابها بكيلين إذا تناولوا قضايا المنطقة ومشكلاتها وهم يحرصون دائماً على أن يظل المسلمون فى مراتب الخضوع والإذلال ، ويشجعون الدول المعتدية مثل إسرائيل والهند والصرب والفلبين وغيرهم على سحق المسلمين وتضييع حقوقهم ونهب أرضهم وثرواتهم .

ولم يكن الهجوم على مقولة الإسلام السياسي إلا صورة من صور هذا التآمر على تزييف صورة الأمة الإسلامية لكي تهتز في أعين العالم باظهارها في حالة من التخلف والجهل والاختلاف والتنازع والتأخر الشديد لكي تهتز صورتها في أعين العالم من حيث أنهم يتوهمون بل يزعمون أن نظام الحكم في الإسلام سيعيد العالم إلى تدخل اللاهوت في شئون الدولة كما حدث بالنسبة للمسيحية في القرون الوسطى، وسنرى من خلال هذه الدراسة كيف أن هذه الدعوة الكاذبة المدسوسة إنما هي مقولة تنم عن الحقد والعداء الصريح للإسلام اخترعها أعدائه من فلول الصليبية المعاصرة وذلك أن الإسلام منذ أن بزغ نوره كدولة في المدينة لم يقبل إطلاقاً أن يكون ثمة انفصالاً في إقامة المسلمين بين شئون الدولة الدنيوية وشئونها الدينية الأخروية .

فالإسلام منذ أن نشأ دين ودولة كما ذكر شيخ الأزهر في إحدى ندوات رمضان ولكن أكثر الخبثاء الحاقدين قد أصموا آذانهم عن هذا الحق المبين فخلطوا بين موقف المسيحية وموقف الإسلام في هذا الصدد .

ولعل بعضهم يقول أن هذه مقولة الإخوان المسلمين الذين تضعهم وسائل الاعلام العربية في موضع الشك والارتياب الآن ويزعم من في يدهم السلطة والذين يحتمون بهم من الملحدين والحاقدين على الدين، وهم المسيطرون على معظم وسائل الاعلام العربية، يزعمون بأن القول بأن الإسلام دين ودولة وهو من قبيل الدعاوى التي انفرد بها هؤلاء الإخوان المسلمون وحدهم وليكن لهم رأيهم ولكننا نحن ولسنا من الإخوان المسلمين وكذلك شيخ الازهر وجمهرة الفقهاء يردون عليهم بأن الإسلام دين ودولة، ولسنا على استعداد لأن ننكر هذا الأمر مادام الإخوان المسلمين يتمسكون به مخافة أن يلحقنا غضب الدولة وحلفائها من الملحدين وغيرهم ممن ضلوا سواء السبيل .

وهم إنما يزعمون أن من يدافعون عن الإسلام ومبادئه إنما يحاربون حرية الفكر والتعبير مثل "سلمان رشدى" أو غيره وكيف لاننبرى لتقويض دعواهم حتى يعرف الشباب حقيقة أمرهم فلا يتشككون فى الإسلام ومبادئه .

ونحن نـدرك مقدماً الصعوبات التى تواجه العاملين فى حقل الدعوة والدفاع عن الإسلام، إذ أن الذين بيدهم مقاليد السلطة فى كثير من البلاد العربية والإسلامية إنما يتبنون طائفة العلمانيين والذين يظهرون الدعاوى المخالفة للدين ويترصدون لأصحاب دعوى الإسلام الحق بل ويتهمونهم زوراً وبهتاناً بمالأ التيارات المتطرفة، وتعمل كل وسائل الإعلام المسيرة حكومياً لإلقاء ظل كثيف على الحقائق والمبادئ الدينية التى يجب أن يتعلمها الشباب ويعلن هؤلاء أن من يريد فيضاً من الأرزاق فى كل ناحية ينبغى له ألا يظهر تمسكاً وكلفاً شديداً بالدين، وهكذا حتى يصبح الإسلام غريبا فى بلاده، وقد حاولنا فى هذه الرسالة الموجزة الرد على آراء من يسمون بالعلمانيين، والوقوف بمنطق مستنير فى مواجهة الاشكالات التى أثاروها وهى كثيرة، وكان لابد أن نتبع هذا المنهج لنحدد المشكلات التى نتناولها فى هذه العجالة وإلا لكان علينا أن نكتفى باستعراض هيكلى عام للإسلام عقيدة وشريعة وممارسة، وهذا أمر قد عنى به المتخصصون فى الدين ، ولهذا فإن القارئ سيجد فى كتابنا هذا مجمل آراء العلمانيين إبتداء من شبل شميل وسعيد مظهر وسلامة موسى .... إلخ وانتهاء بسعيد العشماوى، وإنى لأرجو أن أكون قد وقفت فى استعراض مواقفهم والرد عليها، ولهم بالطبع الحرية الكاملة فى أن يعاودوا النظر فى هذه القضايا سواء بالاستجابة إلى دعوى الحق التى يدافع عنها كافة المسلمين، أو بالرد على ما نسوقه من حجج على فساد أباطيلهم .

لكل هذه الأسباب انبرينا إلى تحرير هذه الرسالة حتى تتضح الأمور لشباب هذه الأمة وهم يواجهون أزمة اقتصادية طاحنة تكاد تقضى على نفوسهم من إيمان بمجتمع مسلم أفضل وحتى يكون فى هذا الكشف عن مناورات العلمانيين وقد ماء الشيوعين فيما يختص بمقولتهم المزيفة عن الإسلام السياسى، وستنطوى الصفحات القادمة على دراسة مستوعبة لرؤس هذه المسائل التى أوردناها فى هذه المقدمة .

وقد أردفنا هذا البحث بدراسة عن نحو ايديولوجية عربية إسلامية لكى تتضح من خلالها معانى وحدة الدين فى نظر الخالق وبحسب القرآن الكريم .

وا لله الموفق سواء السبيل .

الفصل الأول

فى مفهوم الإسلام السياسى

١ ـ تسمية الإسلام السياسي:

لقد ظهرت تسمية الإسلام السياسى بهذه الصورة الركيكة والتى تنطوى على مغالطات كثيرة وذلك بعد أن أُلغيت الخلافة الإسلامية بعد زوال الدولة العثمانية، وتطلع الكثيرون من حكام الدول الإسلامية المعاصرة إلى تبنى فكرة الخلافة الإسلامية أى بمعنى تسييس الدين أو دخول الدين فى السياسة كما يقول البعض ، باعتبار أن الدين الإسلامى مثله مثل المسيحية منفصل عن السياسة وشئون الدولة. وكان الملك أحمد فؤاد أول من تطلع إلى منصب الخلافة فى مصر، ولكن الشيخ على بعد الرازق صدمه فيما أخرجه عن الإسلام وأصول الحكم مهاجماً فكرة الخلافة الإسلامية وموضحاً أنها لمَّا كانت لاتعتبر من أصول الدين، فهى ليست ملزمة للأمة فى شئ، وكانت فكرة الخلافة وقيام الدولة الإسلامية تقوم على فكرة أن الحاكمية لله وحده دون تدخل من البشر وذلك فيه إقرار لمبدأ التفويض الإلهى كما سنرى فيما بعد .

وهكذا نرى أن دعاة الخلافة المعاصرين يعودون إلى فكرة التفويض الإلهى للحاكم وكيف أنه حين يحكم فهو يحكم باسم الله ، ولم يكن هذا صحيحاً إلا فى حكم الرسول ﷺ . والأمر الذى لاشك فيه أن الإسلام بمبادئه التى تنظم شئون المجتمع لايمكن أن يكون ديناً يعتزل فيه الناس المجتمع، ويهملون شئونهم، مع وجود تعاليم واضحة لتنظيم شئون هذه الحياة فى الكتاب والسنة لتوجيه المسلم فى حياته الدنيوية. فكيف إذن تدعو إلى إهمال الجانب الدنيوى الذى

يرعى شئون الدنيا بينما نحن نلتزم بأن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ونعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً، ونحن نتساءل عن موضوع الآيات المنظمة لهذه الشئون الدنيوية كما وردت فى القرآن ومنها مثلاً الآيات الخاصة بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق، والميراث أليست هذه أموراً أوحى بها الله لتنظيم شئون الدنيا؟ وقد احتوتها قوانين البلاد الإسلامية وهى تؤسس لأحكام المحاكم بهذا الصدد وتوجه السلطة القضائية فى أى بلد إسلامى؟ بل وكيف نهمل التوجيهات الإلهية الخاصة بتجنب الخمر والميسر والأزلام وعدم أكل لحم الخنزير والدم والميته وما ذبح على النُصب وما أُهل به لغير الله .

وكذلك أيضاً كيف تفسر آيات الاقتصاد المنظمة لشئون الدنيا مثل الآيات التى نزلت فى تحريم الربا وفى الوقوف بحزم أمام الذين يُخسرون الميزان ولايوفون بالكيل ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾(1) .

وأيضاً هناك ما ورد فى الذكر الحكيم عن هؤلاء الذين يُبخسون الناس أشياءهم، ويرفعون فى نفس الوقت من قيمة ما يملكون فى عملية البيع والشراء. وأيضاً كيف نهمل التوجيه الإلهى فيما يختص بتسجيل الديون ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليُملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لايستطيع أن يُمل هو فليُملل وليُّهُ بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وأمراتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر

---

(1) المطففين آيات : 1، 2، 3.

إحداهما الأخرى ولايأب الشهداء إذا ما دعوا ولاتسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة﴾[1] .

هذا بالاضافة إلى أن ثمة مجموعة من الآيات تحض على رعاية المجتمع الإسلامى وأفراده، وتضع الخطوط العريضة للتكافل الاجتماعى باعتبار أن المسلمين أمة واحدة متماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. وقد ترددت هذه المعانى الإنسانية والاجتماعية العظيمة فى معظم آيات القرآن وجاءت فى نصوص الدعوة للإسلام كالحض على إطعام المسكين والرأفة باليتيم ورعاية الجار وكذلك احترام حقوق الوالدين .

وقد ظهرت صورة التكافل الاجتماعى مشرقة وضَّاحة فى فريضة الزكاة، وهذه غير الإحسان العفوى، إذ أن الزكاة فى الإسلام إنما يتم توزيعها عن طريق بيت المال، وهذا الأمر لم تفطن إليه الدول الإسلامية المعاصرة، واكتفت بجباية الضرائب والمكوس المختلفة من رعاياها. بينما ينبغى الالتزام بجمع حصيلة الزكاة حتى يتم توجيهها إلى مصارفها الشرعية بطريقة منظمة ومنطقية ابتعاداً بها عن العفوية والارتجال وحتى لاتذهب إلى جيوب من لايستحقها ، كما هو الحال فى كثير من البلاد الاسلامية ، بينما الدولة أقدر على عدالة توزيع الزكاة، وهكذا نجد أن الزكاة تعتبر من أهم الركائز الاقتصادية التى شرعها الإسلام لضمان عدم تضخم الثروات ولتحقيق عدالة التوزيع ، وكذلك فإن الزكاة ستؤدى إلى استنفاذ رأس المال غير المتحرك فى السوق، لأنها إنما تؤخذ من صميم رأس المال وليس من أرباحه الأمر الذى يُحفز صاحب رأس المال على استغلاله اقتصادياً لتحقيق الرواج فى السوق والرفاهية للمسلمين دون إلزام فى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢

توجيه رأس المال إلى وجهة معينه، إذ أن الاسلام يتبنى فكرة السوق الحرة. وعلى أية حال فإن معظم آيات القرآن تتجه وجهة سلوكية أخلاقية وهي ترد على ضربين :

الضرب الأول :

الآيات الأخلاقية المباشرة والتي تحض على مكارم الأخلاق والصدق في القول وشجاعة الرأي والعدالة في الحكم والتمسك بآداب الفضيلة وتحلي الإرادة بعزيمةوضاءة في مواجهة آفات النفس. وقد حفل القرآن بآيات كثيرة تصور للناس مغبة الكذب والنفاق واتباع الرذيلة كما هو الحال في آيات الزنى وشرب الخمر والميسر وغيرها كما أشرنا، وكذلك في إقامة الحد على السارق والمغتصب وقطاع الطرق والبغاة كما هو واضح في حد الحرابة ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك أن لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾[1] .

فأين إذاً موضع هذه الآيات بالنسبة للذين يعزلون الإسلام ومبادئه عن المجتمع وأخلاقه وسلوكه وطوائفه، لاسيما وأن بعض هذه المفاسد الأخلاقية تعتبر من الأمور التي تدخل في نطاق وظائف الدولة أي أن تجريمها إنما يكون عن طريق القوانين التي تطبقها الدولة مثل القوانين الجنائية الخاصة بالزنا والسرقة مثلاً، وقد يتحدث البعض من العلمانيين عن الضرر الذي يحيق في نظرهم بالمرأة في ظل مطالبة الإسلاميين لها بالحجاب من حيث أن هذه الدعوة إلى الحجاب تُعدُّ في نظرهم اعتداءً على حرية المرأة كما يقولون، وكيف تسمح لهم

(١) سورة المائدة آيه (٣٣) .

ضمائرهم بأن يهاجموا وينتقدوا أمراً إلهياً يُلزم المرأة بالحجاب الشرعى فى مجتمع إسلامى يُطالب معظم أفراده بحشمة المرأة ووقارها وحجب زينتها عن غير زوجها ومن هم محرمون عليها، يقول تعالى ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1] .

وكذلك يقول تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[2] وهل يرضى المسلمون أن تنتشر الفاحشة بين نسائهن وبناتهن بإشاعة الملابس التى تظهر ملامح أجسامهن بصورة مستفذة فى بلد أسلامى المفروض فيه مراعاة هذه الأمور ؟! ، وليس معنى هذا أن نُجبر نساءنا على أن يكنَّ منقبات أو يُلبسن العباءة أو الملاءة كما هو الحال فى بنات بعض الدول الإسلامية مثل العراق والسودان مثلاً ومصر قبل عقدين أو ثلاثة من الزمان. فللمرأة حق السفور الذى لاتُبدى معه زينتها أو تفاصيل جسمها وأين هذا مما نراه اليوم من ظهور المسلمات فى مصر بملابس قصيرة إلى ما فوق الركبة وملتصقة بأجسامهن بحيث يضطر الشباب إلى التطلع إليهن فى شهوة غامرة، وكنت من ناحيتى دائماً أنبه طالبات الجامعة بأن يرحمن زملائهن ومنهم

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩ .

(٢) سورة النور آية ٣١ .

أخوة لهن حتى لاتستبد بهم الغرائز والرغبات غير الشرعية من رؤية زميلاتهن بملابس تنم عن الخلاعة والاستهتار وإظهار مفاتن الأجسام، ويكون من باب أولى أن نقدم نصيحة لكل أجنبى، ولكل زائر لبلادنا بأن يلتزم الحدود المعقولة فى ملابسه حتى تحفظ على جمهرة الناس دينهم وأخلاقهم، ويبدو أن هذا المطلب بعيد المنال نظراً الاستبداد ثقافة الغرب وحضارته الاستعمارية بنا وتلقُف نساءنا لكل ما يُصدَّر إلينا من أنواع الموضات الفاضحة من الغرب وبيوتاته العريقة فى تعرية المرأة وإظهار مفاتنها . وهؤلاء الذين يدافعون عن الغزو الثقافى الموجه إلى نسائنا المسلمات إنما يعملون على إشاعة الفحشاء والمنكر بين الناس، ورمى كل مطالب بالأعتدال فى ملابس النساء بأنه رجعى أثيم، وكيف أن هؤلاءْ المعارضين للحجاب يزعمون بأنهم حملة لواء الحرية والحضارة ألا بئس ما ينطقونه عن الهوى والضلال وعدم التزام الفضيلة فى سلوكهم. وعلى أية حال فاننا نجد معظم الآيات الموجهة إلى الرسول ﷺ لاتنسحب فقط فى تطبيقها على حياة الرسول وحده أو على عصر النبوة فحسب كما يزعم البعض بل هى إشارات وتوجيهات للمسلمين جميعاً فى جميع العصور فى حياتهم الدنيا التى تنظمها قوانين تنفذها الدولة، وسنرى كيف أن الذين يفصلون بين الدين والدولة سيقعون فى هوة سحيقة من التناقض والبعد عن حقيقة الإسلام وجوهره وروحه السمحه، وذلك لأنهم فى الوقت الذى يهاجمون ارتباط الدين بالدولة يسلمون بأن معظم القوانين التى تطبقها الدولة جاءت صياغتها عن طريق تقنين الشريعة، أى أنها تستند إلى آيات القرآن وسنة رسوله الكريم .

أما الضرب الثانى من آيات السلوك الأخلاقى والحيوى فى الإسلام، فهى الآيات التى تنصب على المسار التاريخى للأديان السماوية والمتمثل فى قصص الأنبياء والأولياء، وغيرهم من الكفار المعاندين المحاجين للرسل والمارقين عن

الدين مثل ما ورد عن آدم وهابيل وقابيل ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ويحيى وزكريا وغيرهم من الأنبياء والرسل .

والحق أن هذا القصص القرآنى لايرد فى القرآن عن غير قصد، بل إنه يأتى ليكون مثلاً يُضرب فى مجال الأخلاق والتربية الإسلامية بطريق غير مباشر، ومن ثم يجب التسليم بأن القرآن يشتمل فى معظمه بعد أصول العقيدة على توجيهات ومُثلٍ أخلاقية مباشرة أو غير مباشرة، وهذا مما يؤكد للعلمانيين وأضرابهم من المعترضين على ربط الدين بالدولة، وأن القرآن وكذلك السنة بوصفهما صادرين عن الله ورسوله والمنبعين الأساسيين للأسلام ومبادئه بإعتباره دين الفطرة إنما يصبح صالحا للتطبيق على المسلم فى كل زمان ومكان بأعتبار أن العقل السليم إنما يستجيب لفطرة الإنسان ونوازعه الطيبة التى تنأى به عن مواقع الشر، ولما كانت الأخلاق والفضائل والسلوك الطيب إنما تطبق فى هذه الحياة وتُشرّع لاستقرارها وسلامة أبنائها ، لهذا فإن هذه الحصيلة الأخلاقية المباشرة وغير المباشرة إنما توجه إلى تنظيم شئون الدنيا وإعمارها، وإذا كانت ممارستها إنما ترتبط أساساً بالضمير الذى يصدر أحكامه الأخلاقية عليها إن خيراً أو شراً، إلا أن الممارسة الظاهرة فى السلوك والمبالغ فيها قد تدفع بأصحابها إلى موضع المسألة القانونية ومواجهة الدولة لكل انحراف عن الجادة الأخلاقية التى رسمت الفطرة الإنسانية والدين معالمها القويمة على وجه العموم .

٢ ـ مقاصد الإسلام ومعانيه :

وإذ كان الإسلام يجمع بين دفتيه الحياة والآخرة ويربط بينهما برباط وثيق لا انفكاك فيه فأحرى بنا أن نستعرض كل المفاهيم الإسلامية الخاصة بتنظيم البيت الإسلامى فى الدنيا، وبذلك نستبعد القياس على الأديان الأخرى التى لم يكن لها حظ كبير فى تناول شئون الدنيا تفصيلاً.

وأول ما يواجهنا بهذا الصدد ، المعنى الأخلاقى للإسلام، وقد أشرنا إليه بالتفصيل فيما سبق ثم يليه المعنى الاجتماعى: وهو ينطوى على تنظيم الأسرة وكل ما ورد فى شأنها فى القرآن وقد سبق لنا الكلام عنه وهناك أيضاً فكرة التردد والتواصل بين فئات المجتمع الإسلامى غنيه وفقيره عالمه وجاهله، حاكمه ورعيته، جنوده وشعبه ، والإسلام يحرص على التمييز بين المسلمين فى المراتب والدرجات، لابحسب الأوضاع الإجتماعية أو الاقتصادية أو الجنسية بل بحسب التقوى وحدها ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1] ، ومن ثم فلا يوجد تميز بين أبيض وأسود وأصفر وفى هذا شجب للتمييز العنصرى وإعلاء لقيمة الإنسان، ويعتبر الإسلام أول دين سماوى يحمل راية استنكار التمييز العنصرى بين البشر. ويقول البعض أنه إذا كان الإسلام يسوى بين الناس ولايتمايز فيه أحد على الآخرين إلا بالتقوى فكيف رضى عن استمرار نظام الرقيق أثناء حكم الإسلام؟ والجواب على هذا أن نظام الرقيق كان معترفاً به فى العالم كنظام اقتصادى لايستطيع الإسلام أن يبطله مباشرة وإلا وضعت عقبات فى طريق الدعوة الإسلامية الأولى ولكن الإسلام مع ذلك قد حرص على

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

إشاعة نظام عتق العبيد، وفك رقابهم فى كل مناسبة وتحريرهم من أسر الكفار لهم ثم عتقهم وهذا يعنى أن الإسلام لم يكن يرضى عن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان .

وقد رفض الإسلام أيضاً فكرة التمايز الطبقى فتعاليم الإسلام ترفض استعلاء طبقة على طبقة أخرى ، وتحكم فئة فى المجتمع أو فى نظام العمل فقد أصبح الجميع فى ظل الإسلام بنعمة الله إخوانا وليس لأحد عليهم من فضل إلا الله ورسوله ﷺ .

وهكذا يقف الإسلام بشدة أمام الصراع الطبقى، وحكومة البروليتاريا التى نصت عليها الشيوعية الملحدة لأنها تنطوى على القضاء الدموى والاجتماعى على سائر الطبقات الأخرى المتوسطة والعالية تلك التى تختص لنفسها بفائض القيمة، وكان ينبغى أن يكون من حق العمال وحدهم كما يقولون. ولهذا فقد تضمنت قوانين الاشتراكية العلمية ما يثير الرعب فى مسيرة المجتمع وتنظيمه بحيث يتكتل الناس أجمعين مستهدفين تخريب نظم الحكم فى البلاد الأخرى وتدمير مجتمعاتها وصولاً إلى هدف أساسى وهو تحقيق مصالح الطبقة العاملة وحدها فى جميع أنحاء العالم، والقضاء على كل الطبقات الأخرى المناوئة لها كما يزعمون وهذا ابتلاء كبير للمجتمع الإنسانى لم يلبث أصحابه أن اقتنعوا بضحالة مآخذهم الفكرية المادية فصدمتهم صيحة الأحرار التى أودت بحياة الاتحاد السوفيتى الوطن الأم للاشتراكية، وبذلك أنهارت قلاع الشيوعية، ومع ذلك نجد أن بعض معتنقيها يحاولون التشبث بأذيال الماضى الكئيب ومنهم كثيرون فى مصر ممن تسربلوا بسرابيل شيوعية مقيتة وظلوا يتخفون وراء شعارات إلحادية جديدة بعد انهيار اليسار الشيوعى .

٣ ـ الناحية الاقتصادية :

لما كان فرع الاقتصاد فى الإسلام إنما ينطوى على جملة من الأمور والمصالح التى تخص حياة المسلمين فى هذه الدنيا لهذا فقد جاءت الآيات المتعلقة بأمور المال وشئون الاقتصاد واضحة دون الحاجة إلى تأويل، وكان القدماء يستخدمون كلمة اقتصاد للدلالة على تدبير هذه المصالح الدنيوية، وقد أسماه أرسطو علم تدبير المنزل، واستخدم الغزالى لفظ اقتصاد فى غير معناه المعاصر فى كتابه المسمى "الاقتصاد فى الاعتقاد" ولم يُعرف لفظ الاقتصاد فنياً إلا فى العصور الحديثة عند "آدم سميث" وغيره بعد ازدهار الحركة الاستعمارية الحديثة وسعى الدول الرأسمالية لسرقة المواد الأولية والاستيلاء على أراضى المستعمرات. وإذا رجعنا إلى النصوص الإسلامية بهذا الصدد فأننا نجد أن الفقهاء يرددون دائما القول بأن "المال مال الله" ونحن مستخلفون عليه فالغاية من جمع المال إذن ليس اكتنازه ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] .

ولكن الإسلام فى نفس الوقت لايقيد حرية صاحب المال فى استخدامه ومع هذا فتعاليم الإسلام تجعل للمال وظائف اجتماعية ودينية. ولما كان المال إنما يرصد لقضاء الحاجات وسد المطالب وتعمير الأرض وحفظ النظام العام للمجتمع ، وفى سبيل اقامة مجتمع سليم ينعم فى ظله المسلم بالأمن والرفاهية واشباع حاجاته المادية وتحقيق العدالة الاجتماعية لهذا كان لابد من تنظيم الحياة الاقتصادية فى الإسلام بطريقة محكمة ومخططة حتى يمكن أن يتحقق للمسلم من تطبيقها الاستفادة الكاملة من الحياة المادية أى تحقيق الرفاهية الاقتصادية

---

(١) سورة التوبة، آيه ٣٤.

للجميع، وقد اتبع المسلمون فى ذلك منهجين أو وسيلتين هما : التشريع والتوجيه وقد بدأ التشريع الإسلامى للاقتصاد درجة عالية فى تحقيق الأركان العلمية للاقتصاد فى كافة مجالاته سواء كانت سياسية أو تنموية حتى يبتدى المجتمع الإسلامى فى صورة متسامية يكفل فيه أولو الأمر لكل أفراده ضروريات الحياة الإنسانية حفاظاً على كرامتهم وإنسانيتهم حتى يبلغ المجتمع الإسلامى حد الكمال الإنسانى فى سائر مجالات الحياة وهذا أمر لايمكن ان يحققه الأفراد وحدهم.

فلابد من أن تتبنى الدولة أى السلطة العليا فى المجتمع أمر هذا التنظيم الاقتصادى الأمثل، ولما كان المال هو أحد الوسائل التى يمكن أن يبلغ بها الإنسان سبل الخير والسعادة أو يجنح إلى الشرور والرذيلة لهذا فقد عول الإنسان على تنظيم الأمور المالية وبيان أوجه مصارفها الشرعية حتى يتمكن جميع أفراد المجتمع من تحقيق السعادة دون صراع أو مصادمة بين المصلحة العامة والخاصة مع الحرص على حماية الفرد مما قد يفضى به حب المال إلى البخل أو التقتير أو المقابل لهما وهو الاسراف والتبذير، يقول سبحانه وتعالى ﴿ ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محصوراً﴾[1] ، وفى هذا تطبيق لمعنى الوسطية الإسلامية فى مجال الاقتصاد.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أمور الميراث وانتقال الملكيات بطريقة محكمة وبقواعد جامعة ومانعة. وفى مجال التجارة تعرض الإسلام لمشكلة البيع فى حدود الحلال والحرام ومنع الغبن ورفع الظلم فأجاز كل تجارة تتم عن التراضى بين الطرفين، كما حرم الربا كما ذكرنا، وقد بين الرسول الكريم أن دستور

---

(١) سورة الإسراء ، آيه ٢٩ .

المعاملة التجارية هو السماحة والسهولة من جانب جميع الأطراف فلهذا أمر بضرورة أن يكون الدافع فيها هو الأخلاص والوضوح والأمانة، وينص القرآن على أن العميل التجارى مطالب بأن يوفى بالتزاماته تجاه من يتعامل معه يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون﴾[١] وقد نهى الرسول ﷺ عن عدم الالتزام بالحق والأخلاص فى البيع فقال "البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما"[٢] ، وكذلك قوله ﷺ " من غشنا فليس منا"[٣] .

وبالجملة يمكن القول إن مشكلات الاقتصاد المعاصر قد وردت كلها إما فى الكتاب، أو فى السنة، أو عن طريق الاجتهاد، وذاعت فى حياة المسلمين فى باب المعاملات لأشباع الحاجات الإقتصادية وكانت هذه الأمور تدخل فى دائرة الفقه .

ويتضح لنا من خلال الدراسة المتوسعة لمشكلات الاقتصاد الإسلامى أنه ينطوى على البحث فى مشكلات الاقتصاد الرئيسية وهى الإنتاج والاستهلاك والتوزيع مع الأخذ فى الأعتبار ما يعرف حديثا بالتخطيط الاقتصادى عن طريق تطبيق برامج التنمية المختلفة، وقد أشاد الاسلام بالعمل وضرورة أن يتقن المرء أى عمل يكلف به وقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٤] ، ويقول الرسول الكريم " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٧٩.

(٢) رواه البخارى .

(٣) متفق عليه.

(٤) سورة التوبة ، آية ١٠٥.

يتقنه "، وهذا يعنى أن الإسلام يُسلّم بـأن العمـل سـواء فـى مجـال الزراعـة ، أو الرعى، أو الخدمات هو أساس الدخل القومى أو بصفة خاصة هو أسـاس تنميـة الإنتاج فى أى بلد من البلدان. ومن ناحية الاستهلاك أشار الإسلام إلى ضـرورة تحقيق التوازن بين الحاجات وبين الإنفاق والنص على عدم المبالغة فى الإسـراف فى عدالة اجتماعية تتحق بها عدالة توزيع المنتج الاجتمـاعى عـن طريـق الزكـاة يقول سبحانه وتعالى ﴿خذ مـن أموالهـم صدقـه تطهرهـم وتزكيهـم بهـا﴾[1] ، وكذلك ﴿وأتوا حقه يوم حصاده ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين﴾[2] . ويقـول الله عـز وجـل واصفـاً المؤمنـين ﴿ والذيـن فـى اموالهـم حـق معلـوم للسـائل والمحروم﴾[3] .

ولم ينتبه أحد ممن كتبوا عن الأقتصاد الاسـلامى إلى الأمثلـة التـى يضربهـا القرآن عن التخطيط وينبغى الرجوع فى ذلك إلى ما ورد فى الذكر الحكيم فـى قصة يوسف عليه السلام ﴿وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سـبع عجاف وسبع سنبلات خضر يابسات﴾[4] ، وكذلك قوله تعالى ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تـأكلون﴾[5] ، وهكـذا يبين سيدنا يوسف عليه السلام للمصريين أن عليهم أن يختزنوا القمـح فـى زمـن الوفرة الاقتصادية لكى ينقوه في زمن القحط وهــذا هـو عـين التخطيـط بـل إن خبراء الزراعة لم ينتبهــوا إلى مـا ورد فـى القـرآن إلى أنهـم إذا أرادوا الاحتفـاظ

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٠٣.

(٢) سورة الأنعام ، آية ١٤١.

(٣) سورة المعارج آيات ٢٤، ٢٥.

(٤) سورة يوسف ، آيه ٤٣.

(٥) سورة يوسف ، آية ٤٧.

بالقمح لمدة طويله عليهم أن يتركونه فى سنابله، وإذا كان المســلمون يتحدثـون عن بيت المال باعتبار أنه المؤسسة العليـا لتغطيـة نفقـات الحيـاة الإسـلامية بكـل صورها فإن هذا يقابل فى عصرنا ما يسمى بالميزانيه العامـه للدولـة التـى تعدهـا وزارة المالية . غير أن هنـاك نواحـى تتعلـق بـالوقوف أمـام التصرفـات المنحرفـة كـالغش والتدليس والمضاربـة والاحتكـار ورفـع الاسـعار واختـزان القـوت واستعمال الربا فى المعاملات ، وقـد تمثل موقـف الحـاكم الإسـلامى مـن هـذه الأمور فيما يعرف بنظام الحسبة فى الإسلام الذى يجمع بين دفتيه وظائف أقامـة العدل بـين النـاس بجـانب وظائفـه الاقتصادية والتموينيـة والرقابـة علـى الآداب والأخلاق العامـة أى أن نظـام الحسـبة الـذى ينسـحب علـى أعمـال الخدمـات والشئون الاجتماعية والشرطة فى عصرنا هذا .

٤ ـ الملكية الفردية فى الإسلام :

الإسلام يرفض الاستيلاء على ملكيات الأفراد الا للمصلحة العامة وبذلـك يشجب كل صور التأميم والمصادرة لملكيات الأفـراد الخاصـة ولكنـه فـى نفـس الوقت كما سبق أن ذكرنا يجعل للملكية وظائف اجتماعيـة، والإسـلام بـإقراره للملكية الفردية إنما يشجع الأفراد على العمل والابتكار وتنمية أوجه النشاط فى حياة المسلمين لأن الملكية الفردية تعتبر حافزاً قويا يستثير همـة الإنسـان ويدفعـه إلى العمل لتحقيق النجاح والطموحات المشـروعة ، ومـع هـذا فـإن الإسـلام لم يترك الملكية الفردية بدون أن يضع القيود والالتزامات التى تنظمها وتبعدها عـن إمكانية الأضرار بالمجتمع وتمكنهـا مـن السير قدمـاً لضمـان خـير سـلامة الحيـاة الاقتصادية وتسيرها لخدمة المجتمع الإسلامى ومصالحه .

وبالجملة فإن المبادئ والقواعـد التـى تحـدد الملكيـة الفرديـة وتوجهها إنما تنحصر فى اعتبار العمل أساس الكسب المشروع وتطبيق مبـدأ الحلال والحرام والأخذ بنظام السوق الحرة الطاهرة النظيفة كما سبق أن ذكرنـا، وعـدم تجميع الثروات فى يد فئة دون أخرى أى عدم تركز رأس المـال فـى يـد فئـة وكذلك عدم كنز المال وحجبه عن التعامل فى السوق .

هذا بالإضافة إلى تحريم الربا والاحتكار والغش والرشـوه وإشـاعة الفسـاد فى استخدام رأس المال أو بمعنى آخر الالتزام بتحقيق الوظائف الاجتماعية لرأس المال . وهكذا يتضح لنا أن معالم الاقتصاد تنسحب عليها وتغطيها مظلـة الديـن دون تقاعس عن العمل أو تواكل عن النشاط ذلك أنه يجب التنويـه بـأن قواعـد الاقتصاد الإسلامى إنما تستند بالضرورة إلى دواعى ومبررات أخلاقية عامة دون الانـزلاق إلى متاهـات النفعيـة الماديـة التـى يصطنعهـا التجـار وأصحـاب رؤس الأموال فى عصرنا هذا، الأمر الذى يتعين علينا معـه عـدم إهـدار هـذه المبـادئ القائمة على الأخلاق العامة والفردية وصحوة الضمير ويقظة الروح الإسـلامية، إذا أردنا السلامة والنجاح للمجتمع الإسلامى بعامة. ومع هـذا أى مـع تضمـن الإسلام لمبادىء الاقتصاد وقواعده الأولية، إلا أننا لانستطيع القول بأن الإسـلام قد رسم هيكل نظرية اقتصادية محددة، ذلك لأن القرآن إنما هو قواعد كليـة فـى سائر المجالات وعلينا نحن أن نستلهمها فى وضع نظريات اقتصادية معينه وقبـول مواقف الاخرين الاقتصادية والانفتاح على مستلزمات وشروط الاقتصاد العـالمى ودواعيه التى تبدو فى الظاهر فى شكل يتعـارض مـع مـا يمكـن أن يكـون عليـه شكل أو حقيقة نظام الاقتصاد الإسلامى .

وقد سبقت الإشارة إلى أن المسلمين كـانوا يستندون فـى اجتهـادهم فـى أمور الاقتصاد إلى باب المعـاملات فـى الفقـه، والمسـلم غـير مـلزمٍ بقبـول هـذه

الاجتهادات أو رفضها مادامت تنصب على الفروع وليست على الأصول. وهكذا يمكن لنا أن نسهم في مجالات الاقتصاد العالمي التي لاتتعارض مع الإسلام ومبادئه كما ذكرنا . وقد ازدهرت حركة الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعه وظهر فقهاء مستنيرون من بينهم فقيه لم يأخذ حقه في الإشادة بأبحاثه الفقهية وهو تقي الدين بن تيمية، وقد كان يعيش في دمشق إبان حكم الصليبيين لبيروت وقد كتبوا عنه في سجلاتهم اللاتينية كيف أنه كان يجيز الأحكام الصليبية إذا لم تتعارض مع العقل أو الشرع، ولهذا سموه بالفقيه المستنير في الوقت الذي يعتبره البعض علماً من أعلام السلفية المحافظة على الرغم من شيوع استخدامه للقياس الأصولي في مباحثه . ويجب أن نذكر أن المنهج الأصولي إنما يعتبر المصدر الجوهري لمنهج البحث العلمي في العصر الحديث. لقد كشفنا عن هذا المنهج الذي ترسم خطاه العلماء العرب من أمثال الرازي وابن الهيثم وغيرهم[1] .

٥ ـ السياسة في الإسلام :

ويتعين علينا قبل الغوص في الفلسفة السياسية في الإسلام أن نشير إلى أن الذين يقصرون معنى الإسلام السياسي على العمل السياسي وحده إنما يقعون في مغبة التبسيط المخل لمعنى السياسة ، وقد أوضحنا بما فيه الكفاية أن الدولة في كل بقاع الأرض إنما تمسك في يدها بكل أنشطة المجتمع من اجتماعية واقتصادية وتنموية وأخلاقية عامة بحيث تدخل كل هذه الأنشطة عباءة العمل السياسي .

---

(١) راجع د. محمد جلال موسى : منهج البحث العلمي عند العرب – رسالة دكتوراه ، منشورة تحت إشراف المؤلف .

وسنرى كيف أننا لايمكن أن نجرد الدولة الإسلامية من وظائفها الجوهرية المتضمنة فى الكتاب والسنة والتى تكتمل بها مفاهيم فلسفة السياسة فى الإسلام، والتى تدور حول موضوع الخلافه، وتستمد من أصول الفقه ومباحثه.

فلسفة السياسة فى الإسلام :

١ ـ مفهوم الدولة فى الإسلام :

لقد اتضح لنا كيف أن الفلسفة السياسية فى الإسلام إنما تستمد أصولها من الفقه الإسلامى ومباحثه وذلك انطلاقا من موضوع الإمامة أو الخلافة تطبيقا لقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ... ﴾[1] ، ﴿ قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين ﴾[2] ، ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[3] ، ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾[4] ، يقول ابن خلدون فى مقدمته: أن الإمامة هى "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها تهتم بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به" ، ويقول "وإذا قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وأمامة والقائم به خليفة وأمام " .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٠.

(٢) سورة البقرة ، آية ١٢٤.

(٣) سورة الأنبياء ، آية ٧٣.

(٤) سورة القصص ، آية ٤١.

يقول الإمام الغزالى "إن الدنيا والأمن علـى الأنفس والأمـوال لاينتظـم إلا بسلطان آمر مطاع، فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السـلاطين والأئمـة، وإن ذلك لو دام و لم يتدارك بنصب سلطان آمر مطاع دام الهـرج وعـم السيف وشمل القحط وهلكت المواشى وتعطلت الصناعات وكان كل من غلب سلب، و لم يتفرغ أحد للعبادة والعلم إن بقـى حيـاً، والأكـثرون يهلكـون تحت ظـلال السيوف.. فبان أن السلطان ضرورى فى الفوز بسعادة الآخـرة، وهـو مقصـود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب الإمـام مـن ضروريـات الشـرع الـذى لا سـبيل إلى تركه".

ويقول الإمام الماوردى "الإمامة موضوعة لخلافة النبـوة فـى حراسـة الديـن وسياسة الدنيا به" .

ويقول ابن تيمية " إن الخلافة والإمامة ، من الأمور الواجب على المسلمين إقامتها ديانه فلا تبرأ ذمتهم إلا إذا قام على مجتمعهم خليفـة أو حـاكم.. ويجـب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لايقاوم الدين إلا بهـا فإن بنى آدم لاتتم مصلحتهم إلا بإجتماع لحاجة بعضهم إلى بعـض، ولابـد مـن رئيس حتى قال ﷺ "إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا واحداً"[1] . ويقـول ابـن حزم: " اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج علـى وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيـم فيهـا أحكـام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله ﷺ "حاشـا النجـدات من الخوارج فإنهم قالوا : لايلزم الناس فرض الإمامة وأن عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم " .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

ومن هنا تصبح نظرية الإمامة هى الركن الأساسى فى نظرية الدولة عند المسلمين، وهذا أمر منطقى استناداً إلى القرآن والسنة، فقد أوردت الآيات القرآنية أحكاماً شرعية تتعلق بموضوع الإمامة وشئونها ، وهذه الأحكام يتوقف تنفيذها على وجود الإمام، وعلى هذا النحو فإن تشريع مثل هذه الأحكام إنما يرتبط ارتباطا أساسياً بالإمامة وشرعية قيامها إذ هى القيادة العامة فى المجتمع الشرعى، وهكذا نرى أن المجتمع الإسلامى ملتزم بالتسليم بالإمامة وبقيام الدولة الإسلامية، وهذه تعد من البديهيات التى لايمكن إغفالها ما دمنا نقول بأن الدستور ينص على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى، وإلا نكون قد أبطلنا هذا المعنى بمجرد فصلنا بين الالتزام القرآنى وشئون المجتمع الإسلامى .

على أن الصورة النموذجية لقيام الدولة فى مجتمع إسلامى قد تحققت بطريقة مثلى فى دولة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة. فقد كانت شخصية الرئيس ممثلة فى شخص الرسول ﷺ ، أما الشعب فقد كان مؤلفا من جماعات من الأنصار والمهاجرين بالإضافة إلى يهود المدينة كأقلية .

وأما الأرض فقد كانت ممثلة فى المدينة كأقليم أو كوطن لم يلبث أن اتسعت دائرته بعد الفتح الإسلامى، وهكذا نجد أن الشروط الثلاثة التى تقوم على أساسها الدولة وهى : رئيس الدولة والشعب والأقليم أو الأرض، قد تحققت فى دولة المسلمين الأولى على عهد الرسول ﷺ .

٢ ـ دستور الدولة الإسلامية :

والنظر فى القوانين التى تحكم هذه الدولة الأولى فى الإسلام ذات السيادة على أقليمها إنما يقودنا إلى الكلام عن أسس التشريع الإسلامى. فقد استند هذا

التشريع إلى دعامتين :

أولهما ما ورد فى القرآن مجملاً من أحكام سياسية، وثانيهما ما جاء فى سنة الرسول ﷺ من قواعد وسنن أدت إلى قيام سلطات الدولة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى الأساس الثالث من أسس الأحكام الشرعية وهو الإجماع الذى استخدمته الدولة الإسلامية فيما بعد .

٣ ـ شروط الاستخلاف :

لقد كان قيام الدولة الإسلامية الأولى بزعامة رسول الله ﷺ أمرا لم يقم عليه خلاف من حيث أنه قد نزل عليه الوحى مصداقاً لقوله تعالى ﴿وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى أرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾[1] وأنه عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله إلى الناس كافة. ولهذا لم يكن ثمة خلاف حول إمامة المسلمين أو الخلافة. ولقد ظهر الخلاف بعد وفاة رسول الله ، إذ أختلف المسلمون فيمن يخلف الرسول الكريم من الصحابة على رئاسة الدولة وانتهى رأى المجتمعين فى السقيفة إلى اختيار أبى بكر الصديق رفيق رسول الله وأول صحابته، ثم تلاه عمر فعثمان، ولكن فريقاً من أهل البيت لم يرضى عن هذا الاتجاه وتمثل هذا فى قيام جماعة من المسلمين بعد مقتل على بن أبى طالب يرون أن آل البيت أحق بالخلافة من غيرهم من المسلمين وظهرت طوائف وآراء كثيرة حول شروط الخلافة.. ولكن أهم التيارات التى ظهرت فى هذا المجال هى :

---

(١) سورة النور ، آية ٥٥.

(١) تفسير أهل السنة والجماعة لشروط الخلافة بأنها تقوم على البيعة أى مبايعة المسلمين للخليفة وهو رجل يطلب الخير والسلام للمجتمع الإسلامى ويلتزم بتحقيق شرع الله وأن يكون على تقوى بقطع النظر عن الجاه والنسب وعلى الجملة ينبغى أن يتصف الخليفة بالعقل الصائب وأن يكون حراً ، فضلاً عن صفات الشجاعة والنجدة والكفاية والعلم والاجتهاد والورع وسلامة الخلقة ... الخ .

(٢) ولكن فريقا من علماء السياسة المسلمين كابن الربيع ، وابن خلدون، والماوردى ، والفارابى ، ونظام الملك الطوسى، وأبو حامد الغزالى، وابن تيمية يرتبون شروطاً خاصة وتوصيفاً معيناً للإمام كالقرشية أو أن يكون من كافة العرب أو من غير العرب حسب اختلاف المواقف .

(٣) وينفرد الماوردى فى تفصيل كيفية اختيار رئيس الدولة بموجب رأى أهل الحل والعقد نيابة عن الأمة أى على أساس نوع من العقد الاجتماعى الذى أشار اليه كل من توماس هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو فيما بعد، وقد توسع أبو حامد الغزالى فى الكلام عن الخليفة وشروط الاستخلاف.. ففى الإمامة يرى الغزالى أنها أمر ضرورى لحفظ الدين. إذ بدونها يبطل الدين والدنيا معا .. فالسلطة فى رأيه مطلوبة ومؤيدة بإجماع الأمة ... لأنه لولاها لثار القتال بين الناس واضطرب الأمن .. واشتد الصراع ولهذا قيل أن الدين أساس الحكم "والسلطان حارس" وما لا أساس له فمهدوم " وما لاحارس له فضائع .. وعلى هذا فإنه يجب نصب الإمام .. إذ لايحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع. ولما كان أمر الدين معقوداً لصاحب الشرع النبى ﷺ قطعاً، لهذا كان الإمام بالضرورة خليفة للنبى ولاينتصب أمر الدين إلا بتحقيق الأمن على حاجات الإنسان الضرورية .

(٤) ويفرق الغزالى بين الخلافة والحكومة. فالخليفة يأتى على رأس الدولة.. بينما الحكومة تتكون من هيئة الوزراء الذين يستخدمهم الخليفة لتنفيذ أوامره.. فإذا كان الخليفة يمثل الهيئة التشريعية فإن الحكومة هى بمثابة أداة التنفيذ. وإذا كانت هذه هى آراء جمهرة فقهاء المسلمين فى مسألة الخلافة ووجوب انسحابها على شئون الدنيا والدين معا فى سائر العصور والأمصار الإسلامية، فإننا نواجه برأى معاصر يعتبر كمقدمة أو كإرهاص لآراء العلمانيين بهذا الصدد ألا وهو موقف الشيخ على عبد الرازق من الخلافة الإسلامية، هذا الموقف الذى استدعى نقد الغالبية العظمى من المسلمين فى سائر البلاد الإسلامية وخاصة فى مصر، إذ هو يرى فى كتابه "الإسلام وأصول الحكم" أن الإمامة تعنى سياسة الدنيا بالدين أى خضوع أمور الدنيا للدين. وفى نظره أن الإسلام عقيدة فريدة روحية لاصلة لها بالدنيا أو السياسة أو بالاجتماع "بحسب وجهة نظره"؟

ولهذا فإنه ينبغى أن تنفصل رئاسة الدولة فى الإسلام عن الدين نفسه وتصبح دنيوية علمانية. ويقول أن الحاكم الإسلامى لايصدر فى أحكامه عن الدين بل عن القانون الوضعى المطبق فى المجتمع ، ومن ثم فهو يرى ضرورة فصل الدنيا عن الدين. ولهذا فهو يرفض الخلافة الإسلامية رفضاً تاماً. وقد أغفل الشيخ على عبد الرازق أمراً هاماً وهو أن الإسلام دين ودولة ، وهذه من خصائص العقيدة الإسلامية التى فصلت القول فى تطبيق الشريعة الإلهية على البشر من سكان هذا المعمور.. ونصت على استخلاف الإنسان فى الأرض وربطت بين الدنيا والآخرة.. وميزت الخليفة أو الإمام بالورع والتقوى فأقرب الناس إلى تولى الخلافة هو أكثرهم تقوى عند الله . ويرى أبو الأعلى المودودى أن الحاكم الحق الوحيد فى الدولة هو الله من حيث أن التشريع كله يرجع إليه

سبحانه وتعالى .. وأن الدولة الإسلامية لاتستمر إلا بتحقيق التشريع السماوى مهما تغيرت ظروفها وأصولها، وهى دولة ديمقراطية فى نظر أبى الأعلى المودودى لأنها تقبل الاجتهاد من قبل علماء المسلمين، وهى ثيوقراطية لأن أصول الحكم فيها من عند الله وغاية الدولة عنده مستمدة من شريعة الله، وهى تحقيق العدالة الاجتماعية فى المجتمع بكل صورها .

١ ــ وقد أثار فريق من العلمانيين ضجة كبرى حول موقف أبى الأعلى المودودى وكيف أنه يتمسك بأن الدولة الإسلامية ينبغى أن تكون ثيوقراطية وأن الحاكمية فيها لله إذ أنه هو المصدر الوحيد للتشريع ، ولكن هؤلاء المعترضين على موقف شيخ الجماعة الإسلامية هذا إنما يتناسون أنه أردف هذا الرأى بتفسيره للشورى بأنها يقصد بها الديمقراطية، ولهذا فإن قوله بأنها حكومة ثيوقراطية لاينبغى أن يؤخذ على أنها تشبه الحكومات الدينية التى كانت خاضعة لتسلط الكنيسة فى القرون الوسطى، أو أن القول بأن الحاكمية لله فى هذه الدولة إنما يعنى حكم الله المباشر للمسلمين وكيف أنهم ملزمون بما شرعه الله فى كل صغيرة وكبيرة دون أن تكون لهم أى حرية فى النظر أو العمل . والحقيقة أنه ينبغى ألا نتجاهل المبادئ الرئيسية التى لابد من أن يسترشد بها واضع أى نظام للحكم فى الإسلام من حيث هيكله وتقنينه وأنه يجب ألا يتعارض هذا النظام مع أصول العقيدة الإسلامية أى لابد من أن يبنى على العقائد الإسلامية وعلى رأسها التوحيد مادام الإسلام هو على رأس دستور الدولة الإسلامية وفى طليعة مبادئ هذا الدستور مع التسامح فيما يعتقده أصحاب الأديان السماوية الأخرى وهم أهل الذمة ، فينبغى أن نحافظ على حريتهم فى ممارسة شعائرهم وحراسة مؤسساتهم الدينية .

٢ ـ إن الإسلام لم يحدد بصفة نهائية نظام الدولة ، أو شكلها الدستورى بل وضع جملة توجيهات يمكن الاسترشاد بها، وعلى الفقهاء وأصحاب النظر أن يجتهدوا فى رسم الصورة الحقة التى تتلاءم مع عصرهم وتحقق مصالحهم المشروعة التى هى مقاصد الشريعة .

٣ ـ اننا نسلم جميعاً بأن الإسلام دين الفطرة وهو كذلك دين العقل الذى ينبغى أن تتلاقى عنده سائر المفاهيم والطباع الإنسانية العامة والقويمة فإنه لايعقل أن يرد فى الإسلام أمر أو نص أو نهى يتعارض مع صريح المنطق أو العقل الإنسانى. ومادمنا نؤمن بوجود الله وبأن كل شئ هو من صنعه، فإننا سنسلم فى آخر الأمر بأن ما تفرزه عقولنا من آراء يشهد المنطق الإنسانى بأنها من قبيل الصواب بالفطرة الصحيحه، وتتطابق فى نفس الوقت مع الصورة التكوينية للخلق كما وضعها الله فى الكون. وكأننا إذن نعطى صورة فيها مدى تقابل مفهوم الدولة الإسلامية مع الفطرة والعقل والمنطق دون الوقوع فى فطنة الدولة الثيوقراطية .

٤ ـ يجب أن نعلم أن إحاطة الله علماً أو صنعاً بكل ما يجرى فى هذا الوجود، سواء كان سياسياً أو غير ذلك، لاينقص من الحرية الإنسانية شيئاً فعلم الله المحيط لايضغط على السلوك أو على المعرفة الإنسانية كما تقول المعتزلة، ومعنى هذا أن ينفتح باب الاجتهاد والتشريع على مصراعيه دون خوف من صاحب الشريعة، لهذا كله فإن قيام الدولة الإسلامية لايختلف كثيراً عن قيام الدولة الوضعية إلا فى الإسم وفى المقولة الكبرى من حيث أنها دولة إسلامية ركيزتها الأولى التوحيد، أى التسليم المطلق بوجود الله، على أننا من ناحية أخرى يجب أن نستدرك بملاحظاتنا ما تتابع من أحداث على مسرح التاريخ الإسلامى ، أى بالنظر إلى تطور الأحداث فى الدولة

الإسلامية منذ تولى معاوية الحكم، وكيف أن المد التاريخى الإسلامى قد دفع بالمسلمين إلى العزوف عن الديمقراطية الإسلامية والتى هى روح الكتاب والسنة فى الإسلام الأمر الذى أدى إلى الانقسام الخطير فى الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الثانى أيضاً، وذلك بعد أن انتهى الأمر بالبيعة أو الشورى الحقه منذ مطلع الدولة الأموية، إذ بدأ معاوية نفسه بالسير فى هذا الاتجاه وسار على دربه الخلفاء من بعده فعملوا على تثبيت مبدأ الوراثة كحق مكتسب يتمثل فى أن استقرار الأمور إنما يتحقق باستمرار الأسرة الحاكمة فى إدارة شئون البلاد الإسلامية ولكنهم احتفظوا بالشكل حتى يبرئوا أنفسهم أمام جموع الأمة الإسلامية فكان معاوية يحاول أخذ البيعة لابنه قبل وفاته (أى وفاة معاوية) إما بالذهب أو بالمناصب أو بالقوة.

واختلف بعض الخلفاء بمبايعة أهل الحل والعقد بعد التنصيب . وهذا أمر شكلى بحت تفوح منه رائحة القسر والالزام. ولكن فريقاً من المسلمين ممن تشيعوا لعلى كانوا يرون رأيا آخر وهو أن الخلافة يجب أن تستمر فى آل البيت وأن تنحصر فى أولاد "على" من نسل فاطمة ، وهم الذين يشكلون سلسلة الإمامة نسباً ووراثة بحيث ينص كل واحد منهم على الذى يليه ويعينه.. وإلا يكون من حق أى خارج عن سلسلة آل البيت من على بن أبى طالب أن يكون إماما أو خليفة على المسلمين، ولهم أدلتهم التى أوردوها فى مسألة التنصيص على الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وان كان أهل السنة والجماعة يشككون فى أكثر هذه الأدلة استناداً إلى أنه لاتمايز سواء كان عرقياً أو طبقياً بين أفراد المسلمين جميعاً إلا بالتقوى .

وهكذا تظهر معالم التوريث الملكى فى فقه الشيعة بالنسبة للإمام.. بينما يمثل فقه الإمامة عند أهل السنة ـــ كما ظهر فى بداية الأمر عند الخلفاء

الراشدين ـ فقهاً جمهورياً .. لأنه يقوم أصلاً على المبايعة دون النظر بصفة خاصة إلى العرقية أو غير ذلك .

الأصول العامة للفلسفة السياسية فى الإسلام :

وإذا كنا قد عالجنا فى بداية هذا الفصل أصول الفلسفة السياسية فى الإسلام وأثبتنا كيف تستند نظرية الدولة إلى النص الإلهى والسنة.. وبينا كيف أن الحكم لله فى النهاية وذلك امتثالاً لقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[1] . وأشرنا إلى الخلاف حول البيعة بين السنة والشيعة فإننا ينبغى أن ننتبه فى بحثنا هذا إلى جملة من المبادئ السياسية التى تقوم عليها الفلسفة السياسية فى الإسلام ومن فكرة بينها الشورى مصداقاً لقوله تعالى ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم﴾[2] . وقوله تعالى ﴿ فأعف عنهم وأستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ...﴾[3] .

أ ـ الشورى :

مبدأ الشورى مشتق من مبدأ الإجماع الذى يعتبر أصلاً من أصول الأحكام الشرعية فى الإسلام وعليه تقوم الديمقراطية .. ولذلك تصبح الشورى من المفاهيم الأساسية فى الفكر السياسى فى الإسلام.. ويرى المفكرون أنها ينبغى أن تكون الأسلوب المميز للحكم فى الإسلام. ومع ذلك فإن أحداً من المسلمين فى القرون السابقة لم يكن يطبق هذا المبدأ .. إذ كان الحكم فيها شمولياً مطلقاً،

(١) سورة المائدة ، آية ٤٥.

(٢) سورة الشورى ، آية ٣٨.

(٣) سورة آل عمران ، آية ٥٩.

بينما إلتزمت الدوله فى صدر الإسلام بالحكم تماماً بما أنزل الله أى تطبيق الشريعة .

ب ـ العدل :

والعدل أمر أساسى فى الإسلام فقد تكررت كلمة العدل فى القرآن الكريم ثمانية وعشرين مرة .. والنص القرآنى يدعو الحكام والأفراد للحكم على أساس العدل فيقول الله سبحانه وتعالى ﴿ ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا. أعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1] ، ويقول أيضاً ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾[2] ، ويقول الله عز وجل كذلك ﴿أن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾[3] .

والعدل هنا يؤخذ بمعناه الواسع فهو يعنى العدالة فى تطبيق القوانين والعدالة فى الخصومات بين الناس وعدالة التوزيع فى المنتج الاجتماعى والعدالة الضريبية ... إلخ .

جـ ـ المساواة :

وينبثق من معنى العدل مبدأ المساواة .. وهو من أهم المبادئ الإسلامية فقد جاءت المساواة فى الإسلام بصورة مطلقة وهى من أهم الأسس التى تقوم عليها الدول الإسلامية يقول الرسول ﷺ فى الدعوة إلى المساواة فى حجة

---

(١) سورة المائدة آية ٨ .

(٢) سورة الأنعام، آية ١٥٢ .

(٣) سورة النحل، آية ٦٠ .

الوداع :" أيها الناس : إن ربكم واحد وأباكم واحد .. ألا لا فضل لعربى على أعجمى .. ولا لأعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى" .

وقد هاجم بعض المستشرقين الإسلام فى موقفه من الرق قائلين : إنه لما كان الإسلام ينادى بالمساواة وينبذ الرق واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، فلماذ لم يلغ القرآن الرق أصلا؟ والحقيقة أن العصر كله منذ القدم إلى بزوغ الإسلام كان يموج بالتسليم بالأسترقاق وبيع العبيد فى الأسواق أى أن هذا النظام كان مرتبطاً أشد الارتباط بالنظام الاقتصادى والاجتماعى لحياة البشر — وقد سبقت الإشارة إلى هذا فيما قبل — ولم يلغ إلا فى العصر الحديث بعد إعلان حقوق الإنسان فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ومع ذلك ظل التعامل بالرق مستتراً فى بعض البلاد إلى أوائل القرن العشرين فكيف يمكن للأسلام اذن أن يلغى فى ذلك الوقت إلغاءً تاماً ذلك النظام الذى كان يقوم عليه اقتصاد العالم ؟

ومع هذا فإن الله تعالى قد أمر المسلمين بالرفق بهؤلاء الضعفاء والمعذبين فى الأرض .. وحث المسلمين على تحريرهم كلما أمكن حتى يمكن لهذا النظام أن يتقلص شيئاً فشيئاً.

وعلى العموم فقد فتح الإسلام باب التحرير للعبيد ورفض استرقاق المسلمين اذ كان يتبادل عليهم فى الحرب بالرقيق من الأسرى فى غنائم المسلمين من غيرهم، وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من الرقيق ومحاولة القضاء على هذه الظاهرة بأساليب أو بأخرى ومنها فك أو عتق الرقبة فى مناسبات عدة منها الصوم وغيره، ورغم شدة وتسلط نظام الاسترقاق فى

العصر القديم فإننا أيضاً نسأل هؤلاء المستشرقين والمعترضين على عدم النص على تحرير العبيد فى الإسلام نحن نسألهم عن أسباب عدم قيام المسيحية واليهودية أو الأديان الأخرى القديمة بهذا العمل ألا وهو النص على تحرير العبيد. بل على العكس من ذلك نرى أن هذه الأديان جميعاً لم تخطو أى خطوات فى طريق تحسين معاملة الرقيق أو تحريرهم جزئياً كما فعل الإسلام .

د ـ مسئولية الحاكم والمحكومين :

الحاكم مسئول عن إقامة الدين والتمكين لشرع الله فى الأرض، وإذا لم يستقم وجب شرعاً عزله مادام قد قام على أساس من البيعة. وقد وضع عمر بن الخطاب أساساً لهذا العزل فقال "إن وجدتم فىَّ عوجاً فقومونى " ومعنى ذلك أن الرعية لهم الحق فى تخطئة الحاكم أو تنحيته إذا حاد عن الصواب، وظلم الشعب ، وسخره لأغراضه الشخصية، ونهب قوته وأمواله، وهذا أمر لم يحدث فى غالب الأمور فى نطاق الخلافة الإسلامية الأولى عند المسلمين أى فى عهد الخلفاء الراشدين . ولهذا فإن المبادئ السياسية فى الإسلام فى هذا العصر الأول لم تختلف كثيراً فى مجال التطبيق عن أسسها النظرية أما مسئولية المحكومين فإنها ترجع إلى أنه من حق كل فرد أن يعبر بحرية عن كلمة الحق وأن يوجه نقده لإصلاح الأحوال فى المجتمع الإسلامى وأن يطيع الحاكم مصداقاً لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[1] ولكن هذه الطاعة مشروطة بألا تكون فيها معصية لله ورسوله وللشريعة الإسلامية بصفة عامة تطبيقاً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٩ .

المنكر ، وقد فهم المتأخرون من المسلمين الآية الورادة فى الطاعة فهماً غير صحيح إذ ليس عليهم حرج فى أن يرفضوا طاعة الحاكم فى أمر فيه إبطال أو معصية للشرع الالهى بل لقد أمروا على العكس من ذلك بأن يقاوموا ما استطاعوا هذه الأوامر المنافية للدين ولشرع الله .

٦ ـ العلاقات الدولية فى الإسلام :

تقوم الدولة الإسلامية على السلام وحسن الجوار والمعاملة الطيبة واحترام الحقوق والمواثيق الدولية ونبذ الحرب والعدوان إلا فى حالة الدفاع عن ذمار الأمة الإسلامية ورد الاعتداء الموجه إليها، وقد جاء فى الذكر الحكيم قوله تعالى ﴿وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[(١)] ، ومعنى ذلك أن تحافظ عليه ويكون أمانة فى عنقك حتى يغادر حدود الدولة الإسلامية إلى مكان يأمن فيه على نفسه، ومن الواجب شرعاً أن يتكاتف المسلمون فى الدفاع عن حدود الأمة الإسلامية الحديثة وحماية المستضعفين من المسلمين الذين لايستطيعون رد العدوان وتقليم أظافر البغاه والمهاجمين للإسلام والذين يثيرون الفتن من أعداء الإسلام رغبة فى هدم بناء الدولة الإسلامية، يقول الله عز وجل ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين﴾[(٢)] ، وتقوم علاقة الدول الإسلامية بغيرها على أساس البر والعدل فى المعاملة استناداً إلى قوله تعالى ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن

---

(١) سورة النساء ، آية ٦.

(٢) سورة البقرة ، آية ١٩٠.

تبروهم وتقسطو إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1] ، وهذه الآية تعنى أننا يجب أن نتبع سياسة حسن الجوار واحترام المعاهدات بين دول الإسلام والدول التى لاتعتدى عليها: فالإسلام لايبغى بالحرب إلا احقاقاً للحق فليس من أغراضه إحراز نصر وسيطرة على الأخرين، يقول الله عز وجل ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور﴾[2] .

فإذا وقعت الحرب للدفاع عن الأمة الإسلامية فإن قوات المواجهة من العدو هى التى تكون هدفاً للقوات الإسلامية الضاربة وليس جموع الشعب المسالم الأعزل فقد كان النبى ﷺ إذا عين أميراً على جيش أو على سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم يقول "اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر ولاتغلوا ولاتغرروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا وليداً "[3] .

ويجدر بنا ونحن بصدد موضوع الحرب والسلم فى الإسلام أن نرد على دعاوى بعض المستشرقين الذين يرون أن الإسلام ينطوى على ميول عدوانية فقد اتضح لنا مما سبق أن عرضنا بإيجاز موقف المسلمين من الحرب، وكيف أن الإسلام لايعتدى وان الله أمرنا بعدم الاعتداء الا دفاعاً عن غمار الأمة الإسلامية، ولهذا فان الإسلام انتشر فى كل مكان وفى أوربا بالذات من غربها وشرقها وأصبح المثل يضرب بروح الإسلام العظيمة فى القتال وفى النجدة والشهامة والفروسية الحقة، وقد تمثل هذا فى الحرب الصليبية ، وعلى العكس

---

(١) سورة الممتحنة ، آية ٨ .

(٢) سورة الحج ، آية ٤١.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه .

من هذا الأسلوب الصليبى البغيض الذى احتشد رجال الصليب تحت ظل الدين وباسمه لاجتياح الأمصار الإسلامية رغبة فى استعمارها ونهب ثرواتها تحت ستار الدين على العكس من ذلك نجد أن الإسلام لايغزو هذه البلاد رغبة فى الناس دون تمييز بين لون أوجنس أو ثقافة ولهذا مالت قلوب الأمصار إلى الالتفاف نحو راية الإسلام وسعدت بأن يكون الإسلام ديناً موجهاً لها ولغيرها من الأمم ولابنائها إلى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة، ولهذه الأسباب فإنه يبدو غريبا أن تظهر فرقة إسلامية فى شمال الهند هى القاديانية المعاصرة لكى تقول بإبطال مبدأ الجهاد لأن الإسلام بحسب رأيهم قد انتهى انتشاره بانقضاء عهد الرسول ﷺ وغزوات الخلفاء الراشدين، مع أن الجهاد قائم إلى يوم الدين سواء كان الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس أو جهاد العدو بالحرب وهو الجهاد الأصغر .

ولعل المنصفون يرون كيف اجتمع أعداء المسلمين فى كل مكان يحتلون أرضهم وينتهكون حدودهم ويسلبونهم ثرواتهم ويساعد هؤلاء الناهبون لخيرات البلاد الإسلامية طوائف المنافقين الذين يعتبرون مسلمين اسماً فحسب إذ هم أعداء الإسلام المتآمرين عليه مع الأجنبى الدخيل.

وقد التزمت القاديانية بإبطال الجهاد استجابة لنداء الإنجليز فى الهند فقد "دوخ" أهل جامو ,كشمير القوات البريطانية وظلوا يحاربون الوجود العسكرى البريطانى حتى خرج الإنجليز من بلادهم بل تحررت الهند التى كانت تعد بمثابة جوهرة التاج البريطانى .

وبالجملة فإن استراتيجية السياسة الخارجية للدولة الإسلامية كما قررها القرآن وحددتها السنة إنما تقوم على السلام واعتبار المعاهدات بين الدول

الإسلامية وغيرها من الدول عقوداً ملزمة يجب الوفاء بها، وقد جاء الذكر الحكيم بدستور الحرب والسلم فى آية محكمة بقوله تعالى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين﴾[1] .

٧ـ المسلمون وأهل الذمة :

لقد رضى الإسلام عن معايشه مواطنى الدولة الإسلامية للأقليات الدينية من أهل الأديان السماوية ونعنى بهم أهل الذمة هؤلاء الذين أمرنا الرسول ﷺ بأن نجادلهم بالتى هى أحسن، وأن نعفو عنهم، وأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا فلا نبخسهم حقوقهم، فقد جاء شيخ يهودى إلى عمر بن الخطاب يطلب منه مساعدة من بيت مال المسلمين ، وحدث أن أحداً من الملتفين حول عمر بن الخطاب قد اعترض على ذلك محتجاً بأن بيت المال إنما هو مخصص للصرف على حاجات المسلمين ومصالحهم فحسب إلا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد رفض ذلك الاعتراض بقولة "أنه لا يجب أن نأكل شبيبته ونخذله فى شيخوخته ومن ثم أنصفه وأعطاه حقه مبيناً بذلك أن الضمان الاجتماعى الذى كان يشكله مبدأ الزكاة كان مطبقاً على المسلمين وغيرهم من الذميين طالما أنهم ملتزمون بعهدهم .

وهكذا بدأت دولة المسلمين فى عهد الرسول ﷺ كدولة تستند إلى مثل عليا فى السمو والأخلاق وإلى وحى سماوى وتوجيه سنى وعقول المسلمين المجتهدين ، وفوق هذا كله أنها لاتعتمد على القانون وحده وأن الحاكم الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى، ولهذا فإننا نجد أن الدولة الحديثة تقوم فقط سلطتها

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٩٠ .

على أساس من القانون الظاهر الذى يحاول الكثرة من الناس الذين لاضمير لهم، الاستفادة من فجوات هذا القانون وما أغفلته من منافذ يستطيعون مد شباك الاستغلال للشعوب من خلالها ولا يهمهم فى هذا مخالفة الله أو الأخلاق فإن هذا فى نظرهم أمر لن يلاحظه أحد من البشر سواء كانوا فى مرتبة السلطة أم من غمار الشعب. وبينما نجد هذا الاتجاه إلى التعلق بالظاهر فقط فى نظم الحكم الوضعية، فإننا نجد على العكس من ذلك فى نظام الحكم ودستور الدولة الاسلامية والتى قامت لتحقيق معنى الخير فى صوره الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية مصداقاً لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ..﴾[1] ، ويجب أن نشير إلى أمر هام وهو أن نظم الحكم الحديثة بما تنطوى عليه من جماعات ضاغطة اقتصادية، أو طبقية، أو تكنوقراطية، أو ديماجوجية ، أو عسكرية ، أو إيديولوجية ومن بينها الماركسية، وغيرها كالصهيونية إنما تشكل خطراً على حرية المواطن، وعلى التزمه، وحتى فى ظل الديموقراطية تتراكم التشريعات المختلفة التى يضيق معها دور الفرد فى المجتمع ومجال حريته بحيث نرى فى نهاية الأمر أن هذه الديموقراطية المزعومة قد أصبحت خواء لامعنى لها ولا شكل ولا وجود. فالديموقراطية مثلا يتتصر فى أنتخابها ٥٠٪ من أفراد الشعب +١ ، وكيف أن هؤلاء يتحكمون فى تسلط تام على مصير النصف الآخر ويدفعون به إلى حلبة المعارضة وهكذا تنتقص حقوقهم باسم الدستور والديموقراطية مادام البوليس والجيش فى أيدى هذه الأغلبيه العربية .

وهذا يحدث باستمرار بالنسبة للغالبية من الدول الأمية فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. ومعنى هذا أن النظام السياسى الذى لايستند إلى عقيدة دينية

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

سواء كان ديمقراطياً أو غير ديمقراطى لايمكن أن يكون الحكم فيه محتذياً العدالة بكل صورها، وعدم الإجحاف بحريات المواطنين ، والعمل على تنمية قدراتهم ومواهبهم الإنسانية مادية أو معنوية وصولاً بهم إلى مجتمع الرفاهية الذى ترفرف عليه الكفاية والعدل بقطع النظر عن مؤيد أو معارض فى ظل النظام السائد فى المجتمع. هذا الأمر لن يتيسر مطلقاً فى نطاق الدولة العلمانية .. وذلك أن ركنا أساسياً من أركان الدولة الإسلامية وهو الاستناد إلى العقيدة التى تؤجج فى الإنسان خشية الله ويقظة الضمير فى السر والعلن، هذا الركن غير متوفر فى الدولة الحديثة وبذلك تسلم الدولة الحديثة من التآمر والمناورات الخفية ومن سلوك مرضى النفوس من الحكام وما تفرضه جماعات الضغط التى لاتراعى ملة أو حقوق الله فى الأرض. وقد يتساءل البعض عما اذا كانت دولة المسلمين بعد عهد الخلفاء الراشدين قد التزمت بهذا التوجيه السماوى أم لا؟ أننا نكتفى للرد على هذا السؤال بما أشار إليه الكثيرون من أصحاب الرأى فى الأمة الإسلامية وعلى رأسهم الأمير / شكيب أرسلان بأن التأخر عند المسلمين والفساد والأفساد إنما يأتى منهم كأفراد على مر العصور إلى عصرنا هذا وليس من الإسلام نفسه وهذه نظرة بديهية لا نضعها للمناقشة .

ونختتم حديثنا عن فلسفة السياسة فى الإسلام بأن الذى نتوخاه من كل هذه الأبحاث هو أن يعود الدين أولاً إلى ينابيعه الأولى المطهرة كما كان فى عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وأن نستبعد كل ما طرأ من انحرافات عن النسق الإسلامى الأول المطهر .. وحينذلك فقط نستطيع أن نقول أننا أقمنا دولة إسلامية تستند إلى أصول إسلامية من الكتاب والسنة، وترعى حقوق وواجبات الأمة الإسلامية ورعاياها الذين تقوم حياتهم على أساس من التقوى والمحبة والرشاد وأيضاً مع عدم إغفال آراء المجتهدين فى مختلف المذاهب والذين

لايتعارضون أو لايتناقضون فى آرائهم مع كتاب الله وسنة رسوله، هذا بالإضافة إلى أننا بعد أن شرحنا بالتفصيل أهداف الحكومة الإسلامية والآراء التى ساقها المفكرون حولها سواء بالقبول أو بالرفض، وينبغى لنا أن نضع أمام هؤلاء جميعاً أننا نناقش فكرة الدولة مع نهايات القرن العشرين، ويلاحظ أن الدولة بصورتها المعاصرة قد تضخمت شكلاً وتكاثرت مهامها بحيث لايمكن أن نفصل فيها بين المهام السياسية ، والمهام الإقتصادية، والاجتماعية والأخلاقية، وكذلك الشئون المتعلقة بالدين، وبالعلاقة بين الأديان المختلفة التى تعيش فى نطاق الدولة .

والأمر الذى لاشك فيه أن مفهوم الدولة الإسلامية العام إنما ينسجم تماماً مع المهام العديدة التى تنشغل بها الدولة المعاصرة، فكما تدعو الدولة الإسلامية إلى تبنى قضايا الإنسان من الميلاد إلى الموت بل إلى ما بعد الموت، فإنها لاتركن إلى تجميد الأنشطة الأخرى ، والاكتفاء بالوجه السياسى للحكم فحسب كما يريد لها أن تكون هؤلاء الذين يقصرون ما يطلقون عليه الإسلام السياسى على شئون الدين فحسب .

فالدولة الإسلامية إذن مثلها مثل أى دولة أخرى معاصرة مكلفة بإدارة شئون الإنسان المعاشية كلها متبنية العقيدة وتمكينها فى الظاهر أو الباطن.

والغريب فى الأمر أن جميع القوانين الوضعية التى يمارسها العالم المعاصر الآن لايوجد فيها أى نص ينطوى على التهجم أو استبعاد الإسلام كدين، ومع ذلك أى على الرغم من عدم وجود شبهة تعصب مسيحى أو يهودى أو غيره فى النصوص الظاهرة لقوانين هذه البلاد إلا أننا نجد مع هذا أن صدورهم تغلى مراجلها بالحقد المرير على الإسلام ديناً وشعباً، وتود لو تقضى عليه قضاءاً

ميرماً، ولانريد أن نكرر هنا مايحدث للمسلمين من هجمات صليبية شرسة تعيد إلى الأذهان ذكرى الحروب الصليبية ومحنة المسلمين فى الأندلس ، إلا أننا يجب أن ننبه الشعوب الإسلامية المعاصرة بأنها إذا وقفت موقف المتفرج مما يجرى فى البوسنة والهرسك من مذابح رهيبة هدفها القضاء على الإسلام كعقيدة وشريعة، فليس هذا صراع عرقى كما يقول البعض عن سوء طوية وتخلف عن الجهاد فى سبيل الله، وقد نسوا أو تناسوا أن الله عز وجل قد شرف المسلمين بأن جعلهم أمة واحدة ، فلا تمييز بين عربى وعجمى إلا بالتقوى كما ذكرنا .

غير أن جمهرة المنافقين وبعض الحكام الذين يشترون عرض الدنيا بالآخرة قد أبوا على اصطناع سياسة النعامة ، وتضليل شعوبهم حتى تستقر لهم الأوضاع فى بلادهم، وحتى يرضى عنهم سادتهم من المستعمرين الذين تجمعوا فى كل مكان ، وإلا فما معنى صمت العالم عن مذابح العرب، ومهانة المسلمين فى جامو وكشمير، وعلى حدود بنجلادش ، وفى الشيشان ، وفى اذربيجان، وكذلك المحنة التى يعانيها الشرق الأوسط من تركز عتاة الصهيونية فى قلب الوطن العربى، وعلى مقربة من الأراضى المقدسة ، ومع هذا فكل حاكم من الحكام سار يلهو بذهبه الأسود، والأصفر الرنان على موائد الفساد والإفساد.

ولايمكن أن ننسى أيضاً محنة المسلمين فى الفلبين، وفى داخل الهند نفسها، وفى بعض الشعوب الأفريقية، وحتى فى أوروبا نفسها ، ولاسيما فى فرنسا وبلغاريا، واليونان ، ويوغسلافيا، وقبرص، وداخل بلاد الاتحاد الروسى نفسه.

ومهما تحدث دعاة حقوق الإنسان فى العالم، ودافعوا عن الشعوب المظلومة، وطالبوا بإنصاف المضطهدين، ومن بينهم الشعوب والجماعات

الإسلامية فى العالم كله، إلا أننا نجد أن العداء للإسلام لازال مغروساً فى أعماق وضمائر هذه الشعوب المعتدية، مهما أظهروا من ودٍ ورغبة فى التعايش.

وهكذا فقد ألمحنا فى هذه العجالة عن زيف موقف هؤلاء المعادين للإسلام من علمانيين، وماركسيين ، ووضعيين ، ويهود ، ومسيحيين، وغير هؤلاء من المستترين منهم والذين يعتبرون أنفسهم من المسلمين، مع أنهم يبذلون كل جهد لطمس معالم الشريعة الإسلامية ، والقضاء على الإسلام بكل الطرق باعتباره ديناً لايتعامل عقلياً أو حضارياً، أو سلمياً مع أصحاب الحضارات من الشعوب الأخرى، وهذا ما يكذبه التاريخ الذى يشهد تماماً بأن الحضارة الإسلامية كانت المعبر الذى تفاعلت فيه حضارة العصر القديم مع حضارة الإسلام وصولاً إلى عصر النهضة ، وقيام الحضارة الإسلامية المعاصرة .

الفصل الثانى

الإسلام المتكامل وتهافت آراء معارضيه

اتضح لنا من خلال استعراض المفاهيم الأساسية للإسلام أنه لم يكن فى أى عصر من العصور مجرد تعاليم إلهية وشرعية تعد المسلمين لحياة الآخرة فحسب، بل إن هذا الدين الحق إنما يقوم على أساس التوازن والربط الوثيق بين الحياة فى الدنيا والمصير الأخروى، وكيف أن الفهم الصادق للإسلام يجعل من الدنيا مركباً ومرحلة أساسية لبلوغ الأخرة.

وقد تبين لنا أيضاً أن الإسلام إذا قصرناه على تعاليم الإنسان للآخرة فحسب فنكون قد جردناه من محتواه الهام، ألا وهو تدبير شئون عالم الدنيا بكل ما تنطوى عليه من أنظمة حيوية سبقت الإشارة إليها، ومن ثم ثبت لدينا أن المفهوم الحقيقى للإسلام إنما ينطوى على تكامل يجمع بين كل وظائف الدنيا ومتطلباتها وشئون الآخرة التى سينتهى إليها المسلم وغيره يوم يقوم الحساب.

ومن هنا ينكشف لنا بوضوح كيف أن الإسلام دين ودولة وليس هذا مجرد شعار تنطق به أى جماعة من الجماعات الإسلامية بل هو المقوِّم الجوهرى لبنية التعاليم الإسلامية وقضاياها ومبادئها الأساسية، فإذا لم يسلم به المسلم فإنه يكون قد عطل ركناً أساسياً من أركان الإسلام .

ولابد من أن تفطن الأمة الإسلامية ، وأن يحظر وجوه الرأى وكبار المفكرين فى المجتمع الإسلامى، وكذلك الصفوة الحاكمة من المسلمين عامة: أن فى موقف المعارضين الذين يفصلون بين الدين والدولة فى المجتمع الإسلامى ،

خطورة كبيرة على الدعوة الإسلامية فهم لا يلتزمون بتطبيق الشريعة الإسلامية على سائر المسلمين ، ويرون أنه ينبغى أن تطبق الحكومة الإسلامية القوانين الوضعية، هؤلاء إنما يذهبون إلى القول شططاً بأن الحكومة الإسلامية إنما تقضى على الصورة المدنية للمجتمع الإسلامى من حيث أنها تستند إلى حاكمية الله وبذلك تتلاشئ " فى نظرهم" حرية الأفراد والمجتمعات فيصبح خضوع الدين للسياسة نهجاً للطغاة الذين يستترون وراء الأوامر الدينية ويحملونها أهواءهم ومصالحهم الشخصية. وبالجملة على ما يرون فإن السعى إلى إقامة دولة دينية سيفتح الباب على مصراعيه إلى التعصب الدينى والقضاء على سائر أنواع الحرية فى المجتمع الإسلامى، وهذا ما يشكل توجهاً مضللاً وخاطئاً نحو الإسلام ممثلاً فى جماعاته المعتدلة وأهمها جماعة "الإخوان المسلمين" التى نشأت فى الثلاثينات من هذا القرن، وليس فى الستينات كما يقول بعض المؤرخين انسياقا مع خيالهم وأوهامهم التى يحملها إليهم الغزو الفكرى الفكرى الغربى ورغبتهم الأكيدة فى استبعاد الإسلام وتعاليمه من ساحة الحياة، والمجتمع الإسلامى لأنهم يعرفون أن الإسلام القوى الذى يجمع بين الدين والدنيا هو سر عظمة المسلمين وعودة شموخ حضارته من جديد .

ويدعى الرافضون للإسلام السياسى أن هؤلاء الذين يسيسون الدين فى البلاد الإسلامية لاينتظرون تغيير الواقع وخلق الجديد بحسب تغير نفوس الناس حيث أن الواقع لايتغير إلا إذا تغيرت نفوس الناس تغيراً كاملاً كما يقولون وهم يدللون على أقوالهم بهذه الآية ﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] ، وهذا يعد افتراء على هذه الآية لأن تغيير الواقع فى أى شعب أو عند أى قوم كما ورد فى هذه الآية لايعتبر من قبيل التغيير الجوهرى الكامل،

---

(١) سورة الرعد ، آية ١١ .

ذلك أن الشعب لايتغير فى كل شئ بل المقصود بالآية أن يتغير الناس بـإقلاعهم عن الفساد بكل صوره فحسب وعودتهم إلى الإيمان والهدى ، وهـذا لايقتضى تغير الدين وقواعده بل تغير الناس أنفسهم .

وليس صحيحاً أن الحكم بمـا أنزلـه الله يـؤدى إلى نشأة تيار يقـوم على الخصام والقتل وإعلان الحرب على المجتمعات الضالة باعتبارها مجتمعات جاهلية تمثل حزب الشيطان وأن القائمين على تدميرهـا هـم حـزب الله، وكيـف أنهـم يزعمون أيضاً أن الذين يعملون علي تطبيق شريعة الله والأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر يعتبرون فاشيين ديكتـاتوريين وأنهـم أشـد نكـراً مـن الديكتاتوريـات الدولية ، وأن المجتمع الدولى يرفضهم ويهاجمهم وهم ما يسمون بالمتطرفين .

ومن الخطأ أن نسميهم أصوليين : فالأصولية الإسلامية أمر بالغ السـمو إذ أن أصحابها إنما يعودون بالإسلام إلى اصوله البكر، أى إلى ينابيعـه المطهـرة فى الكتاب والسنة، وهذا ما لايمكن أن يكون جريمة نكـراء . فيجـب إذن أن يقلـع عن هذا الاتجاه المغاير للحقيقة: الحكام ورجـال الإدارة وبعـض المفكريـن الذيـن يتربصون للإسلام ويتآمرون للإيقاع بصفوة المسلمين ومعتدليهم .

فالتطرف يوجد عالميا وليس عند المسـلمين وحدهـم فحسـب وليـس هـو وليد هذا العصر وحده ، فقد ظهرت فى الإسلام حركات متطرفة عديـدة مثـل القرامطة ، والموالين للدين الفارسـى، ومنهـم المانويـة أصحـاب مذهـب الثنائيـة الفارسية على وجه العموم، وكذلـك المزدكيـة الذيـن أثـاروا ثـائرة الزنـوج فـى البصرة وأرباضها، والإسماعيلية ، والدروز، والنصيرية ، والبهرة وغيرهـم كثيرون ممن وقف الإسلام الحق فى مواجهتهم وقفـة جبـارة ليكفـوا أذاهـم عـن جمهـرة المسلمين ، وغالبيتهم العظمى .

ولا يعقلن أحد أن يطلق على الإسلام العذرى الأول لفظ إسلام البداوة بينما يطلق على الإسلام الحالى إسلام الحضارة، واستنادا إلى هذا المفهوم الأخير يريد البعض أن يجرنا إلى مزالق خطيرة باسم الحضارة .. وشتان بين المعنيين.

على أننا يجب أن نقف وقفة حاسمة فى مواجهة هؤلاء الذين يعتقدون أنه لايوجد مسلم متطرف وآخر معتدل، وكيف أن هؤلاء المتطرفين هم أتباع مخلصين للإسلام المعتدل المتمثل فى الإخوان المسلمين والسلفيين وغيرهم من الذين يمثلون الصفوة الصالحة المؤمنة فى نطاق الإسلام، وكأنهم بذلك يظنون أن الإسلام كله متهم بأنه يشجع المتطرفين، وأن تعاليم الإسلام المعتدل هى الوكر الذى يتربى فى أحضانه الإرهاب وفلوله، وهذه لفتة ماكرة من الشيوعيين والمضللين من العلمانيين وغيرهم ممن يضمرون العداء الصريح للإسلام وأهله .

وعلى هذا النحو إذن آمن بعض الحكام بمقولة هؤلاء الذين استخفوا بتعاليم الإسلام بل عملوا على إهدارها، فضلا عن ترصدهم لكل ما ينطوى عليه الدين من أخلاق ومثل عليا سامية ولايبقى بعد هذا إلا أن يقيموا الحَجر على الإسلام كله حتى يأمنوا على المجتمع من غوائل التطرف والإرهاب كما يزعمون ، ويصبح المسلم بعد هذا غريبا فى وطنه ويغترب الإسلام بعد أن كان ملئ أسماع الدنيا .

أما أن تسيس الدين سيجعلنا مُضغة فى أفواه الدول غير الإسلامية، فهذا أمر لا يعنينا فى شئ ، ذلك أن هؤلاء لايهتمون بأحوال المسلمين الاقتصادية أو الاجتماعية لأنهم مشبعون بروح العداء الصليبى للإسلام الذى تزكيه الصهيونية العالمية، فلا عدو لها الآن سوى الإسلام بعد أن استأنست المسيحية وأمسكت

بمقودها إثر "تبرئة" اليهود من قتل عيسى مع أن العداء لليهود الذين اضطهدوا المسيح عيسى بن مريم كان من أهم التوجيهات التى تبنتها المسيحية بينما احتضنه الإسلام ومجد به وبأمه العذراء أروع تمجيد ، وناهيك بما يكنه الوثنيون وهم كثرة فى العالم من عداء مقيت للإسلام ومبادئه.

وبعد هذا نحاول الهجوم على الإسلام المعتدل المتمثل فى الإخوان المسلمين وفى غيرهم من السلفية وأتباع المذاهب الأربعة الذين يمكنون للإسلام فى الأرض فى مواجهة أعدائه وخصومه فى الخارج والداخل ، ولاسيما عتاة المتربصين بالإسلام فى داخل بلاد الإسلام. أما فى الخارج فإننا نشهد اليوم موجة عارمة من التركيز على عداوة الإسلام واعتباره العدو الأول للغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وقد صرح بهذا رئيس سابق للولايات المتحدة وهو "نيكسون" ، وينبغى بعد هذا أن نساند جماعات الإسلام المعتدلة إذ هى تعتبر الدرع الواقى للإسلام فى مواجهة المحنة التى يتعرض لها اليوم فى الداخل والخارج، وعلى الرغم من المواجهة العنيفة بين معظم نظم الحكومة فى البلاد الإسلامية وبين جماعة الإخوان المسلمين ، إلا أننا يجب أن نعترف أن هذه الجماعة مهما علق بها من انحرافات فى الماضى إلا أنها تعد ركيزة هامة فى بناء حركات الدفاع عن الإسلام فى العالم .

ولقد انتشرت تعاليم الإخوان المسلمين فى العالم كله، وقد تقابل كاتب هذه السطور مع مرشد الإخوان الشيخ "حسن البنا" عند أول زيارة له فى الإسكندرية ، ثم بعد ذلك بعد أن أتسعت وأنتشرت حركة الإخوان المسلمين وكان لها الفضل الأكبر فى إذاعة تعاليم الإسلام القويمة بين الشباب وحثهم على الصلاة والعبادة الحقة، فابتعد الكثيرون منهم عن الموبقات التى كانت تنخر فى حياة شباب مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، وهذا عمل كبير يثابون عليه.

وقد عظم شأن حركة الإخوان خلال الحكم الملكى إلى درجة أن الملك قد حاول استقطابهم ولكنهم رفضوا الانصياع لأوامره وطالبوا فى مقابل ذلك بتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة الحدود على المنحرفين والمفسدين فى الأرض. وكان معظم رجال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من أعضاء الإخوان المسلمين الذين تربوا فى أحضانها على الرغم من ظهور الصراع الدموى بين الطرفين فيما بعد.

على أننا نشجب دائماً محاولات الاغتيال التى قام بها أفراد من الإخوان المسلمين والتى أدت إلى مقتل "النقراشى"، ثم الشيخ "حسن البنا" فيما بعد، وقد اختار الإخوان المسلمون بعده الشيخ "الهضيبى" مرشدا لهم وقد عملت الثورة على إذلاله، وجعلته يحمل قاذورات ضابط السجن وكان مستشاراً له كرامته! وعمل الحاكمون على اضطهاد الإخوان المسلمين وتشريدهم، وما إعدام سيد قطب والتنكيل بأخته ببعيد رغم توسلات الدول الإسلامية وشعوبها.

ولقد رأينا بأعيننا كيف أن الشيوعيين كانوا يفخرون بأنهم ليسوا من الإخوان حتى يمكن معاملتهم بغير ما يعامل به الإخوان من تنكيل وتعذيب وتشريد، وإذا كانت القبضة الحديدية قد ارتفعت بعض الشئ عن الإخوان المسلمين فى عصرنا عنه فى عصر الثورة الأولى ، إلا أن أصحاب السلطة العليا قد عملوا إلى وضع الحواجز والقيود حول أنشطة الإخوان ومنعوا من أن تكون لهم هيئة أو جمعية تنطق بلسانهم رغم أن غالبيتهم قد التزم بمبادئ الحرية والديمقراطية واحترام نظام الحكم والدفاع عن النظام الدستورى، واتباع الأسلوب السياسى فى محاولة الوصول إلى الحكم بالوسائل السلمية ، وعدم استخدام أساليب العنف. أما من يسمون بالخوارج والذين يقولون لا حكم إلا لله فأمرهم معروف، وقد أذاعوا مقولتهم هذه بعد موقعة التحكيم فى صفين،

إذ أنهم لم يرضوا عن مقالة عمرو بن العاص ورأيه الذى لانفهم مبنـاه أو مـادار بينه وبين من تآمروا معه الآن .

فكان الخوارج يقولون أن هذا التحكيم بشرى لاقيمة لـه وان الحكـم إنمـا يرجع إلى الله، والله لايحكم بمثل ما انساق إليه أطراف التحكيم، ونحن لانقرهم على هذا الرأى، و لم يوافقهم عليه الغالبية العظمى من المسلمين ، فكيـف نجعله أساساً للحكم فى الإسلام، وهم يكفرون مرتكبى الكبيرة حتى تكون أحكامهم على المشتركين فى موقعة صفين رادعة، إذ أن القـرآن يوجـه النظـر إلى أن قتـال المسلم لأخيه محرم على المسلمين جميعاً، وأن القاتل والمقتول فى النار، وهذا هـو حكم الله وليس بمعنى أنهم هم الذين يصدرون حكم الله على الذيـن يقـاتلون بعضهم بعضاً من المسلمين .

وعلى هذا النحو يرجع خطأهم إلى أنهم يزعمون بـأنهم ينوبـون عـن الله فى إصـدار الأحكـام القاطعـة علـى هـؤلاء باعتبـارهم كفـرة أو مرتدين ينبغـى تصفيتهم جسدياً، وهذا يخالف رأى الجماعـة الإسـلامية إذ أن مرتكـب الكبيرة يعتبر مؤمناً يحاسب على فعلته بينما يـرى المعتزلـة أنـه فاسـق أى فـى منزلـة بـين المنزلتين – أعنى بذلك منزلتى الكفر والإيمان [1] .

أما كيف أن الطغاه فى العصور الإسلامية المختلفة بعد عصر الرسـول ﷺ كانوا يطبقون فكرة التفويض الالهى ، فهذا شأنهم وليس شأن الإسلام فأخطـاء المسلمين فى التطبيق لاتحسـب علـى مبـادئ الإسـلام. أمـا الذيـن ينفـون فكـرة الإسلام السياسى كما يرونها مفزعة فهم يتعمدون تفريغ العقيدة من أى مدلول احتماعى أو اقتصادى أو سياسى... الخ ، فهم يقولون إن النبى هو نبـى الرحمـة

---

(١) سنعالج موضوع حركة الاعتزال بالتفصيل فيما بعد

فحسب، وإذن كيف نبرر وجود الآيات التى تشير إلى الدنيا وإلى التكافل الاجتماعى إلى غير ذلك من أمور أوردتها الشريعة التى التزم المسلمون بها فى حياتهم الاجتماعية ، وفى إقامة العدل بين الناس، وفى تطبيق قواعد السلم والحرب، وفى مقاطعة أهل الذمة، وقد أشتط المعارضون فى تفسيرهم لآيات الحكم فى الإسلام مثل قوله تعالى ﴿ .. وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ...﴾[1] .

فماذا يعنى هذا التوجيه الإلهى إلا،أن يكون إشاعة العدل بكل صوره الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقضائية بالنسبة للشعب الإسلامى ولأفراده وليس قصرها على المعاملات بين الأفراد فحسب .

وعلى المعترض أن يرجع إلى أصول الفقه حيث أنه يضع أحكاماً وأصولاً عامة تطبق على الوقائع الجزئية فى كل زمان ومكان بحيث تصبح التوجيهات الإلهية قواعد عامة كلية تطبق على سائر العصور بعد عصر النبى[2] ، وهذا ما

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٨ .

(٢) وإذا لم نلتزم بهذه القواعد الأصولية فإننا سنواجهه بالعديد من المشاكل التى تنجم عن اختلاف الأمكنة والعصور ، أى المكان والزمان ومثال ذلك ما نجده فى تطبيق آية الصيام حيث يرد فى الذكر الحكيم قوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ "البقرة آية ١٨٧" ، وهذا يعنى أن الآية تحدد الصيام بطلوع نور الفجر أما نهايته فتحددها ساعة حلول الغثق أى عند المغرب ، ولما كان هذا التحديد القرآنى لفترة الصيام ينطبق على البلاد الواقعة بين المدارين أى التى يتقارب فيها الليل والنهار لهذا فإن هذا الحكم لايمكن أن ينطبق بهذه الصورة على بلاد المسلمين الواقعة فى المنطقتين القطبيتين الشمالية والجنوبية حيث إن الليل يمكث فيها ستة أشهر ومن ثم فلا يبين لهم نهار أثناء ذلك، فكيف إذن يطبقون تعاليم الصيام فى بلادهم التى تخضع لهذا النظام ؟ -

يشجب مقولة الذين يذهبون إلى إعادة قراءة مفهوم النص وتعدد القراءات فى النص الواحد ذلك أن أحكام القرآن كلية شمولية لايمكن تطبيقها فى عصر ونسخها فى عصر آخر، وقد قال الله تعالى بصدد القضاء فى الخصومات فى سورة النساء الآية (٦٥) ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم... ﴾ .

وفى نفس السورة الآية (١٠٥) ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ ، فكيف إذن نسلم مع من يزعمون أن هذه الآيات لاينبغى أن تطبق إلا فى عصر الرسول ﷺ ، وهكذا يوقفون المد القرآنى على عصر الرسول ﷺ وحده، وفى هذا إفتئات على حجية القرآن المستمر عبر الزمان، وسنصل فى النهاية إلى أن تتطور الأحوال ونمتنع عن تطبيق

- وقد تلقف المستشرقون هذه الواقعة وقالوا كيف يمكن أن يكون الإسلام موجها لكافة الأمم والشعوب في العالمين بينما تقتصر تعاليمه على البلاد الواقعة بين المدارين؟ ومن ثم فالإسلام فى نظرهم لم يرسل للناس كافة . وقياساً على قواعد الأصوليين من الالتزام بكلية النص وعموميته أستطاع هؤلاء الأصوليون أصدار فتوى عن مشروعية الصيام فى البلاد القطبية ، فقالوا أنه على أهل هذه البلاد الشمالية والجنوبية إن وجدوا أن يحسبوا ساعات الصيام فى البلاد المدارية فى عدة سنوات ، وان يحصلوا على المتوسط منها كأن تكون مثلا ساعات الصيام فى البلاد أثنى عشر أو آحدى عشر ساعة مثلا، فعلى المسلمين فى هذه البلاد الشمالية والجنوبية أن يصوموا خلال هذا المتوسط من الساعات على أن تكون فى ساعات عملهم وليس أثناء نومهم وبذلك يمكن لهم أداء فريضة الصيام .

وهكذا تمكن الفقهاء من تطبيق شريعة الصيام فى البلاد غير المدارية فيما يحفظ على المسلمين ممارسة القواعد الأساسية فى الإسلام ويبدو أن هؤلاء المعارضين لكلية الأحكام الشرعية إنما يسهمون فى تحجيم الإسلام وإظهار قصوره وعجزه فى التطبيق عن قصد ماكر خبيث أو غير قصد وذلك أمر وأدهى لأن فى أقوالهم افتراء على عموم الرسالة المحمدية وضرورة التزام البشر جميعاً بها .

الآيات القرآنية فى العصور التالية عصراً بعد عصر استناداً إلى أن الكثير من هـذه الآيات لايطبق إلا فى عصر الرسـول ﷺ وبذلـك يفقـد القـرآن مضامينـه شيئا فشيأ، ويصبح فـى غـير موضعـه مـن التأثـير المباشـر علـى المجتمعـات الإسـلامية المستمرة خلال التاريخ الطويل للإنسانية .

وقد كان الرسول الكريم قدوة ونموذجـاً للمسـلمين وكـان يوجـه تعـاليم القرآن والسنة لكى يعمل بها المسلمون خلال تطورهم التـاريخى عـبر العصـور، وهكذا يسقط رأى المعترضين على عمومية تفسير هذه الآيـة ويتمسـكون بأنهـا تنسحب على عصر الرسول ﷺ فحسـب وأنهـا موجهـة إلى الأفـراد وليـس إلى القائمين على العدل فى المجتمع الإسـلامى ﴿ ولايجرمنكـم شـنئان قـوم علـى ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1] ، والعدل موجـه فـى هـذه الآيـة إلى سـائر المسلمين فى كل عصر وقد جعل المعتزلة العدل والتوحيد مبدأ أول من مبـادئهم وهم يقرنون إشاعة العدل بين الناس بمبدأ التوحيد الذى قام عليه الإسلام .

أما القول بأن المتخاصمين يقدمون الأدلة والحجـج علـى صـدق دعواهـم وأنهم قد يختلفون فيما بينهم فإن ذلك إنما يحكم فيه القضاة الذين يقيمون ميزان العدل الخاضع للعقل والشريعة بين النـاس، ويصـدرون أحكـامهم بـالتوفيق بـين العقل والنقل كما فعل المتكلمون والفلاسفة .

وأننا لنتساءل كيـف يمكـن التسـليم بـأن مرجعيـة القوايـن إنمـا تكـون إلى مصدر أساسى هو الكتاب وسنة رسوله، كيف لايكـون هـذا إذا كـان الشـاهد حينما يقدم للشهادة يطالب بحلف اليمين أمام المحاكم المدنية، أليـس معنـى هـذا أن المحكمة تريد أن تستند إلى إيمان الشاهد وضميره الدينى، وقد يصدر القـاضى

---

(١) سورة المائدة، آية ٨.

أحكامه على الحاكم أو رئيس الدولة استناداً إلى كتاب الله أو بالاجتهاد إن لم يجد نصاً. فكيف يكون الحاكم إذن مستمداً أوامره من التفويض الإلهى إذا كان يخضع لحكم قاضى القضاة فى الدولة الإسلامية وكيف يكون معنى العقل والحرية للإنسان مادمنا موجهين عن طريق التفويض الإلهى للحاكم؟ ومع هذا كله فإن الله تعالى يختص عباده المحسنين بالهداية والرحمة ويحضهم على عدم الإقبال المبالغ فيه على الدنيا ويقول تعالى ﴿وزدناهم هدى﴾[1] ، ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالو سلاماً﴾[2] .

وكذلك فإن الله قد شرع القصاص من المذنبين مادامو حاصلين على حرية الإرادة وهذه هى قمة الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[3] ، وكذلك قوله تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[4] .

وإذا كان فعل الشر وظلم العباد من قبيل الحتمية الإلهية ، وليس من صنع البشر كأثر من آثار ممارسة الحرية ، فكيف نفسر مثلا الكوارث التى تنهال على الناس من سوء ما يفعلون وهذا الذى حدث فى لبنان حيث استمرت الحرب الأهلية فيها خمسة عشر عاماً، وكذلك تدمير عاد وثمود ، وإرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وخسف جنة أو قصر هارون .. إلخ .

---

(١) سورة الكهف ، آية ١٣.

(٢) سورة الفرقان ، آية ٦٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٧٢ .

(٤) سورة الإسراء ، آية ١٦ .

وكيف نتناسى قوله عز وجل ﴿ .. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾[2] .

ومعنى هذا أنه قد لايبين لنا أو يتميز الخير من الشر في سلوكنا فالخير دائما من الله أما الشر فأنه من أنفسنا ومن الشيطان، وهذا يجعل الناس مختلفين في الحكم على الأمور وكذلك الحكام فهم بشر يسيئون ويخطئون بحسب اهتماماتهم ، وللناس حق الأعتراض على الحاكم الجائر والرجوع إلى القضاء الذى يستند إلى قواعد العدل اتقاء للظلم .

ويجب دائما أن نميز بين الفعل الألهى ، والفعل الإنسانى فعلى الرغم من أن الله فعال لما يريد ، إلا أن البشر لا يستطيعون استكناه الفعل الإلهى إذ هو محجوب عنهم فى غير ما تنص عليه الشريعة ، ولهذا فإن الإنسان مخير وليس مسيراً ويشير القرآن إلى الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس واعتدوا على المقدسات بقوله عز وجل ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾[3] ، ومنهم قتلة عمر وعثمان وعلىّ إذ أنهم قتلوا نفساً بغير حق .

ويبقى القول بأن التقى والورع هو أساس الحياة الإسلامية فى ظل الإيمان وهو تعميق لمضامين الإسلام ﴿ قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا

---

(١) سورة الحج ، آية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٦ .

(٣) سورة الزخرف، آية ٦٥ .

أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم﴾[1] ، وقال الله فى كتابه العزيز ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[2] .

وإذا كان البعض يخلطون بين مقام النبى ﷺ ، وبين مقام الأولياء والأئمة وبعض الحكام فى مجال العصمة واتباع الأحكام الإلهية فإن هذا يعد خروجاً على مذهب أهل السنة بينما نجد الشيعة يقولون بعصمة الأئمة ، بل لقد أدعى غلاتهم وكذلك الصوفية الباطنية أن الإمام أو الحكيم المتأله حاصل على علم ذوقى إلهى وكأنه توحد مع الله. وكيف نسلم بقول البعض بأن عمر رضى الله عنه إنما أخذ من مشكاة النبوة وأن حكمه يتماثل مع حكم الرسول الكريم، والحق أن ما يذكر عن عمر إنما يعد من قبيل الإلهام الذاتى الذى نسميه فى علم النفس بالإدراك المباشر Telepathy.

وثمة أمر هام هو أن الكثير من الآيات القرآنية تشير إلى من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون أو الفاسقون أو الظالمون .

وقد اتضح لنا أن هذه الأحكام لاتتخذ أى صبغة وقتيه استناداً إلى أسباب النزول فحسب كما يرى البعض إذ لايمكن أن ننفى عن القرآن الكلية والشمولية فى أحكامه، وكيف أنها تصلح فى كل زمان ومكان كما سبقت الإشارة .

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١٤.

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

ومن ثم فإن القائلين بوقتية الأحكام فى القرآن وقصر تطبيقها على عصر الرسول فحسب، إنما يضللون الناس، إذ أنهم بذلك لايميزون بين ماهو جوهرى وما هو عرضى من الأحكام ويقع اختلاف الأحكام فيما هو عرضى وفرعى وليس فيما هو جوهرى يقول الأصوليون "العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب" . وثمة مسألة أخرى تتعلق بالنسخ فى القرآن استناداً إلى قول الله عز وجل ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير﴾[1] ، وهذا يعنى أن النسخ إذا أجيز فإنه ينصب على مسائل الفروع وليس على جوهر العقيدة، ولذلك يصبح تعميم مبدأ النسخ مخاطرة كبيرة فقد نسخت مثلاً آية ﴿ .... لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[2] بالآية التى تقول ﴿ ... إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[3] .

وقد يدعى البعض أن القول بالاجتناب لايعنى تحريم الخمر وهذا قول باطل إذ أن الخمر محرم شرعاً ويقام الحد على شاربها، والحديث يقول "ما أسكر كثيره فقليله حرام"[4] ، وفى هذا الرد على ما ذكره الإنجيل من أن "قليلاً من النبيذ يشفى المعدة" .

أما المسألة الرابعة التى نود شرحها فهى تكفير المسلم للمسلم ونحن نرفض أن يكون هذا من تعاليم الإسلام إلا إذا ارتد المسلم لاقدر الله أو لم ينطق

---

(١) سورة البقرة، آية ١٠٦.

(٢) سورة النساء ، آية ٤٣.

(٣) سورة المائدة ، آية ٩٠.

(٤) رواه البخارى .

بالشهادتين إذ أن أمر المسلم بعد هذا إنما يرجع إلى الله وحده فلا يمكن لأحد أن يكفره حتى إذا ارتكب الكبائر مثلما فعل الخوارج ذلك ، إن التكفير إنما ينصب أصلاً على إنكار وحدانية الله أى عدم الاعتراف بأن الله واحد وعدم التسليم بأن محمداً رسول الله .

أما عدم إقامة الصلاة ، أو الامتناع عن إيتاء الزكاة، أو أداء فريضة حج البيت، أو ممارسة الزنا ، وشرب الخمر ، ولعب القمار، وأن يحلف كذباً بالله، وبالجملة الوقوع فى شباك الكبائر فإن مقترف هذه الذنوب يعتبر فاسقا كما تقول المعتزلة وليس كافراً أى لا يمكن تكفيره بأى حال من الأحوال كما سبق أن ذكرنا ، وكذلك اختلاف الفقهاء فى النظر إلى الفروع ومن قبل ذلك اختلاف الأئمة الأربعة فى مذاهبهم الفقهية لايعد كفراً، وتفسير آيات القرآن تفسيراً يختلف فيه البعض مع عدم الخروج عن جوهر العقيدة والمفهوم الأساسى للنص لايعدو مروقاً عن الدين. وينبغى ملاحظة أننا لانطلق على مذاهب الفقهاء اسم الشريعة، ذلك أن الشريعة تتمثل فيما ورد فى القرآن من توجيهات وأوامر ونواهى نصاً وليس إجتهاداً، وتنصب أحكام الفقهاء على تطبيق أمور الشريعة وليس على الاختلاف معها فيما بينهم، ومن حيث أيضاً أن أحكام الفقهاء الاجتهادية غير ملزمة للناس ، ولايستند أحد إلى قول البعض بأن فقه الشافعى يختلف فى مصر عن مذهبه الفقهى قبل أن يأتى اليها، وكذلك فقه الليث بن سعد يختلف عن فقه غيره من الفقهاء ، لكى يقيم الدليل على وجود أكثر من إسلام واحد كما يدعى المستشرقون. ذلك أن هذا الاختلاف بين المذاهب الفقهية إنما يرجع إلى اختلاف بين العادات والتقاليد والظروف الفرعية فى مصر عنها فى الأمصار الإسلامية بما يقدح فى مبادئ وأصول الشريعة كما وردت فى الكتاب والسنه .

وقد تتابعت آراء الفقهاء خلال العصور الإسلامية وظهرت لهم مواقف مختلفة فى شئون الدين أى فى التطبيق الإسلامى لقواعد الدين ومبادئه، وكان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى خير من تصدى للفقه وهو قوت القلوب المؤمنة واختلف معه فقهاء الحنفية والحنابلة ولكن أحداً لم يكفره .

وقد التزم المسلمون بتصنيف العلوم إلى نقلية وعقلية، فالأولى هى علوم الدين، والثانية هى علوم العقل والتجربة أى علوم الدنيا التى لم يتخل عنها المسلمون فى سائر عصورهم بل لقد ازدهر العلم الإسلامى بفضل توجيهات القرآن إلى ممارسة الأعمال العقلية والعلمية وقد تكرر قول الله عز وجل فى القرآن ﴿أفلا يعقلون﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿أو لم ينظرو فى ملكوت السموات والأرض﴾[1] ، وكيف أن هذا لايخفى عن كل عاقل عليم. وقوله أيضاً ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[2] ، والله لايقصد بهذا علماء الدين فحسب بل علماء الدنيا من الذين يبحثون فى علوم الطبيعة والفلك والطب والتكنولوجيا، فكيف يرى البعض أن الاهتمام بالمنقول أى بالعلوم الدينية قد عطل اهتمامنا بالعلوم والتكنولوجيا أفلا يعقلون ويرون كيف أن العلم قد انتشر فى بلاد الإسلام من خلال عشرات الجامعات من أندونيسيا إلى المغرب ، وكذلك فإننا يجب ألا ننسى أن الأزهر كجامعة دينية قد أدخل العلوم الدنيوية والعصرية فى مجال البحث والتعلم فى معاهده وكلياته أفليس هذا دليلاً على أن المسلمين قد تنبهوا إلى رقيهم وتقدمهم إنما يرجع إلى اهتمامهم بالبحث العلمى وبالأخذ بسهم وافر من التكنولوجيا المعاصرة وعدم الانكباب على المنقول فحسب دون غيره.

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٨٥ .

(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

ودعوى العلمانيين بأنه يجب الاهتمام بالعلم والتكنولوجيا دعوى حق يراد بها باطل إذ أنهم يريدون أن يقتصر المسلم على التوجه إلى العلم المعاصر، وإهمال الواجبات الإلهية اى أستبعاد علوم الدين، ولاينسى هؤلاء أن العقل يتدخل الآن بكل قوة في علوم الدين لفهمها وتفسيرها ، حتى يمكن للمسلم ألا يعتزل الدين وأن يفهم قضايا الإيمان فهماً صحيحاً .

وهناك مسائل أخرى حول تعاليم الإخوان المسلمين وكيف أنهم يمثلون الطبقة الوسطى وأنهم يقيمون صراعاً بين فئات المجتمع الدنيا والوسطى والعليا، وهذا أمر غريب ، لقد جاء الإسلام للناس كافة ، للفقير والغنى وللمتوسط الطبقة وكفل نوعا من التضامن والتآخى بين كل الفئات والطبقات عن طريق التشريعات الإسلامية، وإلزام المسلمين بالزكاة، ومراعاة الفقير واليتيم والسائل والمحروم إلى غير ذلك ، كما قال الله تعالى ﴿والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾[1] .

أى أن ما يعطيه الغنى للفقير ليس صدقة بل هو حق للفقير فى مال الغنى وقد حرص الإسلام على ألا يكون ذلك عن طريق التشريع الملزم حتى لايقوم صراع أو عداوات بين الطبقات فى الإسلام كما حدث بالنسبة للنظام الاشتراكى، ونستطيع القول بأن الاشتراكية فى الإسلام اشتراكية إحسان تقوم على الخير والمودة والمحبة والتآخى بين الناس، وكيف نقبل قول المعترضين وأغلبهم من دهاقنة الشيوعيين والعلمانيين، أن الدعاة الإسلاميين المعتدلين إنما يدافعون فى نظرهم عن إسلام الجاهلية والظلام فمنهم مستنيرون كثيرون .وهذا افتراء محض .

---

(١) سورة المعارج ، آيات ٢٤،٢٥.

وهل نستطيع إنكار فضل جمال الدين الأفغاني ، ورفاعه الطهطاوى ، ومحمد عبده، وإقبال ، والكواكبى، وسيد قطب، وأبا الأعلى المودودى، وكلهم منارات على طريق الهدى والإيمان .

وكيف يمكن لنا أن نقبل بصراحة الهجوم دينياً على الدول التى تطبق شريعة الله مثل السودان على الرغم من أنهم سمحوا بعدم تطبيق الشريعة على غير المسلمين فى الجنوب سواء كانوا مسيحيين أو وثنيين، بينما نجد بعض المتصدرين لايجرأون حتى على الإشارة إلى تطبيق الشريعة فى بلد كالسعودية وهذا أمر محمود، فهل يرجع هذا إلى أنهم إنما يقدمون لها القرابين لأن حكامها يملكون وفرة بترولية، أفهذا يعد من قبيل النظر العادل للإسلام وتطبيقه فى البلاد الإسلامية. ولايعنى هذا أننا ندافع عن حكومة السودان الإسلامية إذ أننا نهاجمها سياسياً وأيضاً لأنها لاتطبق الشريعة الإسلامية فى إقامة العدل بين الناس بل وتغلو فى الاضطهاد والقتل والسجن والتعذيب للمعارضين، وكذلك -وهذا أمر- مهم فى عدم التزام الحكام فيها بمبدأ الشورى أى بالحكم الديمقراطى الكامل.

ويرى بعض المنتمين كذباً إلى الإسلام بأنه يجب التوقف عن تطبيق الحدود الجنائية في الشريعة وهذا أمر غريب ، وذلك أنه إذا تم تطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً فى أى بلاد سلامى مثل السعودية فينبغي أن تطبق الحدود كاملة دون إبتسار أو تعطيل ومع هذا فإنه قد يمكن تأجيل تطبيق الحدود مثل قطع يد السارق أو رجم الزانى المحصن، وجلد غير المحصن واستبدالها بعقوبات أخرى رادعة فى البلدان الإسلامية التى لم تتهيأ بعد لهذا الأمر وذلك إلى أن تكتمل كل أسباب الشريعة الإسلامية فيها .

وأما عن الربا فقد تساءل بعض المعترضين عما إذا كان تغيير لفظ الربا بالفوائد أو الأرباح سيسمح لهم بالمضى فى أسلوب ممارسة الربا؟ والحق أن أمير الجماعة الإسلامية أبا الأعلى المودودى قد أعطى للمسلمين اجتهاداً رخصه فى اتباع نظام الربا لأنه هو القاعدة فى النظام العالمى الاقتصادى، ولايمكن للمسلمين أن ينعزلوا عن العالم كله بالامتناع عن ممارسة نظام الربا حتى لايحيق بهم الضرر تطبيقاً لمبدأ أصولى يقول بدفع المضرة ، أو "لاضرر ولاضرار إذ يمكن للمسلم استناداً لهذا المبدأ أن يشرب الخمر فى الصحراء إذا لم يجد ماء وذلك لضمان بقائه حياً وهذا الأمر أى بقاء الذات مقدم على تطبيق الشريعة والأخذ بها .

ومن الممكن للمسلم تقيه أن يجهر بمعصية الله والكفر به إذا كان مكرهاً كما فعل عمار بن ياسر الصحابى الجليل .

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن الإسلام دين يسر وليس دين عسر، وأن الإسلام لايمكن أن يكون هو مركب الآخرة فحسب بل هو يرتب لنا شئون الدنيا ويوجهنا إلى تحقيق النجاة فى الأخرة .

ومهما تأول المغرضون لنصوص الإسلام وقصوره على شئون الغيب والآخرة فإن المسلمين يرفضون هذه المقولة وكلهم يؤمن بضرورة إسلامية الحاكم وخضوعه لقواعد الشريعة الغراء مما لايشكل ضغطاً أو إلزاماً على المسلمين ما دامت الحرية قد كفلت لهم عن طريق مجال الشورى ، وعن طريق التقاضى .



الفصل الثالث

مشكلات على طريق الدولة الإسلامية

١ ـ يعترض البعض على تسمية "الدولة الإسلامية" بهذا الاسم، وكذلك على تعبير "الحكومة الإسلامية" ويذهبون إلى أن استخدام هذه الألفاظ إنما يخدم فكرة الإسلام السياسى .

ويعد هذا خلطاً بين الأمور، وقد سبق أن ذكرنا كيف أنه مادام دستور الدولة ينص على أن الإسلام دينها الرسمى ، فإنه لابد من أن تكتسى سائر المؤسسات وجميع مظاهر الحياة باللون الإسلامى على أن ترعى حرية أصحاب الأديان الأخرى أى أهل الذمة فى ممارستهم لشئونهم الدينية والدنيوية دون قسر أو إكراه ما دامت غالبية المسلمين قد ارتضوا لأنفسهم أن يكون الإسلام رائدهم فى كافة شئون الحياة ، ولقد رددنا على المزاعم التى يدعيها بعض المفكرين الذين يمثلون قلة محدودة فى المجتمع الإسلامى ودحضنا ما يشكلونه من حجج واهية ضد مفهوم الإسلام السياسى بالمعنى العام الذى أشرنا إليه .

ومهما كانت أسباب الدعوة إلى الدولة الإسلامية أو الحكومة الإسلامية فإنها فى نهاية الأمر تنبثق من تعاليم الإسلام التى تساندها رغبة الكافة من أبناء الأمة الإسلامية، ونعنى بمفهوم الأمة الإسلامية ما يقوله الرسول الكريم "المسلم أخ لكل مسلم آخر" مع اختلاف الموطن واللغة والعادات والتقاليد، وأن المعيار الوحيد للمواطنة الإسلامية هو التقوى "كما سنرى فيما بعد فى ردنا على الأفكار التى تتبنى فكرة القوميات الإسلامية وتفرق بين المسلمين وتميز بين تجمعاتهم عن طريق القومية وهى فكرة حديثة بل معاصرة".

ويهمنا أن نشير إلى أن التكتل الإسلامى إنما ظهر بصورة واضحة كرد فعل على الإستعمار والوقوف فى عزم وتصميم أمام المهاجمين للوطن الإسلامى لاسيما إبان الحروب الصليبية .

وقد كان الصراع شديداً بين المدافعين عن الإسلام وأعدائهم من أصحاب الأديان الأخرى، ولعلنا نذكر أيضاً ذلك العداء الصريح الذى واجهت به الشعوب المسيحية فى أوروبا دولة العثمانيين استمراراً منهم للرغبة فى تقويض دعائم الإسلام واستعمار البلاد التى تستظل بلوائه فى العصر الحديث كما حدث فى هجمة نابليون الشرسة على مصر والشام، ثم استعمار فرنسا للشمال الأفريقى ، وإيطاليا لليبيا ، وتسلل النفوذ الغربى فى إيران، ثم انتهاءاً بسيطرة بريطانيا على معظم بلاد الشرق الأوسط الإسلامية ، وقد أدرك قائد الجيوش البريطانية فى هذه المنطقة إبان الحرب العالمية الأولى وهو اللورد "اللنبى" بأن زحفه على فلسطين ووصوله إلى دمشق كان إيذاناً بانتهاء الحروب الصليبية إذ وقف على قبر صلاح الدين قائلاً "الآن فقط أنتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين" ويقصد بذلك أن الغرب المسيحى قد حقق انتصاراً نهائياً على فلول المسلمين ، وناهيك بما حدث للأندلس الإسلامية قبل ذلك حيث ظلت روح العداء الغربى للإسلام وبلغت أوجها فى هذه الفترة المعاصرة رغم أنهم يزعمون أنهم رسل الحضارة الأنسانية، إلا أنهم قد عمدوا إلى إرسال البعوث التبشيرية إلى إفريقيا وآسيا للتمكين للمسيحية فى بلاد الإسلام ، فهل بعد هذا العنت الذى واجهه المسلمون والذى تمثل مؤخرا فى الإنتقام من الشعوب الإسلامية بعد سحق الخلافة العثمانية التى كانت قد أذنت بالمغيب قبل هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. هل بعد هذا كله يصح لرسل الحضارة الغربية أن يزعموا أنهم إنما

يتوخون نقل الحضارة الغربية ومبادئها إلى العالم الإسلامى ويتعللون بأن الذى يدفعهم إلى هذا روح إنسانية وغير نفعية كما يزعمون ؟

وقد كانت -مثلا- الحروب التى شنتها الدول الغربية على البلاد الخاضعة للدولة العثمانية كلها كانت تنضح بالتعصب الدينى والعرقى كما حدث بالنسبة لليونان فى حرب اليونان فى القرن التاسع عشر، وقد رد الشيخ محمد عبده على هجوم أساطين الغرب من المستشرقين على الإسلام وحضارته وتعاليمه.

وكان هؤلاء الغربيون من أمثال "رينان" و "هانوتو" و "جوبينو" يقطرون دم الحقد على الإسلام وشعوبه ويسمون المسلمين بالتخلف ويجعلون منهم عنصراً متخلفاً لا يصلح للعلم أو للفلسفة انسياقاً إلى دعوى العنصرية الآرية، وكان من جراء هذا الهجوم المتعنت على الإسلام أن ظهرت دول تتعصب للإسلام وتشكل حياتها بحسبه مثل باكستان ، وإيران، وقد عمل الغرب على إذكاء الروح العلمانية فى ربوع الإسلام وتشجيع التيارات الإلحادية، والوقوف أما انتشار العلوم الدينية ، وذيوع النموذج الغربى فى الانحلال والتفسخ وشرب الخمر ولعب الميسر ... الخ ، بحيث كان الضالعون معهم من المسلمين يتقربون إلى المستعمر الغربى لاتخاذ النموذج الغربى المستهتر كمثل لهم فى حياتهم واعتبار أن الإسلام وتعاليمه يمثلان رجعية بالية . وقصدهم من هذا هو القضاء على هوية المسلم وجره إلى مظان التقليد والعبودية للغرب ومباذلة .

ومع هذا فإن أساطين الحضارة الغربية قد ضنوا على الشعوب الإسلامية وحجبوا عنها الكثير من منجزات الحضارة الغربية وأساليب التقدم التكنولوجى بصفة خاصه. هذا فى الوقت الذى يجب أن نتنبه فيه إلى أن الغرب قد استغل شعوب العالم الثالث الإسلامية وذلك بالإستيلاء على مصادر الثروة الأولية

الناتجة من الأرض أو البترول وعملوا فى نفس الوقت على إشاعة الفساد بين الشعوب الإسلامية ولاسيما بين حكامهم وقادتهم الذين يسرقون أموال الشعوب ويقدمونها إلى موائد الخمر والقمار فى أوربا وأمريكا وكذلك إلى المواخير وسائر صنوف اللهو والعبث، والأدهى من ذلك أنهم قد زرعوا وسط وطننا -أى فى مركز القلب من العالم الإسلامى- دولة إسرائيل بمساعدة من أمريكا والغرب، وقد عمدت إسرائيل- بعد أن تجمع لها رهط كبير من شذاذ الآفاق من اليهود، إلى تطبيق مبادئ الصهيونية الخطيرة، فتسللت إلى هذه المنطقة للقضاء على مبادئ الإسلام وشعوبه، بعد أن روضت المسيحية وتدخلت فى شئونها فى الغرب. أما إذا احتج المعارضون بإنه لاتوجد حكومة إسلامية دينية إلا فى عصر الرسول ﷺ أو فى عصر أبى بكر وعمر أى أن سائر تاريخ الإسلام السياسى قد تعرى من التطبيق الإسلامى فهذا ادعاء غريب ، إذ أن الشكل العام للحكومات التاريخية فى الإسلام كان يحمل الطابع الإسلامى، ولكن الظلم وعدم تطبيق مبادئ الإسلام فى الحرية والعدالة والانصاف والمساواة لايمكن أن يضار به الإسلام وتعاليمه ذلك لأن البشر لهم نوازعهم وغرائزهم وتطلعاتهم التى قد تتعارض مع مبادئ الإسلام وتعاليمه .

وهذا لايعنى كما سبق أن ذكرنا أن تنزع الصفة الإسلامية عن تاريخ الإسلام السياسى لأن الإسلام شئ وسلوك وتصرفات المسلمين شئ آخر فليست العصمة إلا للنبى ﷺ . وقد سبق أن ذكرنا أنه لايكون هناك أى معنى للتكليف الشرعى وللجزاء الأخروى ولحرية الأفراد فى المجتمع إلا إذا سلمنا بإمكانية وقوع الأخطاء والشرور والآثام فى أى مجتمع إسلامى عند حكام أو أفراد ينحرفون عن تعاليم الإسلام وينبغى معاقبتهم فى الدنيا أو محاسبتهم فى الآخرة وكل هذا لايقدح فى نسبة صفة الإسلام إلى الدولة القائمة على أمر

المسلمين ، وإذا كان البعض يأنف من تسمية الدولة أو الحكومة باسم الإسلام مخافة أن ترتمى كلية فى أحضان الدين، ولهذا فهم يفضلون أن تتسم الدول بالطابع الوضعى أو الإنسانى العام. فإننا نرد على هؤلاء قائلين : بأن الإسلام كما أشرنا من قبل هو دين الفطرة وأنه لذلك يعتبر ديناً إنسانياً لكل البشر يتطابق مع المعانى والمبادئ العالمية الإنسانية التى ينطوى عليها الإسلام، ومعنى هذا أن الطفل منذ النشأة الأولى وعند جميع أجناس البشر إنما يولد وهو على فطرة سليمة أى كما ذكرنا أن هذه الفطرة التى فطر الله الناس عليها هى الإسلام وتأتى عملية دخوله فى دين آخر غير الإسلام عن طريق أبويه فيما بعد....[1] .

٢ ـ وعلى هذا النحو فإن النظام الليبرالى الذى يروج له العلمانيون وغيرهم ممن يحبذون فكرة انفصال الدين عن الدولة سيكتشف الداعون له من تلقاء أنفسهم أن الليبرالية اذا أحكم تطبيقها فإنها لن تتعارض مع مفهوم الإسلام، ومما يؤكد لنا هذا الربط الدقيق بين مفهوم الليبرالية المستنيرة ومفهوم الإسلام السياسى[2] ، أن كبار دعاة الليبرالية فى العصر الحديث كانوا من الدعاة الإسلاميين من أمثال رفاعه الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد إقبال والشيخ محمد عبده إذ أنهم فى الوقت الذى كانوا يؤمنون فيه بالليبرالية كانوا ينطلقون من الإسلام ومبادئه كدعاة للتنوير فى مصر وغيرها، أى أنهم هم الذين يقودون حركة التحديث الحضارى والدعوة إلى الأخذ بأسباب التقدم الغربى فيما لايتعارض مع الإسلام عقيدة وشريعة.

---

(١) يولد المرء على الفطرة وأبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه .. أو كما قال ﷺ .

(٢) على ما يروجه الذين وضعوا توصيفه المبتسر وضعاً وانسلاخاً عن المعنى الحقيقى للإسلام ألا وهو الإسلام المتكامل .

ولايضير الإسلام أن بعض الشعوب الإسلامية المعاصرة قد غلبت على أمرها فلم تطبق مبادئ الديمقراطية الإسلامية وخضعت لحكومات عسكرية أو لحم شمولى مطلق لايستمد جذوره من تجمعات الشعوب الإسلامية وهذا النوع من الحكم ينتشر بصورة ظاهرة أو مختفية بعض الشئ فى كثير من الأمصار الإسلامية، وعلى الشعوب الإسلامية أن تجاهد فى سبيل إرساء قواعد الشورى الديمقراطية فى بلادهم، وأن يجبر الحكام على الالتزام بهذه المبادئ بعد تكوين رأى عام ضد الحكم الديكتاتورى فى بلاد الإسلام .

ونحن نرى أنه لابد من قيام جامعة للشعوب الإسلامية لاتتدخل فيها أيادى الحكومات أو الدول الإسلامية وأن تنشأ هذه الجامعة فى أرض تعتبر أرضاً حرة يتجمع فيها أحرار العرب والمسلمين للنظر فى أحوال وشئون شعوبهم بدون تدخل الحكومات الإسلامية ، ولهذا فإننا ننادى بعدم الاكتفاء بالتجمع الإسلامى الرسمى المتمثل فى المؤتمر الإسلامى العالمى وقد ظهر قصوره الواضح فى معالجة مشكلات العالم الإسلامى الخطيرة سواء فى البوسنة والهرسك، أو فى كشمير، أو بنجلادش ، أو الفلبين، أو فى الصومال، أو فى غير ذلك من البلاد الإسلامية .

٣ ــ ونحن نوجه النظر بشدة إلى أن استخدام القوة أو الثورة لتقويض النظام الإسلامى أو ما يد حى بقلب نظام الحكم فى أى بلد إسلامى، إنما يعد عملاً عدوانيا لايتفق مع تعاليم الإسلام إذ أن الشرعية السياسية القائمة على الدين لابد أن تنبع مما يسمى بإجماع المسلمين أى تكوين رأى عام مضاد للنظام الفاسد، أما استخدام القلة الإسلامية للقوة فى ضرب الحكومات والدول الإسلامية القائمة رغم فساد البعض منها فإنه يعد اعتداءً صريحاً على الشرعية الإسلامية مادام لم يلتزم أصحاب هذا الطريق بأسلوب

الشورى والإجماع، فليس لقلة أن تسيطر على الكثرة الغالبة عن طريق استخدام القوة ولاضير من اتجاه الإسلاميين[1] إلى تولى السلطة فى المجتمع فهذا أمر يطالب المسلمون شرعاً وتكليفاً بالاهتمام به والعمل على إقناع الكثرة الغالبة بالطرق المشروعة....[2] ، وبذلك يمكن للمتصدرين من الإسلاميين تولى السلطة دون أى التزام بأن يكون المتولون للسلطة من بين رجال الدين كما سبق أن ذكرنا وكيف أن الشروط الواجبه فى أى فرد يتولى السلطة هى فقط علمه بتعاليم الإسلام لكى لاينحرف عنها مادام يوجد حكم ديمقراطى يواجه به الشعب أى انحراف أو خروج على الشرعية

---

(١) ولانعنى بالإسلاميين هنا الفقهاء أو المتضلعين فى الدين، بل نقصد فقط هؤلاء الملتزمين بإسلامية الدولة أى قيامها على أن الإسلام هو دينها، وأن جميع القادة والحكام ملتزمون بقواعد الشريعة ومبادئها .

(٢) ونحن نلاحظ فى عصرنا هذا تقصيراً كبيراً فى المجتمعات الإسلامية ولاسيما فى مصر من حيث شيوع اللامبالاه والسلبية فى استخدام حق الانتخاب الشرعى لدى البالغين والمكلفين قانوناً بالإدلاء بأصواتهم فى أى عملية انتخابية. ولكى نعالج هذا الأمر الخطير حتى تتحرك الغالبية الصامتة ينبغى أن نعود إلى تدريس برامج التربية الوطنية فى المدارس حتى يسهم التلاميذ منذ نعومة أظافرهم فى تناول المشكلات السياسية والاجتماعية فى مجتمعهم ، وينبغى أيضاً أن نرتب عقوبات على الممتنعين عن ممارسة هذا الحق الدستورى وذلك بوضع نوع من العقوبات الرادعة سواء كانت مادية أو معنوية وبحيث يشعر المواطن أنه سيفقد بعض حقوقه المدنية إذا لم يمارس حقه الإنتخابى وإذا تمت هذه الإجراءات فإنها كفيلة بأن تفرز ممثلين حقيقين للشعب يعبرون عن آرائه تماماً .

فلا تتحكم القلة فى الكثرة بطريقة واضحة كما نرى اليوم، وحين ذاك سيظهر للناس ضحالة موقف العلمانيين والرافضين لمعتقدات الشعب إذ ستتكشف للناس أجمعين الصورة المشرفة لشعب يتمسك بدينه وبقيادته التى تنبع من إيمانه بالإسلام المتكامل الذى يتخذ شريعته من النص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وأن سائر القوانين ينبغى أن يكون مصدرها الشريعة الإسلامية ، وأن يرفض شرعاً كل ما يتعارض معها .

الإسلامية دون ضغط أو قسر أو إكراه .

ومن قبيل ذلك أيضاً ما يدعو إليه بعض المتطرفين من الهجوم على الوحدة الوطنية ومحاربة المفسدين بالقوة بعيداً عن أجهزة الدولة الإسلامية، ذلك أن هذا الأمر يشيع الفوضى فى المجتمع الإسلامى فما دامت هناك دولة إسلامية فإنها يجب أن تكون لها وظيفة الردع والعقاب للمخالفين ، وينسحب هذا المعنى أيضاً على آيات الثأر والقصاص الواردة فى القرآن فإن الوالى هو الذى يأخذ بحق المعتدى عليه وليس أهله كما يفعل الكثيرون فى مصر ، وذلك بقيامهم بالثأر مباشرة ممن اعتدوا عليه إذ أن الدولة هى التى تتولى القصاص لأنها هى ولى الأمر فى المجتمع الإسلامى .

ونحن نتساءل عن مدى فهم هؤلاء المتطرفين للإسلام؟ فهل يريدون أن يتولوا هم مقاومة الفساد والانحراف فى المجتمع الإسلامى فلا يكون لولى الأمر إلا التصديق على ما يفعلون وما يصدرونه من أحكام بالقتل والتكفير على الآخرين ...[1]

---

(١) لقد دأبت بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة مثل جماعة التكفير والهجرة على إصدار الأحكام على من يرون تكفيرهم من غير الضالعين معهم فى مذاهبهم، وهم بذلك كما سبق أن ذكرنا ينتسبون إلى جماعة الخوارج القديمة وكأنهم يجعلون من أنفسهم سلطة اجتماعية تمنحهم صفة ولى الأمر ، وهذا خطأ فاحش يجب أن يرجعوا عنه، وهم يحتجون بأنه مادام ولى الأمر قائم لم يعمل بما أنزل الله أى لم يطبق الشريعة الإسلامية، فيتعين أن تنتفى عنه صفة الولاية الإسلامية فيكون لهم الحق كما يزعمون فى تولى إمارة الجماعة الإسلامية ، وأن يتولوا سلطة ولى الأمر وقيادته للمجتمع الإسلامى . وهذا بعيد كل البعد عن روح الإسلام ومقاصد الشرعية لأنه أمر سيصل على إنهيار المجتمع الإسلامى وزيوع الفوضى والاضطراب فى البلاد الإسلامية وتفكك أجزاء هذا الوطن الإسلامى الكبير .

٤ ــ على أن استخدام القوة في حل مشكلات المجتمع الإسلامى داخلياً أو خارجياً ينبغى ألا يخرج عن الحدود الشرعية، بمعنى أن يكون الجهاد الخارجى مثلاً موجهاً ضد المعتدين على الإسلام فحسب وأما فى الداخل فإن الجهاد هنا وهو الجهاد الأكبر يصبح جهاداً للنفس الأمّارة بالسوء، يقول الله عز وجل ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ...﴾[١]، وهذا المعنى فى الجهاد ليس داخلياً فحسب ، بل هو ينطبق عليه معنى الجهاد المادى أيضاً بعكس ما يراه البعض ، ويشير القرآن إلى ضرورة الجهاد بالأموال والأنفس فى سبيل الله ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ....﴾[٢] ، وكذلك يوجه القرآن المسلمين إلى الجهاد وهو معنى عام وليس خاصاً بحرب قريش فحسب يقول الله عز وجل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[٣] ، أفليس لهذا المعنى ما ينطبق على هجمة اليهود فى فلسطين، قبلها هجمة المسيحيين على الشام، ثم على الأندلس، ثم هجمة الصرب على المسلمين فى البوسة والهرسك .

وتتابع الآيات فى معنى الجهاد يقول الله عز وجل ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزيه عن يد وهم صاغرون﴾[٤] ، وكذلك قوله تعالى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٢ .

(٢) سورة التوبه ، آية ٤١ .

(٣) سورة الحج ، آية ٣٩، ٤٠.

(٤) سورة التوبه، آية ٢٩.

أخرجوكم والفتنه أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن أنتهوا فإن الله غفورٌ رحيم. وقاتلوهم حتى لاتكون فتنه ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وأتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين﴾[1] .

ويخطئ من يظن أن أحكام الجهاد مؤقتة رهينة بظروف معينة وإن احكام الجهاد الأكبر أى جهاد النفس هى الأحكام الدائمة اذ أن الجهاد فى سبيل الله لدفع الظلم والاعتداء على المسلمين قائم إلى يوم الدين إذ كيف يمكن لنا أن نسكت عن الشرذمة الصربية التى تسحق المسلمين، وتغتصب نساءهم، وتدمر مساجدهم فى البوسنة والهرسك.

وكذلك كيف يمكن لنا أن نقف سلبيين فى مواجهة القوات الهندية الغاشمة التى تصب على المسلمين الحديد والنار فى داخل الهند وعلى أهل كشمير من المسلمين. فلماذا شرع الجهاد إذن إذا لم يكن لمواجهة أمثال هذه الهجمات الشرسة على الإسلام؟ يجب أن نتنبه إلى المزالق الخطرة التى يقودنا إليها أصحاب الفكر العلمانى، أو الذين يتظاهرون بأنهم متحضرون يرفضون سفك الدماء حتى و كان ذلك فى سبيل إحقاق الحق فإن هؤلاء هم دعاة السلبية وعشاق الغرب وأساطينه فى المجتمع الإسلامى .

وقد سبقت الإشارة إلى دعاوى القاديانية فى إبطال الجهاد، وكان زعيمها قد تلقى العلم فى إنجلترا وتشبع بروح الاستسلام والسلبية للمستعمر الإنجليزى

---

(١) سوورة البقرة ، آيات ١٩١-١٩٤ .

فنادى بإبطال مبدأ الجهاد فى الوقت الذى كانت فيه جميع الشعوب الإسلامية خاضعة للاستعمار والمذلة والهوان .

أما الأستناد إلى الآية "٢٥٦" من سورة البقرة التى تنص على أنه ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿لست عليهم بمسيطر ﴾[1] ، وتوجيهه للرسول فى قوله تعالى ﴿ إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾[2] ، هذه الآيات كلها ليست موجهة إلى الشعوب المعتدية على الإسلام بل هى موجهة إلى الجماعات والأفراد الذين ينبغى عليهم أن يقرروا بعقولهم بعد التبليغ هل ينضموا تحت لواء الإسلام أم لا، فى نطاق الحرية والعدالة فلا يكره أحد منهم على اعتناق الإسلام بل يكون حراً فى اتخاذ قراره بهذا الصدد بعد أن تبين له الرشد من الغى.

على أنه لما كانت الدولة الإسلامية هى التى تحمى الأمصار الإسلامية بما فيها من مسلمين وذميين ، فإنه كان عليها أن تجبى الجزية أو ضريبة الرؤس منهم ماداموا لايشتركون فى القتال للدفاع عن الأمصار التى يعيشون فيها، وهذا الأمر مقصور على أهل الكتاب فحسب، أما أصحاب الوثنية فإن دارهم دار حرب دائمة فلا يجوز للمسلم التعاقد معهم بأى صورة من الصور . وقد تسامح المسلمون فى العصر الحديث بإقامة علاقات بين المسلمين وأصحاب الأديان الوثنية لأننا بذلك ندفع المضرة عن العالم الإسلامى من حيث ذيوع التعامل والمنفعة وتبادل التجارة بيننا وبينهم حتى لانكون منعزلين عن ركب الحضارة والمدنية، وقد أصبح العالم كله يشكل وحدة متقاربة الحدود

(١) سورة الغاشية ، آية ٢٢ .

(٢) سورة القصص ، آية ٥٦.

والحضارات .

وعلى أى حال فإن تفسير آيات الجهاد بقصرها على مواضع النزول فيه نقض للمبدأ القرآنى العام الذى ينص على أن آيات الذكر الحكيم تعتبر قواعد عامة يسترشد بها المسلمون فى كل عصر ومكان، وإلا وقعنا فى شباك الخبثاء والمتآمرين الملحدين وأضرابهم من العلمانيين والحاقدين على الإسلام ، فنحقق لهم آمالهم فى إبطال الكثير من القواعد والمبادئ الإسلامية تحت حجة كاذبة واهنة مفادها أن بعض آيات القرآن بل أن معظمها فى نظرهم وكذلك الأحاديث ينتهى تطبيقها بانتهاء العصر النبوى وإننا لنسائلهم : هل يجرؤون على توجيه هذا النقض الهادم إلى الأديان الأخرى وإلى نصوصها القديمة سواء كانت سماوية أو وثنية، ونحن نعرف أن أدياناً كثيرة ومنها البراهمانية تنطوى على توجيهات لايمكن أن تطبق إلا فى عصرها، وهكذا نجد أن الهدف من وراء هذا النقد هو إثارة الشك حول النصوص الإسلامية المقدسة حتى يتزعزع إيمان الشباب المعاصر بها وقد نجحوا إلى حد ما فى إذاعة قدر من البلبلة والغموض باسم النقد الحر، افتراءً وكذباً على العقل واستقامته ومنطقه السوى ، وكان هذا كله أحد أسباب التطرف الذى يتباكى منه جمهرة العلمانيين وأشياعهم .

وكان ينبغى على أولياء الأمور فى المجتمعات الإسلامية قاطبة أن يقفوا وقفة صريحة أمام هذا الخطر الداهم والذى كاد يعصف بالمجتمع الإسلامى والذى يتبناه العلمانيون إدعاءً منهم أنهم إنما يدافعون عن حرية العقل وكأن الإسلام لايتبنى هذه الفكرة ولايستقيم فى نظرهم مع ما يقضى به العقل والمنطق وهذا كذب صراح، ولكن الحكام فى كثير من البلاد الإسلامية لايهتمون كثيراً بغير الصراعات السياسية على السلطة، أما حماية الإسلام والدفاع عن عقائده فإنها تعد فى نظرهم أموراً تأتى فى المرتبة الثانوية بعد كل

الأمور المعاشة فى المجتمع وقد لاتلتزم الدولة بمواجهة المهاجمين للشريعة ويشجعها على ذلك طوائف المعارضين للدين الذين تقطر نفوسهم حقداً على مسلماته وعلى معتنقيه على السواء .

٥ ـ على أننا يجب أن نؤكد على المفهوم الحضارى للإسلام[1] فى مواجهة دعاوى التعصب الدينى العرقى، إذ أن المسلمين لم يتقدموا خلال تاريخهم الطويل إلا عن طريق سلوكهم الملتزم بالمبادئ والمثل الإنسانية والعمل من أجل رفاهية الإنسان وتحقيق سعادته على الأرض وصولاً به إلى مطافه الأخير فى الحياة الآخرة التى رسم القرآن الطريق الصحيح إليها .

ولهذا فقد استظل أهل الذمة بلواء الحضارة الإسلامية وكانوا فى مأمن من القلق والشعور بالاضهاد بعد أن استقرت الأحوال فى البلاد الإسلامية وكان

---

(١) الإسلام العقائدى والإسلام الحضارى :

فالمسلم بالمعنى العقائدى هو الذى يؤمن بالعقيدة الإسلامية، ويلتزم بأداء عباداتها وفرائضها، والمسلمون العقائديون يشكلون الغالبية العظمى من العرب .

أما المسلم الحضارى فهو الذى يدين بدين سماوى آخر غير الإسلام ولكنه يدخل فى الزمرة العربية لأنه يشترك مع الغالبية فى اللغة والتاريخ المشترك والآمال والأهداف فضلاً عن البيئه المكانية، ويغترف مع المسلمين جميعاً من تراث فكرى وثقافة واحدة، وعلى هذا نجد أسماء كثيرة من أهل الذمة شقت طريقها فى الدول الإسلامية عبر التاريخ ومنهم الأطباء والوزراء والمفكرون وهؤلاء جميعاً قد أظلتهم الحضارة الإسلامية وجاءت أفكارهم وليدة البيئة الإسلامية وثمرة للإنتاج الثقافى الإسلامى فى ذلك الوقت .

وعلى هذا النحو فإن العرب : مسلمون وغير مسلمين عقائدياً يندرجون جميعاً تحت معنى الإسلام الحضارى ونحن فى محاولتنا تفسير المحتوى العروبى وبيان كيف أنه يرجع إلى الإسلام ونحن لا نلتمس تفسيراً أو تحليلاً متعسفاً فالحق أن المواطن العربى بعامة لايكاد يفصل بين معنى العروبة ومفاهيم الإسلام ، وعلى الباحثين ـ إذن ـ أن يتعرفوا على مصدر هذا الفهم الشائع عند غالبية الشعوب العربية .

يعيش بين ظهرانيها اليهودى والمسيحي معا، وأنحصرت الدعوة إلى الإسلام فى أسلوب الحوار والموعظة الحسنة تقول الآية ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾[1] ، وهذا هو المعنى الحقيقى للإسلام الذى لايعاد أحداً ولايهاجم أحداً "من غير المسلمين " إلا من ظل منهم على الوثنية ، أو قاتل المسلمين وهاجم ديارهم واعتدى على حرماتهم ونكث العهود معهم، أو استلب حرية الضعفاء منهم .

وقد سبق أن ذكرنا أن الجهاد فى هذه الحالات أمر مفروض وفريضة واجبة على المسلمين رغم تجاهل المعاصرين من ولاة أمور المسلمين له .

وعلى هذا النحو فإن تعاليم الإسلام إنما تتجه فى مجملها إلى مساندة الحضارة ، والعمل على ازدهارها بكل قوة وتصميم جاد، فلا تستخدم القوة العسكرية كما سبق أن ذكرنا إلا للدفاع عن ذمار الأمة الإسلامية وحضارتها فى عالم مليئ بالصراع على المنافع واستلاب ثروات الأمم والتنازع من أجل السيطرة والنفوذ، وليس من المعقول إذن أن نقف موقفا سلبياً فى مواجهة العدوان على شعوبنا ووطننا الإسلامى حتى يقال عنا أننا شعب متحضر يتسمك بالسلام حتى ولو أحرقت دماء أبناءه وتشرد أطفاله ونساءه، وهذه القضية تعتبر من البديهات التى تدركها الشعوب بعقولها وتحسها بوجدانها إذ ليس هناك أى دور للتهدئه من أجل السلام أو تحكم العقل، إذا كانت الأمم تخوض معارك الحرية والانتصار للمبادئ ورفض الاستسلام لدحر العدو الغاصب. نحن مطالبون دائما بالحذر من تحركات غير المسلمين فى الخارج، وإعداد أنفسنا لحماية الحياة والتقاليد الإسلامية من العبث والأنهيار يقول الله عز وجل ﴿واعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو

---

(١) سورة النحل ، آية ٢٥.

ا لله وعدوكم وأخرين من دونهم ...﴾[1] .

بل ينبغى أن نكون فقط فى موقف الدفاع عن حضارتنا معنوياً ومادياً، وعلى هؤلاء الذين يطلبون من المسلمين وقادتهم تفريغ معنى الإسلام من هذا المفهوم الدفاعى للدولة الإسلامية .. أن يكفوا عن هذا العبث بمقدرات الإسلام ومبادئه لأنهم إنما يريدون ضرب الأمة الإسلامية فى الصميم والتربص لها الخداع وسوء النية وتقديم التفسيرات والنصائح المضللة حتى تصبح أثراً بعد عين ، وتتفكك أواصرها وتنهار حضارتها ، إذ أن هذا المجتمع الإسلامى ليس مجرد تراكم عددى اقتصادى فحسب بل سترسخ صورته المثالية إذا خضع لتعاليم الإسلام الحق وشاعت فيه روح الترابط والتكامل والتماسك العقلى والدينى والاجتماعى .

على أنه من ناحية أخرى يمكن ضرب التجمعات الإسلامية إذا استنام قادتها وأفرادها إلى ما يذيعه أعداء الإسلام من آراء ومذاهب تفضى إلى تعرية الإسلام من أقوى عناصره الفعالة المتمثلة فى هذه المعانى التى أشرنا إليها .

وقياساً على هذا فإن بعض المفكرين يذهبون إلى التمييز بين الأصولية الإسلامية العقلية والأصولية الإسلامية الحركية، وهذا تمييز مبتسر لأن الأصولية العقلية لابد أن تكتسى بطابع حركى، وهم إنما يقولون بذلك لكى يبطلوا معنى الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية .

وتتمثل الأصولية العقلية فى فهم الظروف الجديدة المحيطة بالعالم الإسلامى ومجتمعاته وذلك باستخدام الاجتهاد الفقهى للمواءمة بين الأصول ــ أى

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٦٠ .

القواعد المتمثلة فى الكتاب والسنة، بينها وبين البيئات الزمنية والمكانية الجديدة بما لايخرج عن تعاليم الإسلام وعقائده الجوهرية.

وكيف يمكن أن نقبل دعوة القائلين بأن الأصولية الحركية كما يقولون تستمد تعاليمها من الماضى ومع ذلك يسمونها بالأصولية الحركية ، وهؤلاء الذين يقولون بهذا الرأى إنما يقصدون برأيهم هذا بعض المتحجرين من السلفية، وبعض أصحاب المذاهب المتشددة الأخرى، ومن ذا الذى يسلم بآرائهم سوى قلة من المنخدعين بقشور الدين والذين لايريدون التقدم الحقيقى للعالم الإسلامى وشعوبه .

لكن يجب أن ننبه إلى أن المهاجمين لهذه الفرق المتطرفة إنما يكشفون عن سوء مقصدهم ويخلطون بين دعاة التطرف ودعاة الاعتدال، أى هم يحاولون ضرب الفئات التى تمثلت الإسلام فى توفيقه بين العقل والنقل وعدم الالتزام بالتعاليم والتقاليد الفرعية التى كانت تطبق فى العصور السابقة إذا لم يكن فى ذلك ضرر يحيق بقوام الدعوة الإسلامية ويكون مقصودهم فى هذا فى معارضتهم للجماعات المتفرقة لا ، أى مقصود المهاجمين للحركة الإسلامية - أنهم يكتفون بإعلان سخطهم على أسلوب التكفير والقتل واستخدام العنف فى دعواهم بل هم أى- جملة المعترضين من العلمانيين وفلول اليسار والمشايعين لهم من طالبى الحظوة لدى الحكام وأصحاب النفوذ والمتسلقين والمنافقين بل- أنهم إنما يأخذون أيضاً على أصحاب الدعاوى المتطرفة أنهم يوجهون الناس بكل الطرق إلى ضرورة الالتزام بقواعد الدين وتعاليمه فيحضونهم مثلاً على الصلاة والصيام، ودفع الزكاة ، والقيام بفريضة الحج، واحترام شعور المسلمين بعدم شرب الخمر علناً، وكذلك لعب الميسر ... الخ مما ينبغى أن يفعله المرء لكى يكون مسلماً حقاً .

فمثلاً نجدهم يقفون فى وجه حجاب المرأة المسلمة وشجب تبرجها، يقول الله عز وجل ﴿... ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ..﴾[1] ، وكيف بنا نبيح باسم الحرية الكاذبة لشباب المسلمين شرب الخمر، ولعب الميسر، والرقص الخليع، والإنغماس فى اقتراف سائر الملذات الجنسية وغيرها. وإذا كان هؤلاء المارقون عن الدين من دعاة التحرر من تعاليم الدين يريدون أن يطبقوا معنى الحرية فى تكاملها، ينبغى لهم أن يتركوا المسلمات وشأنهن فى استخدامهن للحجاب، وعدم ابتذالهن وكذلك عدم إبداء زينتهن إلا لبعولتهن أو لمحارمهن. ولكننا للأسف نجد أن الدولة عن طريق أحد وزرائها تعاقب بعض المشتغلات بالتعليم وبعض الطالبات فتأمرهن بعدم استخدام الحجاب الشرعى، وتعاقب رؤساءهن على عدم الالتزام بتعاليم الدولة فى هذا الصدد. ولست أدرى هل ينافق البعض من الرسميين دعاة النزعة العصرية من الذين يبالغون فى استبعاد الدين واعتباره من مخلفات القرون الوسطى الرجعية، فيكون موضعه فى نظرهم فى المتاحف التاريخية فحسب والعياذ بالله !! ألا فليفهم هؤلاء المخادعون أن الذى يحاول الضحك على الشعوب الإسلامية وابتزازها عن طريق تقديم مُثُل التقدم الغربى "التى لا نرفضها" على وجه الإطلاق ذلك فى مقابل التخلى عن الدين وتعاليمه وأستبدالها بإشاعة موجات الإنحلال والإسفاف والابتذال الرخيص. إن هؤلاء المتشدقين بالعلم أو بالعالمية سيلقون مصيرهم حتماً على أيدى جحافل الشعوب الإسلامية التى تكتم أمرها على مضض خوفاً من بطش جلاديها من بعض الحكام ومن أشياعهم ، ولكن هذه الثورة المكبوتة والبركان الخامد سيتفجر فى عنف وفى ضراوة حينما تبلغ الضغوط غير الإسلامية فى الداخل والخارج مبلغ الإعنات والقهر الشديد .

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٣٣.

وينبغى أن نشير إلى أن الحضارة الإسلامية قد انضوى تحت لوائها المسلم وغير المسلم ، وكانت الثقافة التى تعبر عن هذه الحضارة ثقافة إسلامية مكتملة ينتجها ويستهلكها المسلمون وغير المسلمين ، ويسمى غير المسلمين فى ظلها بالمسلمين الحضاريين، أى بالمسلمين حضارة وثقافة دون أن يكون الإسلام عقيدتهم[١] .

٦ ـ وثمة تساؤل عريض حول ما يسميه البعض بالقومية الإسلامية، وأننى لا أتفق مع هؤلاء بأنه ليس هناك ما يسمى بالقومية الإسلامية، وهذا بالإضافة إلى أن فكرة القومية إنما تعد فكرة معاصرة نشأت بعد توحيد ألمانيا وإيطاليا فى القرن التاسع عشر ، وكانت التجمعات البشرية فى القرون الوسطى سواء فى الشرق أو فى الغرب تقوم على أساس دينى، وكانت الأمبراطوريات القديمة تضم فى ثناياها الكثير من الشعوب المتباينة فى الجنس واللغة والدين، وذلك عن طريق القهر والاستبداد والغزو المسلح، ونحن إذا راجعنا الآية الكريمة ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٢] ، وكذلك الحديث الذى أوردناه من قبل والذى يقول "لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى" فإننا نجد أن هذه الآية تنص صراحة على اختلاف الشعوب والقبائل ، وأنه يتعين الالتقاء والتعارف بين هذه الشعوب، أى أن ثمت صيغة أو أساساً يقوم عليه التمايز بين الشعوب ولاسيما من حيث الأصول العرقية واللغوية وغيرها .

---

(١) راجع فى ملحق هذه الدراسة مقال بعنوان نحو إيديولوجية إسلامية عربية لكاتب هذا البحث.

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٣.

وعلى الرغم من إنه يمكن أن تكون هناك نزعات قومية تنادى بالقومية الفارسية أو العربية أو الأفريقية ..... الخ ، إلا أن الإسلام نص على ضرورة الالتفاف حول راية واحدة، وتحت مظلة واحدة وهى الإسلام فحسب، وهذا هو معنى الآيه الكريمة التى تنص على أن الله أخرج الأمة الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس، وهى حصيلة التفاعل الطيب والمتكافئ بين مختلف الشعوب الإسلامية من عربية وغير عربية ولهذا فقد شجب الإسلام الشعوبية ونعراتها، والإتجاه إلى النزعة العنصرية. فهذا أمر يبغضه الإسلام، وليس معنى أن القرآن نزل بلغة العرب أن يحظى العرب بمكانة السيادة فى مجتمع الأمة الإسلامية فقد كان من الممكن أن ينزل بغير هذه اللغة ولكن مشيئة الله قد أخرجته بلغة العرب .

ومن هذا المنطلق يجب ألا نقيم أى مساواة بين فكرة القومية وفكرة الأمة الإسلامية، وذلك أمر لايتفق مع واقع الحياة المعاصرة من حيث أن القوميات تختلف، والدين موضع اتفاق فهناك قومية إيطالية ، وقومية إنجليزية ، وقومية ألمانية، وقومية فرنسية ، بينما يتفق هؤلاء جميعاً على أنهم مسيحيون وهناك قومية هندية، وأخرى صينية أو يابانية ، أو قوميات جنوب شرق أسيا غير الإسلامية وهى جميعاً تتقارب أديانها ويخضع معظمها لتعاليم البوذية والهندوكية.

وإذا انتقلنا إلى إفريقيا وأمريكا نجد أن هناك قوميات عدة وقد تتفق أديانها أو تختلف ، ومن ثم فلا دخل لفكرة القومية فى معنى الأمة الإسلامية والذين يتبنون هذا التفسير يريدون أن يعودوا بنا القهقرة إلى الخلافة العثمانية التى كانت تطبق باسم القومية غير العربية أى القومية العرقية التى يتصدى الإسلام لشجبها وعدم الاستناد إليها فى الدعوة الإسلامية .

ولهذا فإن معنى الأمة الإسلامية هو الذى يعطينا فكرة عن تكامل وارتباط الشعوب الإسلامية وانصهارها فى معنى الإسلام العريض، والتزام دولها وحكوماتها بأن تتبع المنهج الإسلامى فى هياكل نظمها ، وفى ممارستها الحيوية، وأن تتمسك بمعنى الأخوة الإسلامية فلا يقف شعب إسلامى ضد شعب إسلامى آخر ويحاربه مهما كانت الظروف .

والحقيقة أننا حينما يعرض لأى شعب إسلامى أى مكروه فإننا "وأقصد الشعوب الإسلامية وليس الحكام" نثور ونغضب وقد نشارك فى رفع الغمة عنه، ويكون هذا الشعور العذرى سبباً فى تكتل الشعوب الإسلامية، وإظهار قوتها للدفاع عن زمار الإسلام، وما يحدث الآن من رغبة عارمة لدى الشعوب الإسلامية فى مواجهة غطرسة الغرب وحكامه إزاء المشكلة الإسلامية فى البلقان بصفة عامة إنما يؤكد تماماً معنى تماسك الأمة الإسلامية وترابطها وتراحمها عن طريق الشعوب فحسب وبعيداً عن ألاعيب الحكام واستمالة القوى الاستعمارية والغربية لهم بحيث أصبح البعض منهم خدماً أو عبيداً للإرادة الغربية فيعمدون إلى منافقة شعوبهم والاكتفاء بالتصريحات التى تشجب العدوان دون أن تقدم أى إسهام فعال لمناصرة هذه القضايا الإسلامية الملتهبة ولو حتى باستضافة الأطفال والنساء الذين وقعوا ضحية هذا البطش البذيئ والغير إنسانى بالمسلمين فى أوروبا ،ومع ذلك يتبجحون بأنهم يدافعون عن الإسلام ويقفون إلى جوار شعوبه .

ونخلص من ذلك إلى أنه لايمكن أن توجد قومية إسلامية بحكم النص بل هناك قوميات للشعوب الإسلامية المختلفة وأن هذه الشعوب ستدخل فى معنى الأمة الإسلامية إذا ما ألتزمت بتعاليم الإسلام لا عن طريق إقامة دولة ثيولوجية أو لاهوتيه بل عن طريق التزام الحكام أنفسهم بالدين وتعاليمه وعقائده

السمحة، ولن تكون سلطتهم كما ذكرنا قائمة على الاستمداد أو التفويض من الله فهذا كذب وعبث و لم يقل أحد بذلك فقد جاءتنا هذه الفكرة من أصحاب النظم الملكية فى أوروبا الذين كانوا يقولون أنهم إنما يحكمون بتفويض من الله.

أما فى الإسلام فهذه فكرة غريبة عنه تماماً مادام الحكم بالبيعة ، ومادامت الشورى قائمة ، ومادام القضاء فى الإسلام قائماً ، وأخيراً مادام الاجتهاد بالرأى قائماً ، ولهذا فلا توجد أحكام إلهية بل أحكام بشرية، أى تقوم على الفهم البشرى للتوجيهات الإلهية ، ومن هنا تختلف هذه الأحكام باختلاف التفسير والفهم ويتحمل القائمون على أمور هذه الأحكام مغبة عملهم إن أخطأوا وإثابتهم إن وفقوا، فلا مشاحة إذن فى أن تختلف الأحكام باختلاف الاجتهادات وليس لأحد أن يتعسف ملزماً بحكمه للآخرين بحجة أن لديه إلهاماً أو أن لديه العصمة وأنه لايخطئ .

٧ ـ لكن الأمر الذى ينبغى أن نلتزم به فى نطاق الشعوب والدول الإسلامية هو ضرورة التزامها كما ذكرنا بخضوع كل قوانينها للشريعة الإسلامية أى لعملية تقنين الشريعة .

لم يخل أى دستور مصرى من النص على ضرورة الالتزام بمبادئ الشريعة الإسلامية ولاسيما دستور ١٩٧١، الذى نعمل بمقتضاه اليوم، وكيف أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، ولايقدح أحد من عقلاء الإسلاميين فى أن المقصود بهذا النص هو القواعد الكلية المشتركة بين مذاهب الفقه المختلفة وليس إلى الكتاب والسنة فى نصيهما باعتبارهما ينطويان على طبيعة أخلاقية وتعبدية فحسب ذلك أن هؤلاء الذين يتمسكون بهذا القول قد تناسوا أن أحكام الفقه إنما هى استنباط من القواعد والأصول الموجودة فى

الكتاب والسنة، ونحن نسألهم ما وضع الآيات التى وردت فى القرآن مباشرة عن الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث .... الخ، ألم ترد هذه بنصها فى الكتاب وكذلك ألم ترد معظم الحدود الشرعية بنصها فى الكتاب والسنة؟

وكيف أن الفقهاء قد قالوا بأنها لاتطبق إلا بعد قيام مجتمع تتحقق فيه العدالة السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية وأن يشتمل على المؤمنين التقاة العدول وهذه الشروط حقا هى ثمرة اجتهاد الفقهاء بالإضافة إلى منع إقامة الحد على التائب فى بعض الحدود الأمر الذى لايطبق الآن فى بلاد كالسعودية مثلاً، ويتجاهل بعض أرباب القانون وجود النصوص الواضحة فى الكتاب مثل حد القصاص ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾[1] ، ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾[2] ، وإذا كان الله قد أورد هذه الآيات فى القرآن فنحن ملزمون بها رغم أن الله كتبها على اليهود من قبلنا مثلاً ، فالدين واحد مهما تغير الرسل إذا لم تحرف نصوصه ، وبذلك لن تكون أحكام الفقه إلا محاولة للاجتهاد فى اعطائنا صياغة دقيقة وحاسمة لهذه المبادئ السماوية الخالدة، وقد يمكن للفقهاء أن يطبقوا الأحكام الفقهية على الوقائع الجديدة فى المجتمع الإسلامى ، وعلى الظاهرات التى لم تكن موجودة فى عصر الرسول ﷺ .

وكيف يرى البعض أن التفصيل الوارد فى آية التداين يكون من أعمال الفقه وليس منبثقاً من النص القرآنى وحده، وكذلك يقولون بأن هناك جرائم

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٩ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٤٥ .

كثيرة ظهرت فى المجتمع الإسلامى لايوجد لها نص فى القرآن والسنه مثل تلويث المياه الجارية ، والرشوة ، والتجسس، وتزييف العملة، والاختلاس ، والغدر ، وهتك العرض، والتهديد والمخدرات .. إلى غير ذلك من الجرائم، ونحن نتساءل عما إذا كان من الضرورى أن توجد نصوص لكل هذه الجزئيات والأحداث التى تقع فى محيط المجتمعات الإسلامية عبر العصور .

الحق أنه يمكن قياس جزئية على جزئية أخرى بحكم تشابه العلة بينهم كما يقول الفقهاء فمثلاً : على الرغم من أنه لم يرد نص واضح بشأن الحشيش، والهيروين والمارجوانا وغيرها من المخدرات إلا أنه يجب استخراج العلة فى كل هذه الحالات، وحينما نرى أن العلة هنا هى نفس العلة فى حالة الخمر أى الإسكار وتوهان الفرد ووصوله إلى حالة من الضياع النفسى بحيث تنتفى إرادته، وتنتكس جوارحه فلا يكون صالحا للقيام بأى عمل أو نشاط، وطبعاً يعد هذا من قبيل أعمال الشر المرفوضة والمحرمة على المسلم .

أما التجسس والرشوة والاختلاس فكلها تعتبر اعتداءً على المال العام والخاص وتعمداً للأضرار بالأفراد والمجتمعات، الأمر الذى يجعل هذه الأمور من قبيل الرذائل التى حرمها الله على عبادة مما يستحق فاعلوها الشجب والعقاب، وعلى المجتمعات الإسلامية أن تقنن الحدود الواردة فى النصوص القرآنية حتى على الوقائع الجزئية المحرمة شرعاً، إذ لا تنطوى نصوص الذكر الحكيم على مواد قانونية مصنفة كما هو الحال فى القوانين الوضعية بل هو يشتمل على آيات كلية تأخذ طريقها إلى التطبيق السليم على جزئيات أخرى .

أما إن تغيير الواقع يمكن أن يؤدى إلى تغيير النص القرآنى أو السنة بحسب الواقع الجديد فهذا أمر مرفوض تماماً للأسباب الآتية :

١ ـ إن التغيير فى الواقع لايلزم بأى تغيير فى مبادئ الإسلام الجوهرية أى فيما يختص بالعقائد والعبادات وهذا أمر مرفوض ، وقد حاول القائمون بالأمر فى تون مثلاً أن يلغوا صيام رمضان عند العمال نظراً لأن هؤلاء العمال يقومون بعمل شاق، وهذا ما لايقبله أى مسلم لأن الصيام ركن جوهرى من أركان الدين قد يمكن قضاءة بعد رمضان إذا كانت هناك أى ظروف ملزمة كالمرض مثلاً، وقد يقتضى تغيير الواقع تغييراً فى الفروع وفهمها فهماً جديداً كما هو الحال فى موقف بعض الفقهاء كأبى الأعلى المودودى فيما يختص بنظام الربا لدفع المضرة عن المسلمين كما سبق أن ذكرنا.

٢ ـ ويجب أن نتنبه إلى أن الذين يقومون على تغيير الشرائع بحسب الواقع فإنهم ليسوا معصومين من الخطأ ويقع إثمهم وخطؤهم على عاتقهم وحدهم وليس على الإسلام والمسلمين فان ما يأتونه أو ما يصدر عنهم من أحكام شرعية لابد أن يحمل على سبيل الاجتهاد فحسب، ولاتعتبر هذه الأحكام الاجتهادية ملزمة للمسلمين ، فلهم أيضاً أن يفسروها حسب ما يرونه فى غير خروج عن المبادئ الإسلامية، أما عن النسّخ فى الآيات فلم يحدث أبداً فى المبادئ الجوهرية، وفيما يختص بالرق الذى ألغى حديثاً فإن القرآن الكريم قد نصح المسلمين تدريجياً بالرأفة والرفق فى معاملة الأرقاء مع التزامهم باعتبارهم من أتقياء المسلمين إذا أحسن إسلامهم، وقد قرر القرآن كذلك عتق الرقبة وفاءً لبعض الأمور التى يقع فيها المسلم .

وعلى أية حال فإن هناك أموراً تصدر بشأنها القوانين فى شئون الحياة الإنسانية وفى تنظيم المجتمع الإسلامى لم يرد بشأنها نص فى القرآن بل إننا نضع بشأنها القوانين والقرارات أنسياقا مع روح الإسلام وسماحته مع وجود شرط أساسى هو عدم تعارضها مع الكتاب والسنة، وهكذا نخلص إلى أنه إذا أريد

لأى مجتمع إسلامى أن تحكمه مبادئ الإسلام وتعاليمه ، فينبغى أن يلتزم القائمون على أمره بإتباع الإسلام عقيدة وشريعة نصاً وروحاً أى أن تكون الدولة إسلامية وليست علمانية ، وليس هذا بمعنى أن يحكم الدولة رجال دين بل يحكمها مسلمون من جميع القطاعات والتخصصات بشرط أن يكونوا متفقهين فى الدين مع ضرورة الإهتمام بأحوال المسلمين للابتعاد عن مزالق الهوى وسرقة ثروات الشعوب الإسلامية عن طريق بعض حكامها والوجهاء فيها فتتركز الثروة فى أيدى الحكام ومن يلوذون بهم، وبذلك تحرم جموع الشعب من ثمرات العمل ومن ثروات الأرض والبحر والجو، وذلك لايشعر المحتاجون والفقراء والمعدمون بقسوة الأيام فى ظل مجتمع إسلامى يرفل فيه القائمون بالأمر ومن معهم فى العز والرفاهية .

ولابد من أن نقف وقفة حاسمة أمام كل أنواع الفساد والتربح وسرقة ثروات المسلمين إذ هى البيئة التى تنمو فيها كل الشرور والآثام ، وكذلك التطرف الدينى وما يسمونه بالإرهاب، فإن معظم أسبابه- بالإضافة إلى ضحالة فى فهم الدين- إنما ترجع إلى حالة التخلف الإقتصادى التى تعيشها البلاد، واغتراب الشباب وعدم انتمائه، وكذلك لا مبالاته وتنكيسه للقيم وكفره بالوطن كأثر من آثار الفقر والبطالة التى تستبد بالمثقفين وتصف بآمالهم وتطلعاتهم إلى حياة أفضل، ومنهم خريجو الجامعات خاصة الذين يسود بينهم التذمر والسخط والحقد والضيق والتمرد، الأمر الذى يدفعهم إلى اعتناق الأفكار المتطرفة التى يئن منها المجتمع الإسلامى بعامة .

الفصل الرابع

أهم مشكلات الفكر الإسلامى المعاصر

الصحوة الإسلامية وحركات الاحياء المعاصرة

إذا كان الغرب يحدد إنتهاء القرون الوسطى المظلمة ببداية عصر النهضة بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام ١٤٥٢م، فإنه لا يجوز لنا كمسلمين الالتزام بذلك ،لأن تعبير القرون الوسطى المظلمة إنما ينطبق تماما على اوربا ، وما أصابها من تأخر واضمحلال آنذاك بينما كانت تلك الفترة بالذات ولاسيما فيما بين القرن السابع والقرن الحادى عشر الميلادى - هى فترة ازدهار متألق للحضارة الإسلامية.

ولقد كانت الثقافة الإسلامية بمثابة الركيزة التى يبنى عليها الغرب حضارته الحديثة سواء عن طريق بغداد أو دمشق أو صقلية أو الأندلس أو عن طريق الحروب الصليبية بصفة عامة، حيث كانت مجالا لاحتكاك مرير بين الشرق الإسلامى و الغرب المسيحى، تكشفت معه للغرب نواحى القوة و العظمة الإسلامية، واستفاد منها الغرب الذى تعلم أيضا الكثير من الدروس عن اخلاقيات الإسلام وفروسية جيوشه وشجاعة معتنقيه فى مواجهتهم للغزوات الصليبية وتحدياتها اللاأخلاقية الغاشمة التى لا تزال تتبدى فى الأفق ، ولا تكاد تغيب عن أعين المسلم اليقظ الفطن الحافظ لدين الله الحنيف وعقائده.

و مما لايغيب عن البال فى هذه المناسبة تلك المحاولات الهمجية للقضاء على الإسلام وأهله و التى تتمثل فى الهجمات المسعورة على بلاد الإسلام المسلمين شرقا وغربا فى الجزائر والمغرب فى عصر الاستعمار حيث كانت تطبق سياسة

الإبادة الجماعية ، وكذلك ما يجرى فى الفلبين و فى الهند ، وما جرى فى تنزانيا ، وما يحدث للمسلمين من تحقير وإهانة فى كينيا و أوغندا و الحبشة بصفة خاصه ، وكذلك حركة الاستعباد المرير للمسلمين فى كشمير ،وأخيراً حرب الإبادة الجماعية فى البوسنة و الهرسك و التى يندى لها جبين البشرية .

وكذلك لا يجب أن نغفل عما يجرى فى قبرص حيث يراد للقدم الإسلامية الأخيرة فى هذه الجزيرة أن ترحل عنها إلى الابد ، و يشتد الصراع و تظهر رائحة التعصب الدينى من خلاله ، وهذا ما نشاهده عيانا فى استمرار مساعدة أمريكا والسوق الأوربية المشتركه لليونان ضد تركيا لموقفها العظيم فى الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة فى هذه الجزيرة التى يراد لها أن تكون كريت أو فلسطين أخرى ليعيد التاريخ مسيرته على أصوات استغاثة المسلمين ومرأى بحيرات الدم التى تسيل من جباههم فى أندلس جديدة يتصدى فيها الغرب دون حياء أو خجل ومن ورائه عداواته الحربية للإسلام عقيدة وشريعة ، وسلوكا ومنهاجا فى معظم تجمعاته على سطح الارض .

والأمر الذى لاشك فيه أن كبار مفكرى الغرب ودهاقنة ساسته ومخططى استراتيجيته العدوانية يعلمون تماما أن العملاق النائم – وهو الإسلام وشعوبه – لايمكن أن يُستنام أبدا ، فسيظل الإسلام يقظا أبدا فى قلوب معتنقيه ، وفى سلوكهم لايمكن أن يقهر أبدا ، وتلك إرادة الله ومشيئته فهو القائل عز وجل ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾(١) وكذلك يقول تعالى ﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾(٢)

---

(١) سورة آل عمران : آيه ١١٠

(٢) سورة آل عمران : آيه ١٣٩

وهذه هى الدروس التى وعاها الغرب فى القرون الوسطى عن حضارة العرب وتقدمهم وقوة باعهم فى الحرب والسلم ، وهى تشهد بأن المسلمين إذا تمسكوا بشريعة الله فلن يكونوا فى موضع ضعف أو مذلة أو استكانة أو استسلام لأعتى جبابرة التاريخ.

والإسلام كدين ودعوة لم يقم على القهر و الغلبة و الاستبداد المادى ، فلقد بين الله تعالى أساس تلك الدعوة بقوله العزيز "لا إكراه فى الدين "(١) وقوله لرسوله الحبيب "لست عليهم بمسيطر"(٢) وبهذا قام منهج الدعوة الإسلامية على أساس قوله تعالى ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ (٣) .

وكذلك فلقد حضى الدين الإسلامى على طلب العلم والتفكر الدائم فى ملكوت السموات و الأرض ، وعندما التزم المسلمون بهذا الأمر ملأت عبقريتهم الأفاق، وجاءت ابتكاراتهم فى مجالات العلوم الطبية و الطبيعية و الميكانيكية ، وانتشرت كشوفهم فى مجال علم الفلك، وعلوم البحار، والجغرافيا ..الخ . وقد اعترف بذلك كبار المستشرقين فيما كتبوه عن تراث الإسلام الذى اهتدى به الغرب فى حضارته الحديثة ذاكرين مدى تعجب الإمبراطور "شارلمان" من الساعة الدقاقة التى أهداها إليه الخلفية العباسى هارون الرشيد .

ولقد توافد علماء الغرب إبان العصور الوسطى على العالم الإسلامى لينهلوا من علمه، فمثلا بعث ملك انجلترا فى القرن الحادى عشر الميلادى إلى طليطلة

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦

(٢) سورة الغاشية : آية ١٢

(٣) سورة النحل : آية ١٢٥

روجر بيكون لينقل عن العرب وحضارتهم ، وقد عبر روجر بيكون" عن مـدى انبهاره من تقدم المسلمين بقوله "إن المسلمين على علم ومهارة فنية كبيرة بحيث أنى أكاد أقرر بصراحة أنهم سيستطيعون فـى المستقبل أن يصنعـوا عربـة تسـير بذاتها ،أى بغير جياد".

ولقد اقترن تقدم المسلمين العلمى بحريـة وسماحة فـى الفكـر، الأمـر الـذى لانكاد نجد له نظيرا عند غـيرهم ، يـدل علـى ذلـك وثيقـة هامـه كتبهـا علمـاء "تولوز" الذين أوفدهـم البابـا فـى رومـا إلى أمـير قرطبـة لكـى يعظـوا المسـلمين وليفتحوا لديهم باب الأمل فى نوال ثواب الآخرة إذا هجروا الإسلام - لاقـدر الله - واعتنقوا المسيحية ، وقد وجه كبير الأساقفه خطابا عنيفـا بذيئـا إلى أمـير قرطبة يطالبه فيه بالانصياع لأمـر ملـك الكنيسـة - أى البابـا - والدخـول فـى المسيحية ، وقد قرىء هذا الخطاب بحضـور الأمـير ووزيـره "لسـان" الديـن بـن الخطيب " ورغم ما به إلا أن الأمير قد رحـب بـالوفد وأنزلـه فـى قصـر منيـف وأكرم ضيافته، رغم ما يحملـه أفـراده فـى قلوبهـم مـن حقـد وبـذاءة وسـخرية للإسلام وأهله .

وقد ترك الأمير أعضاء الوفد يُخرجون كل ما فى جعبتهم ، وشجعهم على ذلك ما شهدوه من تسامح وحفاوة ، واستعرضوا مـا لديهـم مـن العلـوم غـير الدينية كالطبيعة، الفلك، والميكانيكا وغيرها، متباهين بأن ما لديهم يفـوق مـا لدى العرب ، ثم عرضوا لأصول دينهم ، وبعد أن أفضـوا بكـل مـا لديهـم أذن الأمير لوزيره لسان الدين بـن الخطيـب، فانـبرى لـلرد عليهـم بادئـا باستعراض إنجازات المسلمين فى سائر ميادين العلم مما يفوق تصور أعضاء الوفد ، ثم عرج على اللاهوت المسيحى فشرحه فى طلاقـة وتفصيـل ووضـوح أكـثر ممـا تناولـه

أعضاء الوفد المسيحى ، وانتهى إلى استعراض قواعد الدين الإسلامى ، وبيان عظمة الإسلام وسماحته ورسوخ فكرة التوحيد فيه .

وفى تلك الليلة التى تجلى فيها منطق لسان الدين بن الخطيب وحججه القوية فى الدفاع عن دين التوحيد، أحس وفد علماء "تولوز" أن الخطر أوشك أن يحدق بهم لأن قلوبهم بدأت تهتز ويتسرب إليها التشكيك فيما يحملونه من بضاعة مزجاة ، ولهذا فما أن أرخى الليل بسدوله على قرطبة حتى حملوا متاعهم وفروا هاربين وتركهم المسلمون دون أى اعتراض أو أذى .

وحينما وصل أعضاء الوفد إلى بلدتهم تولوز كتبوا وثيقة (١) يوضحون فيها ما جرى بينهم وبين المسلمين من مناقشات فى قرطبة ، وجاء فى بعض عباراتهم اعتراف واضح وإشادة دامغة بتقدم المسلمين حينذاك فى سائر ميادين العلم ، وبقوة حجج لسان الدين بن الخطيب فى مقارنته بين الإسلام والمسيحية ولاسيما فى مشكلة التوحيد لدرجة جعلتهم يفرون هاربين تحت جنح الظلام خوفاً على معتقدهم الدينى .

وفى مقابل سماحة الإسلام وعفوه، نجد أنه بعد سقوط مدينة غرناطة الإسلامية عام ١٤٩٢م وقف الغرب المسيحى بكل قوته مناصرا جحافل البربرية المسيحية بقيادة فردناند وإيزابلا فى الأندلس ليشفوا حقدهم وغلهم بإراقة دماء المسلمين وإجبارهم على التنصر ، بل وإسترقاقهم كالعبيد بحيث أسموهم "بالمدجنين" الذين كانوا يعيشون فى حماية البارونات لكى تستمر الحضارة الإسلامية فى الأندلس فى صورتها المادية دون توقف ، لأن المسلمين كانوا

---

(١) وثيقة علماء "تولوز" راجع ترجمه الوثيقة للاستاذ الدكتور مختار العبادى بمجلة المعهد المصرى : بمدريد.

عماد هذه الحضارة فى كل مظاهرها المادية والعلمية ، ولاسيما فى مجال الحرف والصناعة والفنون كبناء السفن ، وصناعة الأسلحة والذخائر ، وقيادة الأساطيل، ووضع الخرائط الملاحية لدرجة أنه لولا ما أخرجه كبار المعلمين من ربابنة وملاحين لأعالى البحار فى مدرسة جنوى البحرية، لما استطاع كرستوفر كولومبس القيام برحلته لاكتشاف الأمريكتين .

ولعله من الضرورى فى هذا المجال أن نحاول الكشف عن بعض جوانب السياسة الماكرة التى استخدمها الأسبان لمواجهة إمكان اتحاد المسلمين للأخذ بثأر إخوانهم في الدين بعد أن غابت شمس الإسلام عن الأندلس ، وأجبر المسلمون على اعتناق المسيحية، ولاسيما أبناء الأمراء وبناتهم الذين لايزالون يشكلون دما عربيا إسلاميا فى هيكل الكنيسة المسيحية إلى الآن ، كما كشف عن هذا أحد المؤرخين العراقيين [1] أخيرا ، وجاءت خطتهم على عدة محاور منها :

أولا : اتجهوا إلى البابا لكى يحميهم من الدولة العثمانية وقوتها الضاربة، ولهذا دخل البابا مع العثمانيين فى تحالف ضد روسيا القيصرية المسيحية، وكانت فى عداء دائم مع العثمانيين بعد سقوط القسطنطينية ، وأيضا كانت روسيا، وهى تدين بالمذهب الأرثوذكسى تمثل وجه المعارضة المسيحى الأول للكاثوليكية فى روما ، وهكذا اتحدت مصالح العثمانيين

---

(١) استطاع احد الباحثين العراقيين بعد دراسة تاريخية تحليلية لتطوير هيكل الكنيسة فى أسبانيا أن يثبت أن معظم أمراء الكنيسة ورجالها كانوا من أصل عربى أى من الأمراء و الأميرات الذين استودعتهم القوات الحربية الإسبانية المسيحية حينذاك حتى يضمنوا ولاء آبائهم من الملوك والحكام العرب لهم .

مع مصالح الكاثوليك الذين يمثلهم بابا روما ، وذلك بصفة مؤقتة ، وقد استفاد من هذا الموقف مسيحيوا الأندلس المخضبة أيديهم بدماء المسلمين إذ أنهم استطاعوا - بتأثير هذا التحالف - أن يحيدوا الجانب العثمانى الإسلامى وإعاقته عن الدخول معهم فى معركة القصاص .

ثانيا : كان المسلمون المغلوبون على أمرهم فى الأندلس قد سيروا إلى حاكم مصر حينذاك رسالة كتبوها بدمائهم يذكرون فيها مأساة اضطهاد الإسلام والمسلمين، وإجبار أهلهم على الارتداد عن الدين، ومنعهم من إقامة الصلاة ..إلخ ، ويستغيثون بحاكم مصر - وكان من المماليك - أن ينتصر لهم ، وأن يدفع عنهم غائلة فردنالد وإيزابلا ، فأرسل حاكم مصر إلى ملكى إسبانيا إنذارا بأنه إذا لم يسمح للمسلمين بأن يعيشوا فى حرية دينية كاملة فى بلادهم فإنه سيعامل المسيحيين فى بلاده أى فى مصر والشام بمثل المعاملة التى يواجه بها المسلمون فى بلاد الأندلس، فتشاور حكام الأندلس مع البابا فى ذلك ، واختاروا أحد اليهود الأندلسيين العارفين باللغة العربية ، وكان قد ارتد عن دينه وأصبح مسيحيا ، وحرروا وثيقة بأسماء مئات المسلمين الذين أجبروا على التنصر ، وخضعوا لألوان من البطش والتعذيب حتى يذعنوا ويوقعوا على الوثيقة زورا وبهتانا معترفين كذبا بأن الملك العادل فردناند ، والملكة العادلة إيزابلا يتيحان الحرية الكاملة للمسلمين فى العبادة ، وأنهم - أى المسلمين -يقيمون الصلوات الخمس فى مساجدهم ، ولا يضارون فى دينهم بأى صورة ، وأن أحدا منهم لم يجبر على التنصر .

وحمل ذلك اليهودى المتنصر معه أكياسا من الذهب الخالص والأحجار الكريمة وجارية مفرطة الجمال ، وعندما وصل إلى مصر طلب مقابلة

السلطان بعد أن أغدق أموالا طائلة على الحاشية ، فسمحوا له بمقابلة الحاكم فقرأ عليه الوثيقة ، وكانت ذات طول فريد لكثرة ما حشد فيها من أسماء إسلامية ، ثم أردف بتقديم الذهب والجواهر الثمينة والجارية مع شكر الملك فرناند لملك مصر على اهتمامه برعاياه من المسيحيين ، وكيف أنه – أى فرناند– يحرص دائما على رعاية مصالح المسلمين وحمايتهم من كل سوء ، واقتنع حاكم مصر بما قاله هذا اليهودى الكذوب ، وذلك بتأثير الحاشية المرتشية ، وأرسل مع وفد ملكى أسبانيا خطابا يشكرهما فيه على ما يقومان به من رعاية للمسلمين ، وبهذا نجح عتاة المسيحية فى أسبانيا فى تحييد قوة إسلامية ثانية هى مصر .

ثالثا : كان هناك أسطول جزائرى يمثل قوة ضاربة فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا الأسطول يجبر كل السفن المارة بالبحر – حتى ولو كانت من الأساطيل الحربية – على دفع الجزية لهم ، وظلت سيادة هذا الأسطول على المنطقة قائمة إلى حين ظهور أساطيل أسبانيا والبرتغال وغلبتها على المنطقة ، ثم غلبة الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسون على البحار السبع فيما بعد .

وكان الغرب يسمى الجزائريين بالقراصنة ، ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يتبعون فيه أسلوب القرصنة مع دول أوربا المسيحية – ولا سيما أسبانيا – كانوا يدافعون عن التخوم الإسلامية ويشتدون فى إنزال العقاب بسفن الأسبان قصاصا لدماء المسلمين المظلومين فى الأندلس ، وظل هذا الأسطول قائما حتى قضت عليه أساطيل الغرب المسيحى .

أما المغرب فقد كان فى غيبوبة تامة يجتاح الأسبان والبرتغاليون سواحله ومدنه لاسترقاق أبنائه واحتلال أراضيه فى ظل عجز أمرائه عن حمايته أو الاقتصاص من أسبانيا للمجزرة الرهيبة التى تحدى بها حكام أسبانيا المسيحية العالم الإسلامى كله حينذاك .

والغريب فى الأمر أن أسبانيا مازالت تستفيد حتى الآن من حضارة الإسلام وأمجاد المسلمين التى خلفوها فى ثرى تلك البلاد لتحقيق دخل بالغ الضخامة من عائد السياحة التى تتجه لمشاهدة تلك المعالم الإسلامية الخالدة .

هذه صورة قاتمة لما كان يواجه به الإسلام من تحديات مسيحية فى عصور ازدهارها رغم ما أداه الإسلام لأوربا من خدمات إبان عصر الإنارة الإسلامى الذى كان يسير بموازاة القرون الوسطى المسيحية المظلمة ، وبهذا يتضح مدى ضآلة الرأى الزاعم بوجود قرون وسطى إسلامية فى نفس الفترة الزمانية للقرون الوسطى المسيحية -كما سبق أن أشرنا- ، فالحقيقة أن عصر ظلام العالم الإسلامى قد أرخى بظلاله بعد عصر الإنارة وهذا ما يمكن تحديده كالاتى:

القرون الوسطى الإسلامية : (البداية و النهاية)

لايمكن أن نحدد بدقة بداية القرون الوسطى الإسلامية من الناحية الثقافية والعلمية ، ولكن يمكن بالاستناد إلى الناحية السياسية و العسكرية القول بأنها تبدأ من العصر العباسى الثانى حيث بدأت سلطة الدولة الإسلامية فى التلاشى ، واختفت الإمارة و السلطان من الأصول العربية ،وانتقلت إلى الفرس أولا ثم إلى الأتراك السلاجقة ، وبدأت الدويلات الإسلامية فى الاستقلال إلى أن أجهز

التتار على بغداد حاضرة العباسيين ومنارة العلم عام ٦٥٦هـ و من ثم بدأ عصر الظلام يأخذ مجراه ليمتد حتى القرن الثانى عشر الهجرى وعنده يمكن الحديث عن بداية عصر النهضة عند المسلمين المحدثين .

وكان من سمات عصر الظلام فى العالم الإسلامى انتشار البدع والخرافات والأساطير الدينية التى لا تستند إلى كتاب أو سنة ، فلقد فشا بين الناس السحر والشعوذه و التنجيم و التصوف الكاذب حيث انحرفت بعض الطرق الصوفية عن الطريق الصحيح ومنهم المولوية و البكتاشية ،كما أعملت الفرق الباطنية يد التخريب فى الإسلام وعقائده ، وكان لكل تلك المثالب أثرها فى استحقاق المسلمين للهزيمة و الذل و الهوان بعد احتلال الغير لبلادهم.

وفى تلك الظروف من التأخر لم تفلح محاولات الإصلاح المتعددة فى إيقاظ المسلمين من سباتهم العميق ، فانبعثت الحركة السلفية عند "ابن تيمية" وأتباعه، ولكن يؤخذ على مدرستة أنها لم تكن على مستوى مؤسسها من حيث النضوج الفكرى و الاجتهاد الفقهى ، والنظر غير المتزمت فى تطبيق قواعد الشريعة على ظروف العصر ، ولهذا نجد كبار مؤرخى الغرب ولاسيما المستشرق لاوست فى كتابه "الآراء السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية والقضائية لتقى الدين بن تيمية"، يضعون ابن تيمية وحده و ليس تلاميذه - الذين شايع بعضهم التيار الحنبلى - فى مصاف كبار الفقهاء العالميين ، ويذكرون عنه أنه كان أول من وضع قواعد الفقه المقارن بما كان يبديه من تعليقات مستنيرة على ما كانت تصدره محاكم اللاتينيين الصليبية من احكام فى بيروت فى عصره.

وكذلك فإن الحركة الوهابية – سليلة المذهب السلفى عند ابـن تيميـة – لم تستطع الصمود أمام سطوة الحكم العثمانى وسيطرة أعـداء التحـرر الدينـى مـن الفقهاء المتزمتين الذين يبغون تجريد الدين من قيمه الروحية الخالدة، وقصره على الممارسـات السـطحية الظـاهرة ، والأفكـار و التعـاليم السـرية و الاحجبـة والتعاويذ، وما انتهت إليه الطرق الصوفية بمن تعج بهم من الجهلة الذين فرضـوا جبروتهم على أهل القرى السذج وبسطاء المؤمنين دون خشية أو اسـتحياء مـن حق أو دين مفروض .

ومن المؤرخين لتلك الفترة المظلمة نجد عبد الرحمن الجـبرتى بعقليتـه النقديـة يشير فى كتابه "عجائب الآثار" إلى ما انتشر بمصر مـن بـدع وخرافـات ، كمـا صدور بكل دقة وإخـلاص موقـف حضـارة متخلفـة قـد استنامت للضعـف و الخمول تباغتها حضارة متفوقة تتمثل فى غزو نابليون لمصـر و الشـام، وتعجـب المصريين الذين انتابهم الذهـول مـن أسـاليب هـذه الحضـارة المتفوقـة و الخارقـة للعادة، وعجزهم عن مواجهتها بعد أن أمطرتهم بقنابل المدافع ، وكان فى ذلك النهاية التقريبية للعصـور الوسـطى الإسـلامية ، حيـث بـدأت الشـعوب العربيـة والإسلامية تستيقظ من سباتها إبان شتاء الحكم العثمانى المظلم .

اليقظة الإسلامية المعاصرة المبكرة :

لقد كان لهجمة نابليون الغاشمة، وعجز الدولة العثمانية، وريثة الخلافـة عـن الوقوف أمامه والدفاع عن المسلمين، كان لذلك رد فعلـه فـى شـعور المسـلمين بأن عليهم واجبا تاريخيا بعد أن صدوا التتار و الصليبيـين أن يواجهـوا مصـيرهم السياسى و الدينى بمفردهم ، أى أن تترك كل إيالة إسـلامية ومصيرهـا وحدهـا فى مواجهة قوات الاستعمار الغاشمة .

ولكن هذا الموقف المتخاذل المتفكك لم يكن ليمنع سريان روح التضامن بين المسلمين ،وظهور الحماس الدينى للدفاع عن الإسلام و العروبة وقد تمثل هذا فى صحوة العلماء والشعب فى ثورة القاهرة على نابليون ، وفى ارتداد نابليون عن عكا ، وفى مقتل "كليبر" واخيرا فى إجبار الفرنسيين على الانسحاب الذليل من مصر .

وهذه الصحوة الإسلامية كان العلماء المسلمين قادتها ، والتحم معهم الشعب للدفاع عن الوطن وعن الدين وقيمه، ولكن الأمر الغريب أن هولاء الفقهاء لم يتجهوا إلى الإستفادة من أولى تجارب احتكاكهم مع الغرب، والعمل على ما تنطوى عليه القوة الغربية من تقدم تكنولوجى ومحاوله نقله إلى مصر – كما فعلت اليابان فى العصر الحديث – بل لقد أمعن الفقهاء وعلماء الأزهر فى التحدى الصامت لمحاولات محمد على لتحديث مصر وإدخال النظم الغربية عليها.

والحق يقال أن محمد على وأسرته لم يقيموا دولتهم على أساس بنية إسلامية متكاملة، إذا انهم كانوا يريدون أن يجعلوا من مصر قطعة من أوربا بنقل كل ما يحدث فى الغرب وحضارته من أمور جوهرية وعرضية ، ولم يكن احترامهم للدين ومشايخه إلا مراعاة منهم لعمق وأصالة الروح الدينى الإسلامى لدى الشعب المصرى ،إذ ان تشييدهم للمساجد وقبور الأولياء ورصدهم الأوقاف على الشئون الدينية كان أسلوبا من أساليب الحكم الفطن الماهر ، فى حين كانت حياتهم الخاصة ماجنة فى الغالب ، بالإضافة إلى ظلمهم البين للرعية، وسوء استغلالهم لخيرات البلاد.

وإذا كان الغرب قد استباح بلاد الإسلام بعد ذلك عن طريق الاستعمار ونهب ثروات المسلمين، والاستمتاع بها بثمن بخس زهيد ، فإنه وبعد أن تحضر الشرق وفتح منافذة على تيارات الحضارة الغربية وأجبر جيوش الغرب على الجلاء عن بلاده ، وامتلك فى يده مصيره السياسى بعد كفاح مرير انتزع به حريته واستقلاله وحقه فى تقرير المصير ، إلا أن الغرب استطاع أن يثبت ركائزه وحرابه المسمومة فى جسم الأمه الإسلامية عن طريق ما نعرفه من مؤامرات الغزو الفكرى الثقافى للإسلام وأقطاره ، وهذه أخطر مشكلة يواجهها الإسلام المعاصر ، ولاشك فى أن الموقف المبكر للحضارة الإسلامية ، والذى يتمثل فى اكتفاء العلماء والمفكرين المسلمين بتراث الإسلام وذخائره الخالده فحسب لم يعد صالحا لعصرنا هذا ،وكذلك فإن اتجاه الصفوة الإسلامية المستغربة إلى تلمس طريقها إلى أفكار الغرب المنتصر ومذاهبه وحدها لم يعد حلا حاسما لهذه المشكلات الذى تواجه الأمة الإسلامية فى حياتها المعاصرة.

وهكذا يبرز السؤال الجدير بالاهتمام، وهو أى السبل و المناهج أحرى بالاتباع ؟ وفى رأيى أن الطرق و المناهج تتحدد فى ثلاثة محاور رئيسية هى التجديد، والتحديث، والتغريب. بعد استبعاد اسلوب الجمود و الاجترار الفكرى الذى تجاوزته الحركه الفكرية الإسلامية المعاصرة بمراحل[1]

اولا: التجديد:

لقد تتابعت مواقف التجديد ابتداء من جمال الدين الافغانى إلى محمد عبده إلى رشيد رضا إلى الكواكبى ثم الإخوان المسلمين ومنهم سيد قطب وأبو الأعلى المودودى ، ولكن جمهرة العلماء قاموا بالوقوف فى تحد سافر أمام دعوة

---

(١) راجع – م.س للمؤلف عن الإسلام فى مواجهة تيارات الفكر الغربى المعاصر .

هولاء الرواد إلى التحرر الفكرى و الخروج من الجمود ، و الخلاص من آثار المغيب الحضارى الذى غشى بلاد الإسلام إبان الحكم العثمانى وظل هذا الصراع بين القديم و الجديد يعتصر الحياة الفكرية و الاجتماعية للعالم الإسلامى فى تلك الفترة ، وكادت ميشكلة التحرر الدينى و الاجتماعى تصبح من أهم قضايا العصر بعد أن استراحت أو كادت - نفوس المسلمين فى منطقة الشرق الأوسط تحت مظلة الخلافة الإسلامية العثمانية ، واعتقد عامة الناس أن الدين يحرم عليهم نقد أو عصيان أمر الخليفة ، بل يتعين عليهم طاعته و الدعاء له أينما حلوا.

وسرعان ما ظهرت فى الأفق مشكلة "الرجل المريض" وكان من جراء ذلك أن تسابقت الدول الأوربية كالذئاب لنهش جسم الخلافة الإسلامية ، والتهام أوصالها ، فجاءت الحملات الاستعمارية البشعة ضد الشعوب الإسلامية فى منطقة الشرق الأوسط وغيرها ، وبذلك أحس المسلمون بأن ثمه مشكلة خطيرة ينبغى لهم الاستعداد لخوض المعارك من اجلها وهى مشكلة مصيرهم السياسى ، تلك التى احتلت مكان الصدارة على مسرح الأحداث المحلية و العالمية .

وهكذا اصبحت مشكلة التحضر، ومراجعة مواقف التزمت الدينى وقيام حوار صحى وجاد حول التجديد ومفاهيمه تحتل المرتبة الثانية بعد مشكلة المصير السياسى ، فأسرع الغرب لكى يملأ هذا الفراغ الحضارى، ووقعت الشعوب الإسلامية فى يده عجينة لينة يشكلها كما يريد ، ويصدر إليها حثالة فكرة الهابط ، ويمنع عنها الأسس الهامة للتقدم العلمى الغربى المعاصر، ونتج عن ذلك شكل مهزوز من الحكم العنصرى الذى أحكم الغرب إقامته ومساندته

ليكرس به التخلف القائم ويربطه بقيم مفعمة باليأس و القدرية و التشاؤم والضعف والسلبية و انعدام الثقة فى النفس .

وبهذا يمكن القول أن الكثير مما نشعر به اليوم من بلبلة فكرية، واغتراب ثقافى، ودمار اقتصادى، وتخلف سياسى، وعدم اتفاق على كلمة واحدة بين العرب بصفة خاصة و المسلمين بصفه عامه كل هذا إنما يرجع إلى هذا الانتماء البغيض إلى مدارس الاستعمار و أسلوبه وثقافته، فمثلا لا يستطيع فريق من الحكام أو أصحاب السلطة أن يتخلوا عن التعايش مع الصهاينة ورجال الغدر فى فلسطين المحتلة ، واصبح شغلهم الشاغل حرق البخور لأولياء أمرهم فى امريكا و انتظار فائض حسناتهم، واصطناع دماجوجية دعائية حولهم خالية من المضمون . ناهيك عن محاولات المسلم المشبوه مع الصهاينة المحتلين.

واذا كنا نحبذ موجة التجديد فى الفكر الإسلامى ،فلابد إذن من محاولة بيان الأصول و القواعد التى يمكن أن تقوم عليها تلك الموجه ، ويمكن إعطاء تعريف أولى لذلك التجديد بأنه "محاوله المواءمة بين القديم و الحديث بحيث تكون نقطة الانطلاق هى الأصول القديمة ، وأن يراعى عند الاجتهاد فى تطبيق الحكم على الوقائع الجديدة ألا تتعارض مع ما سبق للمسلمين أن أجازوة من أحكام شرعيه فى ظروف شبه مماثلة" ،ومن الأمثله التى يمكن الاستعانه بها لإيضاح المقصود بذلك التجديد ما يلى :

المثال الأول: من دائرة الفن:(١)

فقد ذكر بعض الفقهاء أن الصور والرسومات مُحرمة بالنسبة للمسلمين،

---

(١) راجع للمؤلف: بحثا بعنوان الفن فى الإسلام بين الدين و المد الحضارى – ملحق بكتاب فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة للمؤلف .

وهذا يمثل استخداما غير دقيق فى التفرقة بين الحلال و الحرام، إذ المقصود فى هذا المجال ما هو مستحسن ، وما هو مكروه ، وهذا أقل مرتبة فى الضرر بالقياس إلى موازين الحلال والحرام .

وحقيقة الأمر - على ما تبين لنا بالبحث و الدراسة - أن كراهية الصور فى صدر الإسلام إنما كانت ترجع إلى الخوف من الردة إلى عبادة الأصنام كما كان الحال فى العصر الجاهلى ، ولذلك استبعد الرسم والنحت لا لأنه حرام، بل للحفاظ على استمرار ثبات العقيدة والدين عند المسلمين الجدد. اما وقد استقر الدين بعد القرن الاول من الهجرة ، لهذا فلم يكن هناك أى مبرر للوقوف امام تيارات الفن فى جميع صورها مادامت لا تتعارض مع الأخلاق و الدين.

وهكذا ظهرت فى العراق والأندلس مدارس للفنون رغم تمسك بعض الفقهاء بتحريم هذه المنجزات، وإذا كان قد حدث ذلك بعد القرن الأول من الهجرة، فانه لا مناص الآن من قبول شرعية الفنون عملاً بمبدأ المصالح المرعية أو المرسلة، أو لأن الشعوب جميعا قد اتجهت ناحية الفن كأحد وسائل التعبير عن الذاتية القومية و الحضارية ، ولهذا فالمجتهد يستطيع أن يقرر الأن دون خوف أو وجل إجازة الإنتاج الفنى الذى لا يخرج عن حدود الأخلاق ، و لايخدش السلوك العام للمسلم .

المثال الثاني: من دائرة الاحكام الشرعية الخاصة بالاسرة :

وهو يتعلق بأحكام الطلاق ،فقد حدد الفقهاء مسافة معينة إذا تخطاها الزوج فى السفر - وكان السفر حينذاك بالدواب أو بالسير على الإقدام أو بالسفن الشراعية - يكون للزوجة الحق فى طلب الطلاق من زوجها الغائب بعد مضى فترة معينة مخافة أن تُفتن فى نفسها لشبابها أو لأنوثتها، أما الآن فإن

المرء يستطيع أن يدور حول الارض بواسطة الطائرات ويعود في ظرف يوم أو يومين، وبذلك لم تعد المسافات البعيدة حائلا بين الزوج وسرعة تواجده مع الزوجة . وبهذا اصبح لزاما على القاضي أن يصدر على وقائع السفر أحكاما تختلف عما سبق إصداره من أحكام في مثل هذه المناسبات قبل قرنين من الزمان .

المثال الثالث: من دائرة أحكام العبادات:

لقد جاء بعض سكان ولايات البلطيق من المسلمين قبل الحرب العالمية الأولى يطلبون من الخليفة العثماني في اسطنبول أن تصدر فتوى بشأن صيامهم، وقد أجتمعت النصوص الدينية على أن الصيام يبدأ من الفجر حتى مغيب الشمس في نهاية اليوم تطبيقا لقوله تعالى ﴿.. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل.. ﴾[1] وكذلك فإن بدء الصيام إنما يتحدد وفقا لقول الرسول ﷺ "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما"[2]

وعندما أحال السلطان هؤلاء القوم إلى مفتي المسلمين في الاستانة قالوا لذلك المفتي : إننا قوم لا يستبين لنا ليل من نهار خلال سته شهور من السنة ، فلا نعرف لنا في أغلب الأحايين مشرقا للشمس أو مغربا لها ، وكذلك يمتنع علينا رصد القمر في أكثر أيام السنة للظروف المناخية التي تحيط بنا في منطقة القطب الشمالي ، فكيف إذن تكون صلاتنا ويكون صيامنا ، فاعتذر مفتي الخلافة عن الإدلاء برأية، وعلق الحكم لأنه لا نص لديه يطابق هذا الحال ،

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٧ .

(٢) حديث متفق عليه ، رواه أبو هريرة .

وبعد أن نشر هذا الموضوع فى الصحف استغله اعداء الإسلام و المستشرقون كذريعة للنيل من الإسلام كدين عالمى ، زاعمين بأنه دين لاتنفذ تعاليمه إلا فى منطقة ما بين المدارين : السرطان، والجدى .

وعندما علم مفتى العراق آنذاك بهذا الأمر أصدر فتواه التى يستند فيها إلى دراسة لموضوع الصيام و الأحكام الشرعية الخاصة به ، فقام ببيان أن علّه الصيام هى امتناع النفس عن تناول الطعام و الشراب خلال فترة العمل بالنهار لتحقيق غايات سامية منها الشعور بحاجة الجائع الفقير ، والعكوف على العبادة الخالصة لله ...ألخ ، ولما كان متوسط ساعات العمل لدى المسلمين فى الشرق الأوسط هى المثل، لهذا ينبغى القياس عليها ، ومن ثم يتعين على مسلمى البلطيق أن يأخذوا متوسط ساعات الصيام فى اليوم عند مسلمى منطقة الإعتدال ويجعلوا هذا المتوسط أساسا لصيامهم، على أن يكون أثناء عملهم ، فتكون بداية هذا المتوسط الزمنى عند امتناعهم عن الطعام ، أى فى الفجر، ويكون إفطارهم عند انتهاء ساعات هذا المتوسط الزمنى ، أى عند ما يسمى عندهم اصطلاحا بالمغيب . وهكذا أمكن حل هذه المسألة عن طريق الإجتهاد بالرأى.

وهناك بخلاف ذلك العديد من الأمثلة على عملية التجديد فى الإسلام، ومنّها السفور الشرعى للمرأة مع احتفاظها بالحجاب الذى التزمت به المرأة على عهد الرسول ﷺ ، بأن تكشف عن وجهها وعن يديها ، وألاتبدى زينتها لغير بعلها، وكذلك ما استحدث من خروج إلى العمل فى مواقع لا تتعارض مع أنوثتها .

ولكن هناك نوع من التجديد المرفوض الذى يأباه الشرع، ومثاله ما زعمته القاديانية من إبطال فريضة الجهاد فى الإسلام ،بزعم أنها كانت مبدأ مفروضا على المسلمين إبان انتشار الإسلام فحسب ، أما الأن - وكما يدعون - فقد استقرت دعائم الإسلام و انتشر فى اقطار المعمورة ، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى الجهاد .

والأمر الذى لاشك فيه أن اجتهاد القاديانية فى هذه المسألة إنما يعد من قبيل التجديد الباطل المرفوض، لأن مبدأ الجهاد قائم ما قام الدين . ونحن نسأل القاديانية لمصلحة من ابطلوا مبدأ الجهاد،والمسلمون يشعرون فى كل مكان بالضعف و الاستكانة وإهدار المصالح وتخريب الأوطان وتشريد النساء والفتيان على ما نرى ونسمع كل يوم ؟ أفليس هذا الإضطهاد موجبا لقيام أصحاب دعوة الحق أى المسلمين - للدفاع عن انفسهم ودينهم !!

والحق أن دعوى القاديانى اساسها النفاق وخدمة المستعمر البريطانى فى الهند، فقد وجد الانجليز أن المسلمين بشمالى الهند ، ولاسيما فى منطقة كشمير، هم الذين ظلوا يحاربون الاستعمار الانجليزى إلى آخر لحظة من بقائه فى البلاد بعد استسلامها لهم ، فأرادوا أن يضربوا المسلمين بواحد منهم ، فاستقطبوا مؤسس هذه الدعوة الباطلة ولقنوه العلوم الحديثة فى انجلترا، وعلموه كيف يدعو إلى إبطال فريضة الجهاد حتى تنتشر هذه الدعوة بين المحاربين من الهنود المسلمين الأشاوس على الحدود فيسلم الإنجليز منهم دون تكبد خسائر كبيرة، و لم تكتب لهذه الدعوة الانتشار، بل انقسم افرادها إلى طائفتين ، طائفة تكتفى بإبطال مبدأ الجهاد وتقف عند حدود الشريعة إلى حد ما ، أما الطائفة الأخرى فقد التاثت تعاليمها بالإسماعيلية ، واعتنقت نظريات فى تأليه الإمام،

بل لقد ادعت أن القاديانى هو نبى كالمسيح ، وانه يبشر بالخلاص من هذا العالم.

وأيضا يُعد من قبيل التجديد المرفوض ، والذى يدخل فى باب الإبتداع المحرم ، إباحة الإفطار فى شهر رمضان زعما بأن متطلبات الإنتاج والتقدم تقتضى ذلك كما أفتى به حاكم تونس فى العقدين السابع و الثامن من القرن العشرين (الحبيب بورقيبة)، أو التدخل فى قانون الأحوال الشخصية بتعديل يسلب الرجل قوامته على المرأة بالصورة التى أخرج عليها فى عهد السادات فى مصر ، وذلك يمنح المرأة حق طلب الطلاق، والاستئثار بمسكن الزوجية فى حالة زواج الرجل بامرأة ثانية ، وذلك بصورة مخالفة لقوله تعالى :

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾(١)

إن الله سبحانه وتعالى لم يُكبل إرادة المسلم بقيود، بل وضع له تحذيراً حتى ينتصح ويعرف الطريق الذى يسلكه ومدى قدرته عليه، وليس لولى الأمر أن يتدخل للتشريع فيما جعله الله من صميم إرادة المسلم، فيحد بذلك من هذه الإرادة كما يبدو فى قانون الأحوال الشخصية المعدل أخيرا.

وهكذا تتضح معالم التجديد الصحيح من التجديد الأزيف ، وهناك الكثير من الامور تنتظر من علماء المسلمين الإدلاء فيها برأى بعد استحداث منجزات كثيرة كالسيارة، والطائرة، والتليفزيون، والمركبات الكيمائية وغيرها ، وكذلك بعد وصول الإنسان إلى القمر ودخولنا عصر الذرة والفضاء .

---

(١) سورة النساء : الآية ٣

ولانستطيع أن نتجاهل ايضا المشكلات التى اثارتها مؤخرا الأبحاث العلميـة المتعلقةبالروح ،وما نعرفه عن وقوف جمهرة المسلمين موقـف المعارضـة للبحـث فى مثل هذه الامور تطبيقا لقول الله عز وجل "قـل الـروح مـن أمـر ربـى ومـا أوتيتم من العلم إلا قليلا" (١)

ولاتزال التجارب الروحية تسرى فى جميع البلـدان وتتقـدم بطريقـة سـريعة ويستخدم أصحابها وسائل القياس العلمي وغيرها، كالشوكة الرنانـه، وأجهـزة الأشعة المارة ، والوزن النوعى للطيف الروحى ..الخ ، وناهيك بما أنشـىء فـى انجلترا من مستشفيات متخصصة فى العلاج الروحى .

وقد يتساءل البعض لم أقحمنا هذه المسألة فى مسائل التجديد ؟وهنا نقـول لما كان العلم الطبيعى عنـد بعـض اصحابـه قـد سلّم بمنجـزات علـم الـروح ، وكذلك اصبح هذا علما معترفا به ،ولما كنا نحاول دائما المواءمـة والملاءمـة بـين العلم الحديث ومنجزاته وبين الشريعة الإسلامية - وهذا هـو أسـلوب التجديـد الذى يراد بـه احتـواء منجـزات "الحضـارة الغربيـة المعـاصرة" فـى إطـار العلـوم الإسلامية ، دون المساس بأى نص إسلامى مـن الكتـاب أو السـنة ، وهـذا هـو هدف التجديد - لهذا فقد رأينا أن مشكلة الروح إنما تدخـل فـى هـذا النطـاق، وأنها تحتاج إلى بحـث طويـل ، أرجـو أن يتصـدى لـه خـيرة العلمـاء والبـاحثين المسلمين بالمعرفة الكاملة فى الناحيتين : الدينية و العلميـة ، إذ أن تعليـق الحكـم لن يفيد أحد من المؤمنين بعد ذيوع كتب مجـلات علـم الـروح وانتشـارها بـين لناس .

---

(١) سرة الإسراء : الآية ٨٥

ثانيا : التحديث:

يمكن تعريف التحديث بإيجاز بأنه اعتبار الواقع الغربى المعاصر أمراً نموذجيا من الناحية العلمية، ثم الإنطلاق منه إلى القديم لمحاولة تحديثه ، فإذا كان التغيير شاملا كان فى ذلك افتئات على الأصل القديم ، ومن ثم يتعين بقدر المستطاع التزام أصول الشريعة كما فعلنا فى التجديد ، وذلك لأن الخروج على أحكام الشريعة انما يعد مظنة للخطأ وخضوعا للهوى ، وإباحة للنظر العقلى الغير الملتزم بالقواعد الشرعية، وهذا ما لا يقبله مسلم يخشى على دينه من الضياع ، وعلى إيمانه من أن يتبدد هباء ، ومن أمثله ذلك ما ذكرناه أثناء حديثنا عن التجدتد المرفوض من إباحة حاكم تونس للإفطار فى رمضان بزعم زيادة الانتاج ، وهذا يعد ايضا من قبيل الأفكار الباطلة التى تقال بزعنم التحديث .

لقد كان المسلمون الاوائل - رغم إباحة الافطار لهم فى الغزوات - يصممون على الاستمرار فى صيامهم ، فقد كان هذا الزاد الروحى يزيدهم قوة فى الحرب ، ويجعلهم أكثر صبرا على المكاره، لأن تقوى القلوب وتوجهها بذكر الله هو من اعظم الحوافز على الاخلاص والتنفانى فى العمل و الجهاد . أما اباحة الافطار بدعوى التحديث والتقدم فهو فى حقيقته احتزاء وعبث بموازين الدين الصحيح ناتج عن الجهل واتباع الهوى .

وهكذا قد يكون للتحديث أضراره التى لا تغيب عن أذهاننا مادمنا نضع كل ما هو محدث غربى نموذجا لنا نحتذيه، سواء تمثل فى شخص أم فى واقعة، وتطويع القديم الذى ينطق به التراث الدينى حتى يتمشى مع ما هو محدث .

ولا أريد فى هذه العجالة أن افتح ابوابا كثيرة بالغة الخطورة بالاستفاضة فى الكلام عن موضوعات التحديث ،بل أكتفى بالتنبية على الأخطار الجسيمة التى يمكن أن تحيط بنا إذا أمعنا السير فى هذا الاتجاه ، لاننا بذلك سوف نقع ولاشك فى مرحلة أكثر خطورة وهى مرحلة التغريب الكامل، وهو أشر مايمكن أن نتبعه من مناهج ،ومن أمثلة التحديث الخاطىء ،زواج المسلم بعقود غير دينية دون إشهار أو اتباع لصورة الزواج الدينية المعروفة ، وكذلك محاولة تشبيه قراءة القرآن بما يُتلى فى الكنائس من أناشيد دينية ومن نص الإنجيل عن طريق تنغيم القراءة بصورة غير مجازة ، ومخالفة للقواعد والأصول الشرعية التى ينبغى أن تخضع لها القراءات.

ثالثا : التغريب:

تُعد حركة التغريب من أخطر الحركات التى يلوح بريقها فى أعين شبابنا وتستحوذ على نفوسهم وأحاسيسهم.

ويعرف التغريب بأنه محاوله لإلغاء القديم ،وإهالة التراب عليه والإتجاه عوضا عن ذلك إلى الحضارة الغربية بكل مقوماتها فى حركة محاكاة وتقليد أعمى، واندفاع وارتماء فى أحضان عالم غريب عنا فى ثقافته وسلوكه، وقد حدث هذا لأن التكنولوجيا المصاحبة لهذه الحضارة قد بهرت الناس بنجاحها فى السيطرة على الأحداث وعلى كافة شعوب العالم ، بينما لم يقدم الشرق أو المسلمين المعاصرين بصفه خاصه أى صورة بديلة للنجاح فى العلم، أو فى الصناعه، أو الحرب ، بل أن الشباب يرون أمامهم مصارع المسلمين فى جميع أنحاء العالم فى العصر الحديث ، فبعد استعمار طويل لم ينج بلد إسلامى واحد سوى موطن الخلافة فى تركيا، نواجه بصور من القتل، والدمار، والتشريد،

والتخريب فى الفلبين، وفى الهند ، فتُقطع "كشمير" عمدا من جسم باكستان، وينهزم المسلمون وتنفصل بنجلادش ،ويضرب المسلمون فى "أسام"، وفى الهند ويقتلون بالآلاف ، ويسام المسلمون فى دينهم فى فلسطين، وافريقيا وغيرها من بقاع الارض، ويجبرون على الإلحاد فى الإتحاد السوفيتى ، وهكذا يدرك الشباب المسلم أن دينه على النحو الذى يفسره فقهاء العصر لم يقدم له العون فى أبسط ما يطالب به الانسان الحر، وهو الدفاع عن وطنه وعن دينه كما أسلفنا .

وكذلك فإذا ماحاولنا استعراض أوجه الحياة السياسية و الاجتماعيه والاقتصادية فى بلاد الإسلام فلن نجد مثلا بلدا واحدا تطبق فيه الديمقراطية بحذافيرها ،وترتفع فيه راية الحرية، ويأمن الانسان على نفسه من بطش الحاكم وعدوان السلطة،وتشيع فيه مبادىء العدالة و التكافل الاجتماعى، ناهيك عما نراه بكل أسى من انعدام الروابط الثابتة المخلصة بين حكام هذه البلاد الذين يجمعهم الواقع المرير على أهواء متفرقة ومصالح أُنانية لا دخل فيها لمبادىء الإسلام وروحه العظيمة، ولهذا فهم يشخصون الواقع بأبصارهم دائما إلى الغرب ،وإلى مفكرية، فى كل ما يعن لهم من أمور جزئية أو كلية زعما منهم بأن دينهم لا يقدر لهم المساعدة فى حل مشكلاتهم .

وأخطر من هذا فانه على الرغم من أن لدينا جامعات كثيرة انشأناها على نسق الجامعات الأوربية ، إلا أن هذه الجامعات لم تنجح تماما فى تخريج المواطن المسلم الناضج و الصالح للعمل من أجل وطنه ، وحتى من يصلح منهم تلجئه ظروف التخلف و الحقد و الحسد فى وطنه إلى العمل فى البلاد الأجنبية .

ومن ناحية المناهج التعلمية نجد أن البلاد العربية كانت بمثابة حقل تجارب للفرنسيين وللإنجليز فى مجال تجربة التعليم فى المستعمرات ، إذ عمل المحتلون على إبقائها ذليلة خاضعة حتى لا تتطلع إلى التحرر أو الاستقلال ، كما ظهرت النظرية العنصرية فى القرن التاسع عشر لكى تؤيد هذا المسلك الخطير فى التربية، ومضمونها على ما نعرف عند "جوبينو" و"رينان" هو أن الشعوب الإسلامية من جنس سامى "Semetic" لا تصلح للحضارة أو العلم أو لأن تحكم نفسها بنفسها ، فلابد أن يسوسها الغرب ويحكمها فتسلم له القيادة عن اقتناع لضعف أصلها وعجز عنصرها .

وكذلك يجب أن ننبه إلى أن رجال الأزهر الذين قاوموا هذا النوع من التعليم فى حينه – وأثمرت مقاومتهم فى حشر موضوعات الدين فى المناهج دون أى محاولة لوضع تصور جذرى جوهرى لتكوين الطالب على أساس دينى قويم – هؤلاء لم يبذلوا جهدا يذكر فى وضع بديل لمناهج التعليم، بل تقوقعوا على أنفسهم فى الأزهر ، ورفضوا إدخال حتى مادة الأدب فى الدراسة الأزهرية ، وخاصة كتاب " الكامل للمبرد " إذ عدوا ذلك خروجا على جلال الأزهر ووقار علمائه (١)

---

(١) وقد قام لاحظت أنه على الرغم من عدم ترحيب الأزهريين حينذاك بموجة التحرر الجديد والانطلاق من الجمود الفكرى على يد محمد عبده والشيخ مصطفى عبد الرازق وأتباعهما ،إلا أنهم أرسوا قواعد العلوم الدينية ومهدوا لظهور جيل حمل الرسالة وأفنى عمره فى إعلاء كلمة الدين وفهم التجديد على حقيقته ، وقد أنست منهم شفاهة وقراءة رغبة أكيدة فى دفع عجلة الفكر المستنيرة والاجتهاد للحفاظ على الصلة التى ينبغى أن تكون وطيدة ومستمرة بين الدين والواقع المعاش، ومن أمثال هؤلاء الشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ محمد الفحام، والشيخ محمد البهى، والشيخ محمد حسنين مخلوف، و الشيخ محمود شلتوت، و الشيخ الخضر حسين، والقرضاوى، وعبد المنعم النمر ، وسيد قطب ، ومحمد الغزالى ،ومن هؤلاء من قال "لا" –

ولا يفوتنا أيضا فى هذا المجال التنبيه إلى تيار خطير متآمر أوشك أن يستشرى ويزعزع شخصيتنا العربية الإسلامية ، ويتمثل هذا التيار فى الهجوم على اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، واعتبارها - كاللاتينية - أما لعدة لغات نشأت عنها كالفرنسية، والإيطالية، والأسبانية ، وبذلك يستهدف هذا التيار تحويل اللهجات المحلية إلى لغات قائمة بذاتها ، لكل منها كيانه القومى الخاص والمستقل ،ومع مرور الزمن يصبح القرآن غريبا فى لغته لا قدر الله ، ويكون فى حاجة إلى ترجمة لهذه اللغات المزعومة . وبهذا تضيع أداة التوجيه والوحدة بين المسلمين جميعا ، وتضيع معها شخصيتنا العربية الإسلامية .

وقد قام بنموذج لهذه المحاولة الحاقدة شخص يسمى "سعيد عقل" حيث وضع قاموسا لما أسماه باللغة اللبنانية ، ووضع قواعد خاصة بها يريد بذلك أن تستقل اللغة اللبنانية عن لغة القرآن ، تكريسا للتزمت الطائفى البغيض والفرقة

- للملكية فى عصور الاستبداد و لم يفرطوا فى دينهم مهما عرض عليهم من مناصب أو مال .

هذا الذى ألفينا عليه كبار العلماء المحدثين الذين تخرجوا على نظام الأزهر القديم، ولكننى مع الأسف لم أجد فيمن قابلتهم من الأزهريين المحدثين من هو على نفس الدرجة من الإحاطة والدراية و التثبيت و الحكمة ، بل وجدت أن أغلبهم يتسترو وراء لقب "دكتور" فحسب ،وهم يعلمون تماما أن هذا اللقب كان يمنح أولا للمتخصصين فى اللاهوت المسيحى ،ولهذا فالاحرى بهم أن يعودوا إلى لقب عالم ، ولايستخدموا لفظا أعجميا أقرب إلى المسيحية منه إلى الإسلام، وهذا هو التغريب بعينه.وهكذا نجد أن تحديث الأزهر على هذا النحو قد أفضى إلى التكوين السريع لخريجيه مثل معظم خريجى الجامعات الاخرى ، ومن ثم أصبح الوباء عاماً ، مما ينذر بأننا سنواجه بانتكاس فى القيم التعليمية و الاجتماعية و الدينية، بل واصبح التخصص الدقيق مجرد أمر شكلى لا مضمون له ،وظهرت أساليب سطحية متزمته فى القطع بالتحليل والتحريم الجازم فى مسائل قد تختلف فيها أوجه النظر ، وهنا يظهر فضل الحنفية الذين استخدموا العقل للتيسير - وهذا ما نحن مطالبون به- وليس للتعسير و التعقيد ، والله أعلم بالصواب.

بين أبناء الوطن الواحد .

ونحمد الله على أن هذا الرجل وأمثاله من الحاقدين أعدادهم محدودة فى لبنان أو فى غيره ، ولا يشكلون خطرا محدقا باللغة العربية التى كان من المدافعين عنها أب جليل مثل الأب "أنستانس مارى الكرملى" طيب الله ثراه ، ومثل "البستانى" ، و"الجميل" وغيرهم من أنصار نهضة الأدب العربية المحدثة من لبنان إلى العراق عبر سوريا وفلسطين .

وقد دلت الأبحاث العلمية على أن تلك اللهجات المحلية هى بمثابة تحريفات عامية لأصول عربية، ومعظم مفرداتها تنطوى على تعديل للألفاظ العربية الصحيحة بحسب قاعدة البساطة وسهولة المأخذ وسرعة التناول ، فالعامى لايتمسك بالهمزات أو القافات، أو ضبط آخر الكلمات ..الخ . فهو يستخدم الألفاظ الفصيحة بعد أن يختزل منها ما يراه صعبا فى النطق ،ولكن كلما ازداد انتشار التعليم وتأثير وسائل الإعلام ،ولاسيما الصحافة والإذاعة والتلفزيون ، نجد اتجاها متناميا للشعوب العربية نحو توحيد لهجاتها العربية، واقترابها من الفصحى أى لغة القرآن الكريم .

ولايعنى ما سبق ضرورة وجود تطابق تام فى نطق الحروف العربية ، بل يمكن أن يكون لكل منطقة لكنتها الخاصة فى النطق ، وكذلك فإن للقرآن الكريم سبعة قراءات تختلف فيما فى نطق بعض الحروف بحسب ما كان سائداً بين قبائل العرب من اختلاف فى طريقة إخراج اللفظ ، إلا أن هذا الأمر لا يغير من معنى الكلمة فى شىء على الاطلاق.

واذا كنا قد اشرنا إلى حركة التآمر على اللغة العربية فى لبنان على يد سعيد عقل واتباعة ، إلا أن هناك مثالاً أخر على مدى خطورة هذه الحركة فى

الجزائر عندما كانت تئن تحت وطأة الاستعمار، فقد عملت فرنسا منذ أن احتلت الجزائر عام ١٨٣٠م على محو شخصيتها الإسلامية العربية، وذلك باتباع سياسة الابادة الجماعية ، وتخريب العقيدة، واللغة و الثقافة حتى تصبح الجزائر مقاطعه فرنسية خالصة، فوضعت لها نظاما للتعليم العام لغته الأولى هي الفرنسية، كما جعلوا اللهجة البربرية بمثابة لغة ، وجعلوها اللغة التالية بعد الفرنسية و أنشأوا لها قواعد خاصة للنحو ،وأدبا سطحيا مصطنعا ، أما اللغة العربية فتجيء فى المرتبة الثالثة كلغة هامشية ، وكانت تدرس للتلاميذ نصوص من الأدب الجاهلى حتى يشعر هؤلاء الدارسون بغرابة اللغة العربية عما يستخدمونه فى حياتهم اليومية، وبذلك يضمن الفرنسيون تكوين وجدان نافر ضد اللغة العربية التى هى لغة القرآن. ولعلنا نستطيع أن نفسر السبب الرئيسى لما يجرى فى الجزائر الآن حيث يدور الصراع بين الرواب الفرنكوفوتيه التى غرستها فرنسا خلال أكثر من قرن ونصف فى هذه البلاد وبين القومية الجزائرية العربية الاسلاميه .

وأذكر بهذه المناسبة اننى قد اختلفت مع المستشرق الفرنسى المعروف "ماسينيون"و الذى كان استاذى ايام طلب العلم بباريس حينما عرض على صورة من امتحان البكالوريا الفرنسية فى الجزائر لمادة اللغة البربرية ، وتتضمن ورقة الامتحان فى الادب خصوصا الشعر و النحو ، و لم تكن هناك ورقة مماثلة فى اللغة العربية ، اللهم إلا بعض الأسئلة المبسطة الموجهة لشرح بعض أبيات من الشعر الجاهلى فحسب ، أظهرت استهجانى لهذا العمل الذى جرت عليه فرنسا منذ عهد طويل، وهى تحاول عبثا أن تجعل من لغة الجبل البربرية اللغة السائدة ،ولاسيما فى إقليم الأوراس، وفى هذه الاونه جاءت الثورة الجزائرية المظفرة التى كان لها دورها فى إفشال هذه المؤامرة الاستعمارية وما زالت

شعوب المغرب العربى تتحمل معاناة شديدة ،وهى تجا هـد فـى سبيل التعريـب الكامل، لاسيما وان معظم المتصدرين للحكم، والسياسة، والقادرين على التغيير فى هذه البلاد قـد تربـوا فـى أحضـان المدرسـة الاسـتعمارية الفرنسـية مما يثير الصعاب فى سرعة إنجاز التعريب التام، بل لقد تكونت جبهات فى الجزائر ضـد التعريب، وعاد البعض يتحدثـون عـن البربريـة والفرنسـية ،والشـك فـى حقيقـة الانتماء العربى ، وأخص بالذكر منهم: الماركسين، ودعاة العلمانية و الانتقـاص من الدين .

وأذكر مع الأسف أن هؤلاء المعادين للإسلام، وللقومية العربية لهم تأثـيرهم فى بلدان الشمال الإفريقى ،ولهذا فقد شعرت اثناء وجودى بـالمغرب أن رجـال الدين يُوصمون بالرجعية ، وبأنهم اصحاب ثقافة متخلفة ،بـل أن التحضـر فـى نظر هؤلاء هو أن يجعلوا من باريس كعبة لهم ، لدرجة أن أكثر الصحف اليومية انتشارا فى المغرب أو فى الجزائر هى التى تنطق باللغة الفرنسية، وهذا أمـر بـالغ الخطورة أوجه إليه نظر أولى الأمر وأصحاب السلطة الغيورين على الإسلام ديناً وحضارة حتى يعملوا متآزرين على إعادة مجـد الأمـة الإسـلامية ، ولـن يتحقـق ذلك إلا إذا غيرنا أولا من أنفسنا مصداقا لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يُغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(١) .

لابد لنا إذن من الوقوف بحزم فى مواجهة القوى العميلة للاستعمار القديـم فـى الوطـن العربـى لاسيما فيمـا يعـرف بـالمغرب العربـى، ولا يجـب أن نضـع الأحداث المؤسفة فى هذه البلاد فى نفس الكفة التى نضع فيها ظـاهرة التطـرف الدينى فى بلادنا .

---

(١) سورة الرعد ، آية ١١.

وقد سبق أن أثرت هذا الموضوع ونبهت فى أكثر من موضع إعلامى على ضرورة الوقوف بجوار الحركات الثورية فى هذه البلاد و لم أقصد بهذا دعم الطائفية، أو الإرهاب الدينى بل أشير دائما إلى أن وضع المشكلة هنا غير وضعها هناك رغم أن السلطات الحاكمة لدينا قد دخلت فى تحالف نفعى ومصلحى مع سلطات الحكم فى هذه البلاد، مع أن ثوار الجزائر مثلا لا يظهرون تعصبا شديدا للدين بقدر ما يتوجهون بكل قواهم إلى تطهير البلاد وتخليصها من بقايا الاستعمار الثقافى الفرنسى الذى أغرى الكثيرين من شباب هذا البلد إلى الوقوف موقف العداء الصريح لحركات العروبة والإسلام تأسيا بما تعلموه فى مدارس الجزائر ومعاهدها من مناهج وتعليم وتربية فرنسية خالصة يزكيها كبار المسؤلين فى السلطة الجزائرية الذين لايكاد معظمهم النطق بكلمة عربية واحدة فصيحة .

لابد إذن أن نعلن بصراحة موقفنا إزاء هذا التعصب الفرانكفونى البغيض، رغم أن الكثيرين منا فى مصر قد تلقوا تعليمهم العالى بعد الليسانس فى فرنسا.

ينبغى إذن محاولة وضع مشروع للتجديد يبنى على العقل وقضاياه ويستمد من قواعد الدين ومبادئه ، ولا يوجد كالإسلام دين يضع العلم فى أعلى درجة -والعلماء فى أعلى مرتبة ، إذ أن طلب العلم فريضة .

وهكذا ينبغى لنا أن نترسم طريقنا فى وضع مشروعنا الثقافى والعلمى الجديد عن طريق ربطه بالفقه وأصوله ، ذلك أن الفقه يتسع احتهادا لدراسة سائر العلوم الإنسانية ، أما العلوم الطبيعية فقد أهتم بها المسلمون منذ إزدهار الحضارة الإسلامية فى عصرها الأول وبرعوا فيها ، وهكذا يمكن أن ينطوى

مشروع التجديد أو التحديث على العلوم كلها سواء كانت شرعية أو دخيلة ، وإذن فإنه يمكن أن يجد الشباب المسلم المعاصر ما لا يجعله يشعر بالغربة فى عالم الحضارة العربية المعاصرة الذى يموج بالعلم والتعليم ، وعلينا إذن أن نمضى قدما فى بحث هذه المشكلة الثانية ألا وهى كيفية وضع المشروع الإسلامى فى التقديم والتحديث بادئين بدور الفقه وأصوله ، ومدى أستخدامه فى هذا المجال(١)

الفقه والعلوم الإنسانيه المعاصرة:

إذا كان الفقه بفروعه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان وسلوكه ومعاملاته الدينية ، فهذا يعني أن الفقه هو البديل الإسلامي لجملة العلوم الإنسانية التي تدرس الانسان وسلوكه ، ويكون الفرق بين الفقه وهذه العلوم، هو أن الفقه غايته نفعية عملية ، بينما العلوم الإنسانية لها غاية نظرية هي الكشف عن حقيقة الظواهر والسلوك الأنسانى .

ولما كان ا لله سبحانه وتعالي قد وضع الشريعة بحيث تتلاءم مع طبائع الإنسان وقدراته، فيكون الفقة من ثم مبنياً في أسسه علي فهم وتقدير عميق لحقائق الحياة الإنسانية ومتطلباتها، وبهذا يكون جامعا بين الموقفين (النظري والعلمى) وهكذا يمكن أن يكون مجالاً لانطلاق العلوم الإنسانية مادام الإسلام دينا و دنيا ،كما يمكن أن تتفرع عنة نظريات أسلامية في علم السياسة ، وفى علم النفس ، وعلم الإجتماع ،وعلم الإقتصاد ،والأخلاق ، وغيرها.

وتعد هذه محاولة جديدة أو مدخلاً اسلاميا للعلوم الإنسانية المعاصرة،

---

(١) راجع للمؤلف : العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة النظر الإسلامية .

ويمكن أن يدخل ضمنها دراسة مواقف علماء الغرب علي ضوء المفاهيم الإسلامية ،ولا يعني بذلك أن يكون هناك علم نفس إسلامى، أو علم أجتماعي إسلامى علي نحو ما يجهر بة الكثيرون اليوم ، بل من الأفضل أن نتكلم عن علماء مسلمين أسهموا فى تنمية الدراسات النفسية أو الاجتماعية ، وكانوا حلقة فى العلم الإنسانى المترابط الحلقات ، فقد تلقى العرب العلم عن اليونان وطوروه وأضافوا إليه الجديد ، ثم نقل إلى أوروبا فأضافت إليه وأنتجت حضارتها الحديثة ، وهكذا فإن الإيمان بوحدة العلم وعالميته مع الإهتمام بوجهة النظر الإسلامية فى كل مجال من مجالات العلم، يكون أفضل من الانعزالية والاكتفاء بتسمية العلوم باسم الإسلام فحسب ، فهذه ليست عقائد ، بل مسائل تدرس فى دائرة الفروع .

هل هناك منهج إسلامى خاص بالعلم :

يمكن الرد على هذا التساؤل إذا وضعنا نصب أعيننا تعريفا جامعاً مانعاً للعلم ، وذلك بدون التعرض للتقسيم المعروف للعلوم إلى علوم نظرية بحتة وأخرى عملية تجريبية ، وعلى هذا يمكن النظر إلى العلم نظرة عامة مطلقة باعتباره البحث الذى يستهدف الكشف عن قوانين الظواهر، وعلى الرغم أن فكرة القانون نفسها قد أصابها نقد كبير فى مجال العلوم الطبيعية بعد اتساع دائرة الإحتمال وتعذر الكلام عن قوانين علمية مطلقة فى عصر تطبيق النظرية النسبية ، واتساع مجالات البحوث الذرية، فإننا قد نكتفى بالكلام – كما يقول الوضعيون المنطقيون – عن مبدأ إمكان التحقق التجريبى كغاية لأبحاثنا العلمية وليس القانون المطلق الذى ينطبق فى المستقبل على كل الظواهر المماثلة.

وإذن فالظواهر الطبيعية الإنسانية إنما تخضع للملاحظة العلمية سواء كانت معملية أم خارجية كما هو الحال فى علم الفلك وغيره من العلوم التى لا يمكن رصد ظواهرها فى العمل فحسب . وفى كل بحث علمى لابد أن نتحرى الموضوعية والحياد واعتبار الظواهر كالأشياء الطبيعية لا تتلون بلون حياتنا النفسية، ومن ثم فإن القانون أو المبادىء التى نصل إليها من تحليلنا للظواهر وسماتها وخصائصها ، لا يمكن أن يكون هذا القانون إسلاميا أو ضد الإسلام فالطبيعة وهى جماد لا يمكن أن تكون إسلامية أو غير إسلامية إذ هى تتسم بالحياد التام .

ويزعم البعض أن هناك منهجا إسلاميا للعلوم الطبيعية، وبناء على هذا فإن مقود هذا المنهج يتعين أن يكون فى أيدى علماء المسلمين وحدهم ، ولكن الحقيقة غير ذلك فقد ظل المنهج العلمى فى حوزة المسلمين زمنا طويل، ثم نقل إلى علماء الغرب وضمنوه فى أبحاثهم فى العصر الحديث، ثم عاد إلى الإسلام بفضل بجهود بعض الباحثين بعد أن كان قد ذاع وانتشر فى الغرب لفترة طويلة إلى الان، وقد استطاع باحث إسلامى (١) أن يكشف عن قواعد المنهج العلمى عند العرب من خلال أبحاثهم العلمية، واستخراج كل قواعده، وأتضح من هذا البحث أن المسلمين قد سبق لهم أن طبقوا نفس المنهج الذى يطبقه الغربيون الأن فى مجال العلوم . ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نشجب الوصاية الغربية على نشأة المنهج العلمى، وأن نحاول الكلام عن النشأة الإسلامية التاريخية لمناهج البحث العلمى، وينبغى لنا أن نوجه أنظار هؤلاء الذين يتكلمون عن علم اجتماع إسلامى، أو علم نفس إسلامى، أنهم دائما يجهلون تماما إنه ليس هناك منهج

---

(١) راجع فى هذا الصدد رسالة الدكتور محمد عبد الحميد موسى.عن مناهج البحث العلمى عند العرب فى مجال العلوم الكونية.تحت اشرافنا،.ص٤٦،٤٧ .

إسلامي وآخر غير إسلامى إلا إذا قصد بلفظ المنهج أمر آخر وهو أن يبدأ العلم، أو التجريب العلمى بالإيمان الراسخ بوجود ا لله ورجوع الأسباب جميعا إليه، وهذا أن كان مطلوبا من الناحية الدينية إلا إنه ليس من الضرورى أن يرتبط هذا الإيمان مع إمكان نجاح التجارب أو فشلها، فقد يكشف الملحد عن قوانين الظواهر وهو يتجاهل هذه المقدمات ويتعثر غيره من المؤمنين المخلصين فى إيمانهم وذلك أن للنجاح عدته وإستعداده العلمى المطلوب، أما الصلة التى ينبغى أن تكون بين ا لله وعباده ومنهم العلماء فهى صلة غيبية ميتافيزيقية ، بينما تكون الصلة بين العالم ومنجزاته التجريبيه صلة مباشرة بحيث يرجع مدار النجاح إلى العالم ومساعديه ومن يحيطون به، وهذا يقودنا إلى التسليم بأن هناك منهجا علميا واحدا يتميز بوضوح خطواته والتزامه بالحياد والموضوعية، ولهذا فقد أنعقد عزم العلماء على ضرورة انفصال العلم - الطبيعى بصفة خاصة - عن كل ما يغايره من مسائل الشعور أو السلوك الدينى الخاصة بالإنسان .

أختلاف السبل والمناهج :

ولكي نعرف الطريق الذي ينبغي علي المسلم اتباعة، فان أول من يواجهنا هم: السلفيون الجدد ومنهم من يري العودة الي السلفية القديمة علي مذهب أحمد بن حمبل، أو اتجاه ابن تيمية، ومن يقول أيضا بأن الأحياء يتم علي نسق حركة الغزالي، وهناك من يقول بأن الأحياء يتم عن طريق جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد أقبال، والشيخ مصطفي عبده الرازق، وهنا نتطرق في بحثنا الي وضع النقط والحروف حول مشروع التنوير أو الخطة الثقافية والعلمية التي ينبغي ترسمها لأحراز التقدم في كل ميادين الحضار ة وذلك بعد أن ذاعت بين الناس تيارات الفكر المتعددة المناحي ، والتي ينجم عن الاحتكار بينها ظهور فكر

جديد يكون كلفه الدائم منصبا على معالجة مشكلات العصر، وقضايا الفكر والتقدم والالتحاق بركب الحضارة ،وتتمثل هذة المشكلة في ...

حركة الإحياء الجديدة :

وفى رأيي أن الإحياء الجديد لابد أن يكون على نسق الحركة الاعتزالية، وان كان البعض يحاول أن يجعل للأشعرية مكانا فى حركة الاعتزال، وأيا ما كانت الحجج والآراء التى يثيرها كل فريق من الفرق حول صحة منهجه فإننا، نهيب بالمثقفين جميعا أن يولوا حركة التجديد التى أرسى دعائمها جمال الدين الأفغانى أهتمامهم، وإلقاء الضوء على المفاهيم الإسلامية القديمة حتى لا يسلبنا الغير و المتربصون السيطرة على وجدان ابنائنا وعقولهم.

قواعد التجديد وشروط صحته :

على أن التجديد لاينبغى أن يترك بلا موازيين أو حدود كما يدعى أصحاب الفكر الليبرالى القائم على ثقافة اسلامية ضحلة، هؤلاء الذين يدافعون بألسنتهم عن التجديد ويخفون فى انفسهم رغبة جامحة إلى التحديث أو التغريب عن قصد، أو غير قصد فثمة قواعد واصول لابد من الاسترشاد بها إذا ارادنا أن نخرج حركة الإحياء الإسلامى المعاصرة مبرأة من كل الشوائب التى آذت المسلمين فى دينهم .

أولا: ضرورة التزام أى حركة أو جماعة - تدعو إلى التجديد الإسلامى واعلاء كلمة الله فى جميع شئون الحياة الإنسانية - بكتاب الله وسنه رسوله، بالإسلام عقيدة وشريعية،وأن منهج التوحيد الخالص هو طريقتنا إلى الحق والسداد، وأى محاولة للتجديد لا تضع نصب اعينها الكتاب و السنه معناً

ستنجم عنها اضرار خطيرة ،ومثال على ذلك حينما انصب التجديد عند "القاديانية" على إلغاء مبدأ الجهاد فى الإسلام خدمة للمستعمر الدخيل فى الهند بصفه خاصه. ويبدو أن حركة التجديد فى الإسماعيلية الجديدة قد قطعت شوطا بعيدا فى الانفلات من قبضة الإسلام كما يلاحظ من سلوك اصحابها المعاصريين .

ومن قبيل الحث على ضرورة الالتزام بكتاب ا لله وسنه رسوله أن يحرص المسلم عل التمسك بضرورة تطبقيق الشريعة الإسلامية بحيث تلتزم الحكومات و الدول بتطبيق نظام "الحدود فى الشريعة الإسلامية" فى جميع المجالات ومنها مجال السياسية الدولية التعاهدية، وهذا لا يعنى أن ندير ظهورنا نهائيا لكل منجزات الغربة و مؤسساته، إذ علينا أن نقبل منها ما يتفق مع تعاليم الإسلام . وبهذا نستطيع الرد على هؤلاء الذين توهموا انه لايمكن الجمع بين مبادىء الإسلام و بعض مبادىء الغرب القويمة، ونحن نندد بمواقف المتزمتين من رجال الذين يسرعون إلى تكفير كل من يلبس القبعة ، أو لا يطلق لحيته، أو يغفل أمراً من الأمور التى نهينا عنها. فليس من حق أى مسلم أن يكفر مسلما نطق بالشهادتين، فا لله وحده هو الذى يعلم سرائر القلوب "انك لا تهدى من أحببت ولكن ا لله يهدى من يشاء" .. (١)

وعلى هذا فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن نخرج مرتكبى الكبائر من دائرة المسلمين كما قالت الخوارج إبان نشأتها الاولى مع انهم ظلوا مؤمنين بالعقيدة، وكذلك أن نقبل رأى المعتزلة فى الحكم بان المهدر للشريعة من بين المؤمنين بالعقيدة يعتبر فاسقا، وفى منزلة بين المنزلتين ..... (٢)

---

(١) القصص آية "٥٦"

(٢) راجع كتابنا :- تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام عن حركة المعتزله.

ذلك أن الجرم الذى يفعله المسلم قد لا يتكرر، ومن ثم لا يصبح صفة لازمة له ويكتسبها وتكون علامة عليه و لاسيما بعد توبة نصوح، فليس من العدل اذن أن نسمى أى مرتكب لكبيرة - ما عدا الشرك با لله- فاسقا اذا تاب عن فعلته وأصلح وأناب وذلك أن امره موكول إلى ا لله تعالى، ولعل هذا الرأى الجديد الذى يقع بين رأى المعتزلة ورأى أهل السنة و الجماعة من الاشعرية ومن السلف، سيخفف كثيرا من موقف الاعتزال الذى ظل لعدة قرون مذهب اهل العقل من المسلمين بينما ترك أهل السنة الأمر إلى ا لله، وان تكون العقوبة على قدر الفعل.

وقد أردت بهذا التفسير الجديد التمييز بين حق ا لله وحقوق الناس ،إذ كيف تستمر فى ابهام القاتل، أو السارق بإنه يظل هكذا طوال حياته مغفلين أن هذا الرجل إنما قتل دفاعا عن العرض، أو النفس، أو عن غير عمد، وربما يكن قد عوقب عن فعلته أو تاب توبة نصوح. ومن ثم فكل جدل حول التكفير أو التعبير بالفسوق ، إنما يعتبر خروجا على أبسط قواعد الدين الحق.

إن الشريعة لا تنفصل عن العقيدة، ولا يكتمل بناء المسلم بالعقيدة وحدها، بل لابد من إكمال الممارسة العملية للدين، أى القيام بالتكاليف الشرعية التى أمرنا ا لله بها وهى نوعان :

١ ـ أمور فرضها ا لله سبحانه وتعالى بنص كتابه مثل: مواقيت الصلاة، وقدر الزكاة، وشرائط الصوم وميقاته، ومراسم الحج .... الخ

٢ ـ أمور وردت فى السنة المطهرة عن رسول ا لله ﷺ .

وينبغى أن نضع فى تصورنا أن ثمت مستويين للإسلام: المستوى الأول: وهو الذى تكتمل معه تعاليم الدين اذ ترتبط فيه العقيدة بالشريعة ارتباطا وثيقا وهذا هو المثل الأعلى للإسلام بصريح الكتاب و السنة . اما المستوى الثاني فإنه يتفق مع المستوى الاول فى الاشتراك معه فى الأساس و الجوهر، أى فى العقيدة، ولكنه قد يختلف عنه فى إهمال المسلمين لبعض الشرائع، وأكرر قولى بأن الذى لا يمارس الشرائع من المسلمين يعتبر مسلما عقائديا فحسب أهمل شريعته فحق عليه العقاب ولايمكن أن نخرجه من دائرة المسلمين . وثمه دعوى جاهليه تأتى من روح معارضه للاسلام يزعم أصحابها أنهم من المجددين حينما يفصلون بين الكتاب و السنة والتى هى جزء من الشريعة وهذا أمر له نتائجه الخطيرة وكأننا بهذا المسلك نفصل بين الرسول (ﷺ) كناقل للوحى ومحمد الإنسان فنقبل الصورة الاولى للرسول كمبعوث من الله إلى البشر ،ثم نتشكك فى كونه إنسانا صادقا وأمينا فى حياته بين الناس، وكيف يصدق هذا على رسول الله الكريم، وقد عرف بصدقه وإخلاصه وأمانته بين العرب قبل البعث وبعده، وأيضا فإنه من المستحيل أن يكل الله سبحانه وتعالى أمر هذه الرسالة العظمى إلى أى فرد من بنى البشر الا أن يكون مثالا للكمال الأخلاقى والسمو الروحى و التهذيب النفسى مثل محمد عليه الصلاة والسلام الذى لا ينطق عن الهوى، وبالاضافة إلى ذلك فإن السنة إنما تفسر مجمل القرآن فى كثير من مواضعها، ولا يجوز أبدا قبول حديث يتعارض مع نص قرآنى .

ومن ثم يتعين الوقوف بحزم أمام دعاة الاكتفاء بالكتاب وحده دون السنه، فالقرآن حمال أوجه بما ينطوى عليه من آيات متشابهات ،وتأتى السنه

لتوضح ما استبهم، وتبسط ما غمض ،وعلى هذا فإن الإسلام - كتابا وسنة - إنما يصلح للتطبيق فى كل زمان ومكان إلى يوم الدين .

ثانيا : ضرورة التسليم بالإسلام دين ودولة - فليس الإسلام مجرد عقيدة روحية يفصل أصحابها الدين عن السياسة كما فعل الغرب حيث فصلوا بين السلطة الروحية ممثلة فى البابا والسلطة الزمنية أو الدنيوية ممثلة فى الامبراطور أو الحاكم السياسى، ذلك لأن الإ سلام كما سبق أن ذكرنا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب إنما ينطوى فى جوهره على ما يؤهل المرء لكى يقضى حياته الدنيا فى ظل كمال أخلاقى ، وسياسى، واقتصادى ، واجتماعى حتى يبلغ السعادة فيها وكيف أن تطبيق الإنسان لمبادىء الإسلام المنظمة لشئون الدنيا هى التى تؤدى به إلى الآخرة الصالحة، فكيف إذن يهمل المسلم شطرا كبيرا من التعاليم الحيوية التى وردت فى القرآن ؟ فلمن يوجهها القرآن مادام المسلم لا يلتزم بها فى حياته فى هذه الدنيا . ولا يعقل أن ينطوى الذكر الكريم والوحى المنزل على عبارات، أو قضايا، أو آيات لا معنى لها، ولا تتجه إلى تحقيق أى غاية تعبديه ، أو نفعية ، أو عملية، ومن ناحية أخرى فإن الآيات الواردة فى شئون الدنيا إنما تشير فى معظمها إلى توجيهات عامة يستطيع المسلم أن يطبقها فى كل زمان ومكان ، وأنها من ناحية أخرى لا تتعارض مع العقل أو تتناقض مع واقع الحياة الإنسانية ، ومن ثم فإننا نعجب من مهاجمة أمثال هذه الآيات المنظمة لشئون الدنيا ، واستبعادها عند العلمانيين ، وحتى عدم وضعها فى الحد الأدنى مع المذاهب والقوانين الأخرى التى يضعها العقل الإنسانى لتنظيم المجتمعات الإنسانية عبر العصور .

إن الذى يقلق هؤلاء - كما سبق أن ذكرنا فى مواضع سابقة من هذا الكتاب- انهم يرون أن الالتزام بهذه النصوص سيؤدى بهم إلى الوقوع فى قبضة رجال الدين انسياقا مع مقولة الحاكمية لله ، وكيف أن مقولة الحرام ، والحلال ستفضى إلى الإلزام وإلى نفى الحرية الفردية والجماعية .....إلخ . واكرر القول بأن هذا كلام لا يرقى إلى مستوى الجدية لعدة أسباب ، ومنها أن الإنسان المسلم قد يطبق تعاليم الشريعة، وقد لايطبقها ، فقد يدفع الزكاه، أو يقوم بالصلاه، أو لايفعل شيئا من هذا ، وسيكون جزاوءه الأخروى خير رد على هذا الجحود بقضايا الدين ومبادئه .

وكذلك فإن حكام المسلمين وهم ليسوا حاصلين على التفويض الالهى ليس لهم حق إلزام المسلم على فعل ما يرفض أن يفعله . فيكون إذن مصير المواطن المسلم موكلاً إلى ا لله أى إلى الجزاء الأخروى إذا لم يقع تحت طائلة الجزاء الدنيوى . فأين إذن هى الغرابة فى هذا التنظيم السماوى الذى يعلو على كل تنظيم سياسى آخر مادام الإسلام قد فتح الباب على مصراعيه أمام المسلمين، وذلك لكى يختاروا من يشاءون من رجالهم بشرط أن يكونوا على علم بحقيقة دينهم ، وكذلك فإن النصوص الدينية لم تلتزم بنظام دنيوى معين بل لقد أشارت إلى مبادىء مثل الشورى ، والمساواة، والعدالة، والسماحة ، وحسن معاملة غير المسلمين ، والالتزام بكل حقوق الإنسان وصيانة الملكية الفردية والجماعية ، وتنظيم حياته الاقتصادية بطريقة تحقق له السعادة والرفاهية والقضاء على الجهل والفقر والمرض ، كما نادى طه حسين من قبل . وباختصار فإننا نوجه إليهم تساؤلا وحيدا فهل هم يريدون أن يظلوا مسلمين مؤمنين بكل ما ورد فى الوحى وما جاء فى سنة الرسول (ﷺ)مستخدمين الاجتهاد فيما لم يرد به نص أم أنهم يعملون جاهدين على أن يقضى على الإسلام ، وأن تذروه

الرياح ويصبح أثرا بعد عين ، وهذا هو منتهى آمال الأعداء من الغرب ومن الشرق على السواء . ولن تنطوى علينا هذه الألاعيب الماكرة التى تختفى وراء بريق الفكر والحرية كذبا، أملا فى أن تحقق أغراضها ، فتزيف مقولات الإسلام الحقة فيكون فى ذلك تحقيق لما يصبون إليه وهيهات أن نمكنهم من هذا الأمر فالمسألة إذن ليست موضوع خلاف بين الفرقاء، بل تستحكم فيها روح العداء والاغفال من جانب المهاجمين للدين، ذلك انهم يريدون القضاء على هيكلية الإسلام العظمى بإبطال المبادىء التى ينظم بها عالم الدنيا ،وعلى هذا فإن الذين يؤيدن موقف الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية فى الإسلام إنما يرتكبون خطأ جسيما، ولأنهم يهاجمون الإسلام فى قوام العقيدة أى فى الأصول وليس فى الفروع فحسب ذلك أن المسلم انما يعيش (التوحيد) فى حياته فى هذه الدنيا قبل استشفاف معانيه الموجهة للمرء إلى الاخرة أيضا ،ولن يكون لنا أى امل فى مستقبل مشرق قريب الا اذا كان الدين هو الامر الشامل الذى نلتزم به فى حياتنا فى الدنيا والآخرة ويجب أن نعرف ايضا أن الدين الإسلامى، وهو دين الختم ، دين شمولى.(١)

وهو بهذا يصلح لكل زمان ومكان ،ولايصلح أمرنا إلا إذا راجع بعض المفكرين انفسهم وكفوا عن النظر إلى تراثنا من خلال ظلال باهتة لمذاهب وافدة من الغرب كالمادية ، والحسية ،والوضعية ،والليبرالية، والنفعية ...وغيرها والتى قد تصلح لأهلها ولاتصلح لنا .

ثالثا: انه يتعين استخدام العقل فيما لم يرد به نص صريح ضماناً للتطبيق الصحيح على الأمور المستحدثة فى معاشنا فى هذه الدنيا، وضمانا لتقدم

---

(١) راجع كتابنا عن : نحو ايدولوجية عربية اسلامية .ملحق بهذا الكتاب.

المجتمع الإسلامى، وحفاظا عليه من التأخر والتخلف فنعمل دائما على ايقاظ الجهاز النقدى فى عقول شبابنا حتى يستطيعوا بأنفسهم التمييز بين ما يصلح لنا من آراء ومذاهب وأفكار مستوردة من الغرب، وأخرى فاسدة ينجم عنها أذى كبير ، ومن ثم فلا ينبغى لنا طرح كل ما يجلبه الغرب من مذاهب وأفكار وتعاليم دون بحث فى بعضها ولاسيما ما يرتبط منها بالعلم وقضاياه، فهذه تيارات لها منطق خاص تنطوى فى ذاتها على إمكانية التقدم، والذيوع والانتشار أكثر من تيارات الأدب والفن وغيرها من منجزات الوجدان والقلب والانفعال ، وهكذا نرى أن العقل الصُراح هو فى الغرب وفى الشرق مثله فى ذلك مثل قضايا المنطق لايمكن أن تعطى نتائج أو محصلات غربية أو شرقية ، وإذا كنا فى مجال الحث على تحكيم العقل ، هو أمر ضرورى أوجده الإسلام شرعا اذ يكرر النص القرآنى الدعوة إلى ضرورة تحكيم العقل بقوله عز وجل ﴿ أفلا يعقلون ﴾ فى كثير من الآيات ، فهل نتجه إلى الفلسفة فى محاولة التجديد من حيث أنها تعتبر أسمى نتاج للعقل الإنسانى المنطقى عبر التاريخ ، ولكننا نعرف أن تراث الفلسفة الإسلامى الذى ندرسه لايحتمل بأى حال روح التجديد بل سيفضى بنا حتما إلى التغريب، ذلك أن من يبحث فى قضاياه سيجد أنها منقولة نقلا مشوها عن الفلسفة اليونانية مع إضافات أستمدتها من مدرسة الاسكندرية الفلسفية القديمة ، بالإضافة إلى اجتهادات جزئية محدودة أقتدها الشرح وأساليبه ، والحوار الدائم بلغة المشائيين إلى عصر ابن سينا ، ثم ظهور الأتجاه الأفلاطونى بعد نقد ابى البركات البغدادى...[1] الذى أستفاد منه الغزالى كثيرا فى هجومه على الفلسفة

---

(١) راجع بحثا للمؤلف عن منهج جديد لدراسه الفلسفة الإسلامية.

فلم تكن الفلسفة الإسلامية مرتبطة بمشكلات الإسلام ارتباطا وثيقا إذ كانت تمثل حركة اغتراب يبتعد فيها التراث عن العقل الإسلامى بحيث يشعر المسلم العادى أو المثقف ثقافة إسلامية بحتة بان الفلسفة اليونانية أمر غريب على وجدانه.

وإذا كان التراث الفلسفى عند من عرفوا بفلاسفة الإسلام قد جاء مشوها....(١) ، وغير معبر عن روح الإسلام وجوهر الثقافة الإسلامية ، فإننا يجب أن نبحث عن النسق العقلى القريب من الفلسفة والذى يتبناه المسلمون لتكريس استخدام العقل فى تفسير الوحى وتأويله وتبريره كما يقضى بذلك النص القرآنى الشريف فما هو هذا النسق العقلى ؟

الأمر الذى لاشك فيه أن علماء الكلام فى حركتهم الاعتزالية قد قدموا لنا القدوة الصحيحة فى كيفية الإسهام فى عرض قضايا الدين وشرحها، وهكذا فإننا حينما نطالب باستخدام العقل فى حياتنا نرى أن يكون ذلك بالالتزام بتطبيق منهج المعتزلة الكلامى ...(٢) ولدينا تراث طويل ينضح بما نقول حيث خاض المعتزلة فى مسائل كثيرة مثل حرية الفعل فى الإسلام، وحقوق الإنسان...(٣) والعدل وما ينجم عنه من مشكلات وقضايا تتعلق بالنظم السياسية والقانونية، والإجتماعية، والإقتصادية، وغيرها .

---

(١) راجع كتابنا تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ومبررات ماكتبناه عن الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون وارسطو .

(٢) راجع المنهج الكلامى عند المعتزلة و المتكلمين على وجه العموم - تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام للمؤلف .

(٣) أنظر فى خاتمة البحث ما كتبناه عن حقوق الإنسان فى الإسلام.

رابعا : أن الهدف الذى نسعى إلى تحقيقه من وراء استعراض قضايا الحضارة فى الغرب، وازكاء روح المقارنه بينها، وبين حضارة الإسلام القديمة والمعاصرة ، هو إيقاظ الجهاز النقدى عند شباب المسلمين ،وتكوين ملكة النقد لديهم بحيث لا نخرج شباباً هم عبيد للاتباعية المتحجرة الضيقة الأفق فحينما يتواجد النقد المنطقى البناء يكون هذا دليلا على استيقاظ العقل المرشد والهادى الفطرى الذى استودعه الله فى الانسان ،ولعلنا نتنبه إلى المؤامرة الخطيرة التى أحكم الغرب دائرتها حول شبابنا فهو يبهر عقولهم بمظاهر الحياة البراقة التى لا ترتبط أساسا بجوهر الحضارة الغربية ، فعندما تسأل الزائر لباريس أو لندن من الشباب عما يشاهده فإنه يذكرلك عشرات من أماكن اللهو و التسلية التى يسلط الغرب أضواءه عليها، ولاسيما منتجات الفن من رقص ،وغناء،وموسيقى،وعروض مبتذلة، وتحرر خارج عن حدود اللياقةمن النواحى الجنسية وغيرها ،وكل هذا يعتبره شبابنا قوام الحضارة الغربية وجوهرها الحقيقى ، ومما يعمل على إحكام قبضة هذا التآمر على عقول شبابنا، وسائل إعلام سطحية متسرعة يقال إنها تعبر عن آرائنا، ولكنها تزيد الطين بلة بما تعرضه من هذا السيل الجارف من الحضارة الزيفاء دون تبصر أو إرشاد للشباب الضائع فى متاهات هذه الحياة التى يكاد يفقد انتماءه إليها، فيفكر غالبا فى الفرار بنفسه إلى مصدر الحضارة بدلا من مواجهة المتناقضات فى مجتمعات إسلامية نامية .

وحينما يستقر به المقام فى اوربا، أو فى أمريكا لبضع سنين، فإن الحقيقة المرة لاتلبث أن تنكشف له رويدا رويدا فيحس بأن هناك بنية أساسية لهذه المجتمعات، وأنها تنطوى فى أعماقها على اخلاص شديد للعمل واتقانه وتجويده

فيندر أن تشاهد أوروبيا فى باريس أو لندن يتسكع فى الشوارع فى ساعات العمل، ويكاد الفرنسى، والانجليزى يخجل من الجلوس فى المقهى فى أيام الأسبوع الأخرى غير العطلات لأن هذا يعنى أنه عضوا فاشل فى المجتمع. فإذا ذهبت إلى مصنع صغير أو كبير فى ألمانيا أو فرنسا أو انجلترا أو أمريكا فإنك لن تجد فى أغلب الأمر من يدخن السجائر اثناء العمل، أو يقرأ الجرائد، أو يستقبل الزوار، أو يستريح غى غير أوقات الراحة ...إلى غير ذلك من العادات الحميدة التى تحسب للغرب، ويندر أن تراها فى مجتمعاتنا، فلا غبار علينا اذا قلدنا الغرب فى هذه الصفات التى تعود بالنفع على المجتمع الإسلامى أجمع على إنه اذا كانت مشكله الربط بين العمل و الحضارة وصولا إلى النهضه و التقدم من اهم ما يتعين علينا أن نحتذى به فى توجهنا إلى الغرب، فإنه ايضا من الأمور البالغة الخطورة الانكتفى بهذا التوجيه الضرورى من حيث اعتبار النظام والعمل الدقيق مرشدا ومنهاجا ملزماً لنا فى سائر أنشطتنا الاجتماعية ، والثقافية، والصناعية ...الخ إلا اننا ينبغى أن نحرص أيضاً على أن يكون ثمت تلازم دائم بين الحضارة والعلم فلا يمكن أن نحرز أى تقدم فى مسيرتنا لكى يتحقق الإحياء الحضارى الكبير، الا اذا كان العلم هو أسلوبنا ومنهاجنا الأساسى فى حركتنا نحو مستقبل أفضل، وإلا أصبحنا مقلدين فحسب للحضارة الغربية،وتتباعد عن حياتنا صفات الجدة والابداع بقدر اهمالنا لهذا الربط الجوهرى بين العلم والحضارة . على أنه ينبغى أيضا الا يكون ارتباط الحضارة بالعلم معطلا لإرتباطها بالدين الصحيح اذ يجب أن تتآزر القيم الدينية الصحيحة مع قيم العلم اليقينية لكى تقوم الحضارة ، ذلك أنه اذا لم تكن هناك قيم مطلقة تستند اليها الحضارة والعلم فى صورة التزام معنوى واخلاقى فانه يصعب أن تحقق أى حضارة لا تحترم هذه القيم أى تقدم أو ارتقاء والأمر الذى لاشك فيه أن

الأخلاق العلمية الحق هى بعينها الأخلاق الدينية المطلقه [١]

ولا يغيبن عن البال كما سنرى فى الفقرة التالية كيف أن الإسلام لايمكن أن يحمل المفاسد التى ارتكبتها المسيحية فنحمل مطلق الدين أوزارا يجب أن يقتصر عبء حملها على المسيحية وحدها ،ومن ناحية أخرى ينبغى الفصل بين مظاهر الخلاعة، والمجون، والانحراف، والفساد، واللهو، والترف التى يصخب بها المجتمع الغربى فى الظاهر. ينبغى أن نميز بين هذا كله، وبين الاخلاق الجادة المثالية التى يلتزم بها الغربيون فى حضارتهم سواء فى العلم أو فى العمل.

وإذن فالمقصود بالقيم الدينية فى الإسلام هنا هى التى يتبناها المسلم المستنير الذى يعرف حقيقة التزامه الدينى سواء كان دنيويا أم أخرويا .

الحضارة الغربية بين الدين والعلم:

أ ـ أن الارتباط العضوى بين الحضارة والعلم يدفع بنا إلى التأمل العميق فى العلاقة الجدلية بينهما فلا مناص لاحدهما من الاخر ..ففى عصور التأخر العلمى مثلا نبحث عن الحضارة المزدهرة فلا نجدها والعكس صحيح إذ انه فى عصور الركود الحضارى يأخذ العلم فى التدهور، وهذا ما حدث بالنسبة لحضارة اليونان القديمة فى عهد ركودها ، وفى الحضارة الإسلامية منذ القرن السابع الهجرى إلى مابعده.

ولايستطيع أحد أن ينكر دور الدين وارتباطه العضوى بكل من العلم والحضارة فى القرون الوسطى المسحية، وفى عصر الازدهار الإسلامى الأول.

---

(١) راجع للمؤلف الفلسفة ومباحثها.

لقد كانت الصله بين العلم والدين والحضارة وثيقة إلى حد كبير فى القرون الوسطى المسيحية بحيث أن الحياة العامة فى أوروبا المسيحية كان يشوبها طابع دينى خالص هو أقرب إلى الجمود والتحجر نتيجة لحركات الاضطهاد المسيحى وشيوع، روح التعصب الدينى مما أدى إلى انشعاب المسيحية إلى فرق يسم بعضها البعض الآخر بالهرطقة والمروق عن الدين كما حدث بين المناديين بالتعميد الجديد وبين الكاثوليكية فى أوروبا، وبينها وبين البروتستانت،ولم تع المسيحية درس التسامح الدينى الذى غرسه الإسلام فى منابره الجديدة فى الأندلس، وصقلية، وعلى تخوم الشام وصولا إلى اواسط أوربا بعد غزو العثمانيين لها حيث فضل بعض المسيحيين فى وسط اوربا الدخول فى الإسلام على الاستمرار فى اعتناق المسيحية (1) وهذا دليل على أن الإسلام بمبادئه السمحة هو أقرب الاديان إلى الفطرة ومن ثم إلى العلم فلم يكن الدين إذن فى مثل هذه القرون يشكل عائقا حضاريا بالنسبة للعلم، بل كان حافزاً للإنسان المسلم على المضى قدما فى الكشف عن مضامين الوجود وأسراره ، ولا نجد كتابا سماويا يوجه النظر إلى الفكر وإلى العلم وإلى احترام العلماء واعتبارهم ورثة الأنبياء مثل القرآن . والإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم . هذا كله حدث فى بلاد الإسلام ، فإذا وجهنا الأنظار إلى الغرب المسيحى فإننا نجد حصيلة القرون الوسطى متمثلة فى محاكم التفتيش، وصكوك الغفران، وقتل الأبرياء، واضطهاد العلماء والمبرزين فى كل مجالات الفلسفة والعلم ، وقد سبق لنا أن ذكرنا فى موضع سابق كيف أن حكام الأندلس كانوا يدفعون الناس إلى الارتداد بالقوة عن الإسلام وضرب أعناقهم أن رفضوا إلصاق الصلبان فى وجوههم، ويستصرخ المسلمون

---

(1) Thomas Arnold : Preach of Islam.

بإخوانهم فى الدين وبالعالم كله فيقابلون بصمت حزين وفى نفس الوقت كان البابا يحيك المؤمرات لمنع العثمانيين ومصر من إغاثة هؤلاء الضحايا الذين أريقت دماؤهم على مسمع ومرآى من العالم كله باسم المسيحية . وقد تكرر هذا فى عصرنا فى مشكلة البوسنة والهرسك حيث يطبق الصرب أبشع أساليب التطهير العرقى والدينى علانية وفى وسط اوروبا دون استحياء أو خجل وليعلم شبابنا أن هذه هى روح الحضارة الغربية التى تقطر الدماء من يدها سواء فى حملات الأستعمار أو فى الحروب الكبرى أو الصراعات الداخلية، ويتم هذا كله فى قسوة بالغة لم تعرف طريقها إلى الإسلام دين الرحمة . وإذا كان المد العلمى المصاحب للدين فى القرون الوسطى لم يكن له أثره فى تحصين الغرب المسيحى وكف يديه عن العدوان على المسلمين، فاننا نجد حدوث تحول إيجابى غريب فى بلاد الغرب بعد أنتقال العلم الإسلامى إلى المسيحيين والذى كان من شأنه تحرير العقل الأوربى وتوجيهه وجهة انسانية رحيمة وقد بدأ هذا المنهج العقلى الجديد يثبت أقدامه فى أوروبا منذ عصر النهضة كنتيجة اساسية من نتائج انتشار العلم العربى فى الغرب المسيحى ، ومع هذا فإن العلماء والفلاسفة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا لايزالون على حذر من سطوة رجال الدين ويدل على ذلك ما لاحظناه من عناصر لاهوتية فى الفكر الأوربى المبكر عند ديكارت، وباسكال مثلا . (١) و لم تلبث الثورة الفرنسية أن تفجرت بعد عصر من التساؤل ومحاولة الكشف عن فطرة الإنسان الأساسية وجاءت الثورة كمحصلة للتراث الفكرى العظيم فى أوربا حيث كانت المعول الأخير الذى أهتزت معه سائر القيم الديينية نتيجة لتعرض الثوار الفرنسيين لرصيد الكنيسة ولأفعالها المخزية فى أوربا. ولهذا فإن رجال السياسة والعلم بعد الثورة الفرنسية

---

(١) راجع للمؤلف العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة النظر الإسلامية . تحت الطبع .

عملوا على فصل الدين عن الدولة وكذلك عن العلم .

وظهرت طائفة المفكرين الأحرار في العالم الغربي الذين يعتقدون أنهم يستطيعون الوصول إلى الإيمان عن طريق النظر العقلي وحده دون الألتزام بالوحي السماوي، أو الطائفة الأخرى التي كانت تبشر بطرح الدين السماوي واستبعاده وعدم الألتزام به، وقد ظهر فيما بعد الشعار الخطير والقائل بأن الدين أفيون الشعوب ، ولقد حملت المسيحية في أوربا رصيدا ضخما من الفساد والإفساد يجعل تطبيق هذا المبدأ صحيحا عليها، بينما يخطىء تماما كل من يحاول تطبيقه على الإسلام فإذا كان رجال المسيحية قد ألحقوا أضرارا بالمجتمع الأوربي الوسيط والحديث، فاننا نجد الإسلام على العكس من ذلك وقد تضخم رصيده في الدفاع عن المسلمين وحمايتهم، فرجال الإسلام هم الذين حموا الوطن الإسلامي من التتار والصليبيين ورفعوا راية الإسلام في كل مكان . فضلا عن أن الإسلام يرفض تماما ما يصمنا به الغرب من خضوع أعمى للحاكم المستبد إذ أن هذا أمر نسبي فقد نسي الحاقدون من علماء الغرب أن اطاعة الحاكم أو ولي الأمر إنما تقوم بشروط تحقيقا للآية الكريمة " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " (١) فلابد إذن أن تكون الطاعة في إطار ما أمر الله به أن يتبع من مسائل وأمور فلا طاعة لحاكم في معصية الله ولا خضوع لولي أمر في أمر حرام بل أن الحاكم الذي لا يطبق الشريعة يجب عزله أو محاكمته أو معارضته حتى يثوب إلى الرشد .

وإذا مضينا مع التاريخ في مساره إلى القرن التاسع عشر فإننا نلاحظ أنفتاح عصر جديد يموج بالنزعات اللادينية، وبجموح شديد نحو الاستعمار، ويظهر

---

(١) سورة الانبياء : الآية ٥٩.

دعاة الفكر المادى (١) ومنهم " فيورباخ " وغيره ويرى هؤلاء أن الدين هو محض اختلاق ووهم كبير ابتدعه الرؤساء المسيطرون على الناس لإحكام قبضتهم عليهم ولتحقيق مصالحهم لاسيما بعد أن ظهرت خطورة حركة تحرير العبيد فى العالم . فالبديل الأنسانى عند هؤلاء الماديين هو أزدياد قبضة الدين على الناس حتى يعوض الحكام عما فقدوه عن طريق حركة تحرير العبيد، وهذا أمر بالغ الخزى والعار لاسيما بعد أن حملوا لواء الأستعمار وهو السند القوى للرأسمالية الغربية . ومن ثم فإن ظهور الفكر الماركسى لم يكن عبثا بل جاء فى عصر تمخض عن " دارون " و " سبنسر " و "لامارك " أى عن نظرية فى النشوء والإرتقاء التى يرى أصحابها أن الحياة لا خالق لها وأن هذه الكائنات الحية ما هى إلا آلات تطور بعضها عن طريق البعض نتيجة للآلية وللصدفة البحتة . وهكذا كان القرن التاسع عشر مجالا واسعا لانتشار الفكر المادى وإزدهاره نتيجة لعوامل كثيرة منها الكشوف الجغرافية، والأستعمار، وقيام الرأسمالية وأستيعاب أوربا للعلم والحضارة الإسلامية، كل هذا أخذ يتفاعل إبان الثورة الصناعية الكبرى وعصر اكتشاف البخار حيث تضخم تأثير المادة وأصبحت هى الأله المسيطره على عقول الناس وكان لهذا كله أثره فى تنكيس القيم الدينية وإعلاء شأن المادة(٢) ويلاحظ أن المادية قد بدأت مسيرتها فى أوربا - ولاسيما فى فرنسا - فى أواخر القرن الثامن عشر ووصلت إلى ذروتها حينما أنتصرت الثورة الفرنسية وحطمت البورجوازية كل صور الأقطاع وأطاحت بالمثالية الدينية وأحلت مكانها الرأسمالية المتحررة وكان من أهم دعاة المادية فى أوربا - وفى فرنسا بصفة خاصة فى خضم هذا الصراع الأيديولوجى

---

(١) راجع للمؤلف : الفلسفة ومباحثها الجزء الخاص بالمادية .وكذلك كتاب النظم الاشتراكية.

(٢) راجع للمؤلف - النظم الأشتراكية .

" جوليان لامترى " و "د يدرو " الذى كان أول من أستخدم الجدل بالمعنى الهيجلى قبل هيجل .

وعلى أية حال فقد كان هؤلاء الماديون أعداء للإقطاعيين وللدين وللصورة التى آلت إليها المسيحية فى أوربا ، وللمثالية بكل صورها بوجه عام فقد ساهم هؤلاء المفكرون فى تطور الفلسفة المادية بقولهم بمبدأ وحدة المادة والحركة .

وهكذا نجد من تتابع الأحداث فى الغرب المسيحى منذ عصر النهضة كيف أن الغرب استفاد كثيرا من التجربة الإسلامية فى العلم والفلسفة، ومع هذا لم يستطع كبار مفكريه أن يقفوا فى مواجهة تدهور القيم المعنوية والروحية ومواجهة الانهيار الاخلاقى والدينى بحيث أصبحت تيارات المادية هى الصنم الذى يعبده الغرب اليوم.

ومهما كان من أمر تقدم الحضارة الغربية من ناحية العلم والتكنولجيا، الا أن تأخرها الأخلاقى والمعنوى يكشف لنا عن حقيقة هامه وهى أن الهرم الانسانى أصبح فى وضع مقلوب، فبدلا من أن توجه انشطة المجتمع المادية والمعنوية لخدمة أغراض التنمية البشرية وإثراء الجانب المعنوى للحضارة، نجد أنهم يمعنون فى الغرب فى العمل على زيادة استعباد الالة للإنسان بحيث لا يكون الهدف هو الانسان نفسه وتقدمه وهو صانع الحضارات ومفجرها، بل يتوارى الإنسان ليسلم قيادة حضارته ووجوده إلى المادة ومنجزاتها فهل هذه هى الغاية من استمرار حياة البشر على سطح الارض ؟

يبقى أذن أن نؤكد لشبابنا انهم اذا ارادوا أن يكون للمسلمين إسهاما فى معترك الحياه الإنسانية اليوم وغدا فانهم ينبغى أن يتمسكوا بالحضارة وأصولها

كما مارسها المسلمون في عصور سابقة جاعلين نصب اعينهم احترام المبادىء ورعاية القيم الإنسانية الاصيلة فان هذا هو طريق الخلاص.

ولايفوتني في هذا المجال أن أشير بوضوح إلى أن سائر الندوات والمؤتمرات التي انعقدت للدفاع عن حقوق الانسان المعاصر قد اشادت بسبق الإسلام إلى ضرورة الإلتزام بحقوق الانسان والتنوية بها حفاظا على كرامته وانسانيته وكان للمؤلف شرف الاسهام في إحدى هذه الندوات في البرتغال، حيث سلم الحاضرون بما للإسلام من مواقف مشهودة في الدفاع عن حقوق الانسان ،وكانت هناك ايضا ندوة عن حقوق الإنسان في الثمانينات اقامتها جامعة الزقازيق في القاهرة مع هيئة حقوق الانسان بالامم المتحدة وشارك فيها المؤلف في حينه ولمس من خلالها الاهتمام الكبير الذي يؤكد أصالة معرفة الإسلام عقيدة وشريعة لحقوق الإنسان قبل أن يكتب عنها أو يشير إليها أي مؤلف أو باحث في الشرق أو في الغرب على السواء .

الفصل الخامس

إحياء حركة الأعتزال العقلية

" المعتزلة وموقفهم العقلانى"

١ ـ لقد سبق لنا أن عالجنا موضوع الثقافة العربية الإسلامية فى مؤلف آخر[1] ، وقد اتضح لنا أن دعاة التغريب يريدون لنا أن نهمل ما ضينا تماماً من أجل حاضرنا ، وأن نتنكر لتراثنا بل أن نسقطه من الحساب حتى نصبح فاقدى الهوية ونكون كالنكرات المسرحية، أو كأرقام مُجهلة فى جعبة الثقافة الغربية لايكون لها من حظ الحياة إلا بقدر ما تقدم لجبابرة الغرب من زاد ومؤن وثروات لاتعد ولاتُحصى دون اعتبار لكرامتنا أولاً نسانيتنا ، وإلا فكيف نفسر اقبالهم علينا وترحيبهم بنا فى كل مناسبة، بل وتحالفهم معنا واعتبارنا كأصدقاء مادام بترولنا يتدفق إلى مصانعهم، ومواردنا تحت أيديهم، وأسواقنا مفتوحة لهم متخذين قرارتهم فى صلف وكبرياء ووراؤها القوة الغاشمة، فيكون المظهر إنسانياً براقاً ناعم الملمس مليئاً بأسباب الحفاوة والاحتفاء فإذا ما حاول فريق منا المطالبة بحق ، أو الوقوف أمام نزوة باغية للغرب، فلا نلبث أن نجد قوته الباغية تنقض علينا فلا تبقى ولاتذر، وما عهدنا ببعيد لمأساتنا فى حروبنا مع إسرائيل ، وفى العدوان الثلاثى ، وفى حرب الخليج ، وفى المجابهات الشرسة مع ليبيا، والسودان ، وكذلك فى محاولة احراق الأرض فى الصومال ، وإثارة النعرات المعارضة للعروبة والإسلام سواء فى الجزائر ، أم فى إريتريا، أم فى لبنان حتى تفككت أواصر العروبة ووشائج القربى الإسلامية ، وكان من جراء هذا

---

(١) راجع للمؤلف الإسلام فى مواجهة تيارات الفكر الغربى المعاصر .

كله أن توالت الضربات على العروبة والاسلام كما سنرى بالتفصيل فى الفصل القادم حيث سنعرض لهذا الموضوع أى عداء الغرب للإسلام ، وإذا كان دعاة التغريب يريدون منا أن نلحق بالغرب لأنه موطن العقل والحرية، وهما المبدآن اللذان تقوم عليهما أى حضارة أو تقدم فى سائر أنحاء المعمورة، اذا كان هؤلاء الداعين إلى هذا يريدون منا أن نتفهم الدرس الغربى، وأن ندرك مراميه حتى نتعلم منهم ما ينفع لنا من أمور فى شئوننا الحيوية مادية كانت أم معنوية، فنحن نرحب بهذا، وليس هناك عاقل يرفض هذا أيضاً بل إن هذه لاتعتبر قضية يمكن مناقشتها إذا سلمت النوايا والأغراض، وما من دولة نامية إلا وعينها على حضارة الغرب المعاصرة وهذا التقدم العظيم الذى أحرزه الغربيون فى سائر المجالات العلمية والتكنولوجية والحيوية على وجه العموم، ولكن هؤلاء المؤمنين بالتغريب يريدون أن يسلخوا المسلمين من حضاراتهم ومن ذاتيتهم بحجة أن المسلمين يتمسكون بتراثهم الدينى وهو تراث رجعى (فى نظرهم ؟!)، كيف وانهم يعتزون بهذا التراث القديم ويقفون موقف الرفض من تراث الغرب الحديث .

وفى رأينا نحن أن المسلمين إذا فعلوا ذلك فإنهم يحكمون على أنفسهم بالرجعية وبالجمود إذ ليس هناك مسلم واحد عاقل لازال يعيش ألف ليلة وليلة، أو كتب الطوالع واليازرجة والسيمياء، وما يتبع هذا كله من إيمان وتسليم بالخرافات والأشباح وغير ذلك، إلا إذا كان هؤلاء أى أصحاب التغريب تتوجه أنظارهم إلى الفلكلور الشعبى بما فيه من قصص وحكايات عن هذه الأمور الخفية، ولايعد هذا الفلكلور الشعبى بأى حال من الأحوال مؤشراً على ثقافة الشعوب، ولاسيما إذا كان سبعين بالمائة من هذا الشعب من الأميين الأقحاح فيصبح إذن أن أصحاب التغريب وكأنهم يهيلون التراب على العقل العربى

محاولين إخفاء حقيقة هامة، وهى أن كل المثقفين والدعاة الإسلاميين الذين يحترمون عقولهم ليسوا بدون شك من أصحاب الجمود والتمسك بالقديم وحده، بل هم فى الحقيقة من اصحاب التحديث الذين ينطلقون فى تكوينهم الثقافى من تراثنا القديم بعد استبعاد الغث، والذى لامعنى له من بعض النصوص فتكون هذه النصوص القديمة أول خيط من خيوط تكوين الشخصية الإسلامية، هذا بالإضافة إلى نصوص القرآن والحديث، لأن لها باعاً طويلاً فى تأسيس الهوية الثقافية للمسلم . وحينما يتسلح المسلمون بهذه الأدوات الأولية فى مسيرة تكوينهم الثقافى والعلمى فإنهم يكونون بذلك محصنين ضد الغزو الثقافى الأجنبى المندفع فى موجة تغريب بالغة الخطورة والتدمير لثقافتنا ولمعتقداتنا ، ونحن نتساءل لماذا يفعل هؤلاء هذا؟ لماذا يصرون على استبعاد هويتنا الثقافية الإسلامية إذ ما الذى يضيرهم من أن نتسلح بهذه الثقافة ثم ننطلق منها إلى الثقافة الغربية لكى نتفهمها ونقبل منها ما يتفق مع عاداتنا وتقاليدنا ومعتقداتنا الدينية، وأهم من هذا نبذ كل ما لايتفق مع أخلاقنا الإسلامية فلا نفرط أبداً فى قيمنا الأخلاقية والمعنوية، هذه القيم التى كان الغرب يعتبرها قيماً مثالية بل هى قيم مطلقة يقدسها كل إنسان على وجه البسيطة، ولكننا نجد أن التقدم التكنولوجى الغربى الحديث قد أسرع فى إيقاعاته نحو الهدف المادى مهملاً إيقاعات القيم، هذه الإيقاعات التى تتزد فى حركة بطيئة واقل أنتشاراً وسرعة من إيقاعات الحركة المادية التكنولوجية ، وهذا ما يسمى بالفجوة الثقافية التى اكتشفها العالم الاجتماعى "أوجبرن" ، وهكذا نرى أن المجتمع الغربى يمتلئ بأصناف لاحصر لها من الفساد الأخلاقى وانهيار الذمم ، وذيوع ظلم الضعفاء، ونهب ثروات الفقراء من غير شعوبهم ، و هو يستند فى كل ما يصنع وما يستخدمه من أساليب القوة والغطرسة والسياسة المنافقة والسيطرة، يستند إلى

دعوى لا أخلاقية، وهى تدور حول تحقيق المصالح والمنافع والاهداف الحيوية الخاصة بها بقطع النظر عن مبادئ الأخلاق أو الانصياع لحكم العقل .

إذن فدعاة التغريب الذين يتصدون لتيارات الثقافة الإسلامية ولشعوب الإسلام بصفة عامة والذين يريدون منها أن تلحق بركاب الغرب، إنما يقصدون من وراء ذلك ان يتخلوا عن عقائدهم تماماً وعن تقاليدهم، وأفكارهم المستمدة من الدين والتراث، وأن يشجعوا الشباب على الانضمام اليهم رغبة منهم فى أن ينزلق إلى اللهو والمجون وإهمال كل ما هو روحى، وبذلك يكون الشباب أداة طيعة فى أيديهم باسم ما يسمونه "بالعلمانية" وهم ورثة الملاحدة الماركسيين كما ذكرنا ، وهؤلاء يشكلون مجموع الحاقدين على الإسلام وحضارته باسم العقل والحرية، وينبرى أساطينهم فى المنافسة على بث سمومهم كلما سنحت لهم الفرصة، وفى تكتل عجيب تترامى أصداؤه إلى بعيد فيتصور الناس أنهم هم الذين يمثلون أغلبية هذا الشعب، والحقيقة أنهم إنما يعدون أقلية محدودة ضئيلة لا وزن لها فى هذا الشعب، إذا أن خمسة وتسعين فى المائة من الشعب الطيب مسلمين وأقباط يرفضون تماماً النزعات الإلحادية ويتمسكون بأديانهم ولايقبلون ادعاءآتهم الكاذبة البعيدة عن الحق، فهنا مهبط الأديان، وهنا تتمثل مسيرة الأنبياء الكبرى، ومهما علاً صراخهم، وازداد ضجيجهم بتشجيع من وسائل الأعلام المضللة والمنحرفة والتى يهمها أن يظل هذا الشعب فى زمرة أهل الكهف، فلا يستيقظ أبداً حتى يمكن لآلهة الحكم إحكام القبضة على رقاب الناس فى قوة وسلاسة ، وتسيير دفة الأمور بدون خوف أو وجل، مع الحفاظ على عدم إقلاق أو إزعاج الأكثرية الصامتة، وإنقاذها من ثباتها العميق لأن جبابرة الحكام إنما ينتفعون كثيراً من وراء تعمية الكثرة الغالبة من الشعوب حتى يزعموا للعالم أنهم يتوخون النظام الديمقراطى فى الحكم ، مع أنه شكل مظهرى

إذ لايتقدم للتصويت فى الانتخابات على الحقيقة أكثر من خمسة فى المائة من أى شعب من هذه الشعوب النامية، فكيف إذن يقال إن هذه نظم ديمقراطية؟

٢ ـ وإذا كانت الحضارة الغربية تشيع فيها الحرية بكل صورها، ونقصد بها حرية الإرادة للفرد وللجماعة، وكذلك ترتكز حياتها بكل صورها على أساس من العقل والفكر العلمى، فأحرى بنا أن نتلمس فى تراثنا مسار هاذين المبدأين فى تاريخ الحياة الإسلامية، وأقصد فى مسار الإسلام عقيدة وشريعة ، وليس فى مجال التطبيق الإسلامى لهما، وقد سبق لنا أن ذكرنا أنه يجب التمييز بين مبادئ الإسلام وبين تطبيق المسلمين لهذه المبادئ، إذ أن هذا التطبيق لا يحسب على الإسلام ومبادئه، بل هو راجع إلى المسلمين أنفسهم كبشر يسلكون مسلك الخير أو مسلك الشر فى حياتهم وفى معاملاتهم بحسب التزامهم أو عدم إلتزامهم بمعايير الإسلام الكبرى، وقيمه الحقة واجتهادات فقهائه وعلمائه المطابقة لهذه المبادئ .

وعلى هذا النحو فإننا يجب أن نتحرى التيارات الإسلامية التى تستخدم العقل وحرية الإرادة معاً ، والتى يتطابق فيها العقل مع النقل فيكون لدينا معيار من ثلاث شعب هى: العقيدة والشريعة كطرف أول، ثم الحرية كطرف ثانى، ثم العقل كطرف ثالث، وهذا يعنى أننا هنا إنما نلتزم بموقف ابن رشد العقلى فى محاولة توفيقه بين العقل والنقل فى كتابه عن "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال " هذا الكتاب الذى تأثر به "اسبينوزا " فى العصر الحديث كل التأثر ، وجاء ذلك فى خضم الحضارة الاسلامية، فى صورة ما أسماه بمقال

فى اللاهوت والسياسة[1].

لنترسم خطى هذا التيار العقلى العظيم وسنجد ان أعظم الدعاة لهذا الاتجاه القائم على التمسك بالعقل والحرية ليس فى شئون الدين فحسب، بل أيضاً فى شئون الحياة الإسلامية، ذلك أن عقائد المعتزلة هى التى تمثل هذا التيار الذى رسمه رجال يبدءون من "واصل بن عطاء" ، وينتهون عند "القاضى عبد الجبار" .

وينبغى لنا أن نترسم خطاهم، وأن تبدأ حركة إيقاظ الأمة الإسلامية وإحياء تراثها وإقامة هياكلها الحيوية، ومؤسساتها المعاصرة من أفكار حركة الاعتزال التى تصلح للتطبيق الحديث بصورة لامثيل لها ، وذلك حتى لانبدأ من فراغ، وحتى لانكون ناقلين عن الغرب فتضيع هويتنا ، وتنهار أخلاقياتنا ومعنوياتنا، ويمكن لنا أن نستعين بأهم ما امتازت به الحضارة الغربية من مفاهيم لاتتعارض مع قيمنا ، وحتى يمكن لنا الاستعانة بها فى انطلاقتنا نحو التقدم والحضارة والتنوير، ولسنا ببعدين عما فعلته اليابان، وتفعله الصين، أو تفعله دول جنوب شرق آسيا التى أخذت الكثير عن الغرب، ولكنها لاتسمح بفقدان هويتها المميزة ، وأجدر بنا ونحن أصحاب حضارة إسلامية عظيمة نقل عنها الغرب وأقام حضارته على أساسها ، أجدر بنا أن لانتخلى مطلقاً عن الينابيع الأولى المطهرة التى انبثقت منها حضارتنا فى عصر الازدهار .

٣ ــ واذا كنا نريد أن نُحيى حركة الاعتزال ، فينبغى لنا أن نعرض فى سطور قليلة للمبادئ العامة للحركة الاعتزالية، ذلك أن الكثير من الكتاب

---

(١) راجع اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة ، ترجمة حسن حنفى ، دار وهران للنشر، القاهرة بدون تاريخ .

يتأرجحون بين موقف الاعتزال، وموقف الأشعرية فى توصيفهم لما يسمونه بحركة التنوير المعاصرة. وهذا هو الذى يحدث حينما يتعرضون لموقف الأفغانى، ومحمد إقبال، والكواكبى ومحمد عبده، ومصطفى عبد الرازق ، ومن قبلهم مبارك ، ورفاعة الطهطاوى وغيرهم .

ينبغى اذن أن نتعرف على هذه الحركة العقلانية منذ بزوغها إلى أن اكتملت وسنرى كيف أن حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة تتطلب هذا العمل.

المعتزلة وتاريخهم :

١ ـ إذا كان الغرب يستند فى حضارته وأصولها المعنوية إلى اليونان، ومن بين هذه الأمور الفكر السياسى المتمثل فى الديمقراطية الأثينية ، فإننا ينبغى لنا أن نشخص بأبصارنا إلى الينبوع الأصلى للفكر السياسى للإسلام فلا ننحيه جانباً، رغم ان الغالبية العظمى من المسلمين يميلون إلى تتبع الأصول الإسلامية للنظام السياسى فى الإسلام فى مضمونها الحقيقى مع تلمس الشكل أو المظهر المتكامل عند الغربيين .

وعلى هذا النحو فلا يمكن أن نقبل النقد الموجه إلينا من دعاة الهدم والتخريب الذين يريدون أن يقضوا على البنيان الشامخ للدولة الإسلامية. ومؤسساتها العظيمة والتى أرست دعائمها حضارة اهتزت لها نفوس البشر قاصيهم ودانيهم، ولهذا فنحن نتمسك بأن تكون المبادئ الإسلامية هى نقطة انطلاقنا إلى أى نظام سياسى عالمى مهما تحقق له من نجاح فى مجال التطبيق. يجب أن نتوجه إلى تكريس آراء المعتزلة وعقائدها لخدمة ما نسميه حديثاً بالديمقراطية فى الإسلام .

ويبدو أن عقائد المعتزلة لم تتبلور فى صورتها المعروفة على هيئة أصول خمسة ، إلا على يد رجال الطبقة الوسطى منهم ، وفى مرحلة الانتقال من الدور الأول لحركة علم الكلام إلى الدور الثانى حيث لم تكن قد تشعبت مباحثها فيما بعد وأصبح لكل من زعمائها بعض الآراء الخاصة، بالإضافة إلى المبادئ العامة لحركة الاعتزال ألا وهى الأصول الخمسة المعروفة لديهم .

وعلى أية حال فإن المعتزلة قد حددوا أصولهم فى فترة زمنية شهدت نشاطاً سياسياً واسعاً ، وتتمثل فى نهايات القرن الأول الهجرى وبدايات ومنتصف القرن الثانى للهجرة ، وكان هناك صراع فكرى يتمثل فى مواجهات الخوارج والشيعة ضد الأمويين الذين أُعتبروا فى نظر هؤلاء مغتصبين للخلافة، وبالإضافة إلى هذا الصراع المرير الذى كان موجهاً إلى دولة الأمويين، فإننا أيضاً نجد قيام حركات مسلحة ضدهم اشترك فيها أتباع "الجهم بن صفوان" فى الصراع الدائر حول حرية الإنسان والجبر المفروض عليه، وفى غمار هذا الجو المليئ بالصراعات الفكرية والعقائدية، عمل المعتزلة على صيانة مبادئهم الخمس ليواجهوا بها خطورة الحكم الأموى، وسُموا ايضاً بالقَدْرية بمعنى أن العبد كما يقررون فى مقدوره أن يقوم بأعماله بحرية وليس لله التدخل فيها، الأمر الذى جلب عليهم سخط الدولة الأموية . لأن الله فى نظر الأمويين له الحاكمية وهو الذى يسير الأمور ويفرض على الناس كل شئ ، وينبغى عليهم الخضوع لإرادة الحاكم الذى يعتبر حاكماً مطلقا، وهكذا تظهر خطورة أفكار المعتزلة على سياسة الأمويين حيث أن معيار هذه السياسة الاعتزالية الأساسى هو العقل الذى يميز به الإنسان بين الخير والشر، بين الحسن والقبيح مستعيناً فى ذلك بإرادة حرة لاتخضع لأى سلطة زمنية، أو لاهوتية ، أو نصية؛ بينما يتمسك الأمويون بنظرية الجبر وإملاء الإرادة التى هى مشيئة الحاكم المستمدة من المشيئة الألهية،

وهكذا نجد أن الأنسان المعتزلى يصبح إنساناً يكتشف هويته الحقيقة فى مواجهة الجبر الأموى، ومن هنا نرى أن فكرة الحرية الآعتزالية لاتتخذ مفهوماً دينياً فحسب، بل تكتسب عند المعتزلة مدلولاً سياسياً يتخطى المدلول الأخلاقى ، وهكذا يمكن تفسير الحركة المضادة للمعتزلة ووصفها لهم بأنهم يجعلون مع الله إلهاً آخر هو العقل، وأنهم يتحررون فى تفكيرهم من أسر النصوص والأئمة، الأمر الذى يكاد يخرجهم فى نظر أعدائهم من دائرة أهل السنة، وكذلك كل من ركن إلى الطريقة الوسطى الأشعرية والتى غاب عنها الوضوح الفكرى و لم تُفلح فى أن تكون همزة وصل حقيقية بين أهل السنة بالمعنى الخاص وبين المعتزلة .

وقد لجأ المعتزلة إلى التخفى تجنباً للاضهاد، وأقاموا حلقاتهم الفكرية ومدارسهم فى مزارع خاصة بهم بعيداً عن المدن وأعين الشرطة. إلا أن شيوخ الحركة قد خاضوا بهذا التنظيم السرى المعتزلى فى صراعات سياسية ضد الكثير من الفرق التى استهدفت غايات سياسية، ومن هذه الفرق فرقة "الثنوية" الفارسية التى تصدت لها المعتزلة فى مرحلتها الأولى بالجدل والمناظرة ثم بالتصدى بالسلاح فيما بعد .

ولما كانت عقائد المعتزلة قد انحصرت فى دائرة مبادئها الخمسة لهذا ينبغى أن نتناول بالدراسة هذه المبادئ الخمس لكى نلقى ضوءاً كاشفاً على الفكر الاعتزالى، ونتلمس ما يفيدُنا منه فى حركة الإحياء المعاصرة .

وهذه المبادئ هى: التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

١ ـ التوحيد :

والأمر الذى لاشك فيه أن هذه الأصول الخمس تترابط فيما بينها وتنبع من أصلين هامين هما التوحيد، والعدل، بل إن سائر أصول المعتزلة إنما ترجع إلى التوحيد[1]. وقد دافع المعتزلة عن وحدانية الله رداً على المجوسية القائلين بإلهين ، فالله عند أصحاب حركة الاعتزال موجود "قديم" واحد لاشريك له، وبذلك هم يرفضون ما تزعمه "الدهرية" الذين ينكرون وجود الصانع أى الله، وبذلك يقفون موقف المعارض للفكر المادى، ولكل مايقوله أصحاب المادية الجدلية ومعتنقى أفكار التطور عند "دارون" و "لامارك"، وكذلك كل من يقول بالخلق الذاتى، أى بإمكان خلق الحى مما هو غير حى بدون تدخل القدرة الإلهية كعلة أولى للخلق والإيجاد .

وأثبت المعتزلة إلى جوار الوحدة العددية للألوهية، تمسكهم بوحدة الذات الإلهية، بحيث تشكل الصفات الألهية والذات الإلهية أمراً واحداً لاتعدد فيه، وكذلك فهم أيضاً يرفضون إجراء القسمة على الذات الألهية ، كما ينفون الصفات الزائده عن الذات، ولذلك سماهم البعض "بالمعطلة"؛ وتقول المعتزلة أيضاً بأن الله عالم بذاته لابعلم زائد على الذات وقادر "بذاته لابقدرة زائدة على الذات، وكذلك فقد نزهوا الله عن التشبيه بصفات الإنسان، ولهذا فهم يؤولون جميع آيات التشبيه وينكرون رؤية[2] الله حتى فى الآخرة، لأنها تؤدى

---

(١) راجع شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ــ التوحيد من ص ١٤٩ : ص ٢٩٨ .

(٢) أعتبر المشبهة أن الآية التى تقول ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ البقرة آية (٥٥) أعتبروها دلالة على رؤية الله رؤية ظاهرية، فرد عليهم القاضى عبد الجبار بدليل عقلى مفاده ان الإيمان لايمكن ان يكون مساومة بين العبد وربه، فليس لأمة محمد أن ـ

إلى التشبيه إذ كيف ترى الباصرة رزحاً مطلقاً .

وسنتناول هذه القضايا المتفرعة من مبحث التوحيد بالدراسة والتحليل .

يوجز الاشعرى آراء المعتزلة فى التوحيد فيقول " إنهم قالوا : انه واحد ليس كمثله شئ ، وليس بجسم ولاشبح، ولاجثة ولاصورة، ولالحم ولادم ، ولاشخص ولاجوهر، ولاعرض، ولابذى لون ولاطعم، ولارائحة ، ولامجسة، ولابذى حرارة ولابرودة، ولارطوبة ولايبوسة، ولاطول، ولاعرض، ولاعمق، ولااجتماع، ولا إفتراق، ولايحرك، ولايسكن، ولايتبعض ، وليس بذى أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ، ولابذى يمين وشمال وأمام وخلف ، وفوق وتحت، ولايحيط به مكان. ولايجرى عليه زمان ولاتجوز عليه المماسة ولا العزلة، ولا الحلول فى الأماكن، ولايوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدثهم، ولايوصف بأنه متناه، ولايوصف بمساحة، ولاذهاب فى الجهات، وليس بمحدود ولا والد ولامولود، ولاتحيط به الأقدار، ولاتحجبه الاستار، ولاتدركه الحواس ، ولايقاس بالناس، ولايشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولاتجرى عليه الآفات، ولاتحل به العاهات، وكل مايخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له، لم يزل أولاً سابقاً متقدماً للمحدثات ، موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً . ولايزال كذلك لاتراه العيون، ولاتدركه الأبصار، ولاتحيط به الأوهام ولايسمع بالأسماع، شئ لا كالأشياء، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء، وأنه القديم وحده ولاقديم غيره ولا إله

- يشرطوا إيمانهم برؤية ربهم وقد أخبر الله فى كتابه العزيز بأنه سبحانه قد أنزل صاعقة لعقاب لهؤلاء الذين طلبوا هذه الرؤية ونزلت الآية التى تعبر عن رأى المحتجين من بنى أسرائيل على هذا قائلة ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ الاعراف آية (١٥٥) .

سواه ولاشريك له فى ملكه، ولاوزير له فى سلطانه، ولامعين على إنشاء ما أنشأ خلق ما خلق و لم يخلق الخلق على مثال سبق، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر، ولا بأصعب عليه منه، ولايجوز عليه احتزار المنافع ولاتلحقه المضار، ولايناله السرور واللذات ، ولايصل إليه الأذى والآلام ... "[1]

يتضح لنا من تحليل هذا النص أن المعتزلة قد أدركوا أن عامة المسلمين قد اكتفوا بقبول المعنى الظاهر للنصوص القرآنية، وأن مفاهيمهم بهذا الصدد لم تكن لتتخطى مستوى الادراك أو التصور الإنسانى الشائع البسيط، ومن ثم فإن فريقاً منهم قد وقع فى حظيرة التجسيم والتشبيه مع صدق إيمانهم، واكتفى فريق آخر منهم بقبول الآيات الغامضة المتشابهة كما وردت فى التنزيل دون بحث او تعمق، مفوضين الأمر فى ذلك كله إلى الله سبحانه وتعالى، معتقدين ان العقل معزول عن الوحى وأنه قاصر عن إدراك مراميه، ولهذا وجب التسليم به دون جدل أو تأويل .

أما المعتزلة فقد تمسكوا بالقول بأن العقل قادر على فهم النصوص القرآنية واستبطان مرامى الوحى. ولهذا رأوا وجوب تأويل الآيات المتشابهة وإقامة الايمان على أسس عقلية واضحة . ولقد استندوا فى منهج التأويل إلى دليل التنزيه الذى آمن به السلف أيضاً . ولكن السلف وقفوا عند حدوده الدنيا بينما جعل المعتزلة التنزيه نقطة انطلاق إلى التأويل، فإذا كان القرآن يصف الله بأنه "ليس كمثله شئ" فإنه بناء على هذا التوجيه يتعين أن تنفى عن ذاته: الجسميه والجهة والمكانية والزمانية ... إلخ، ومن ثم كان من الضرورى تأويل الآيات

---

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٥٥ طبعة ريتر ، ص ٢١٦ وما بعدها طبعة مصر ١٩٥٠ (شرح قول المعتزلة فى التوحيد وغيره)

الدالة على هذه الأمور، فقول القرآن أن ﴿يد الله فـوق أيديهـم﴾[٢] أو ﴿وهـو القاهر فوق عباده ﴾[١] أو ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[٢] إنما تفسر على أنـه تعالى مسيطر ومتسلط علـى خلقـه ولـه السـلطان المطلـق فـى الكـون، لا علـى الصورة الملكية البشرية ، بل بصورة إلهية لانـدرك حقيقتهـا، وتنتفـى معهـا كـل آثار الجهة والجسمية.

ويستدل المعتزلة على أنه تعـالى ليـس بجسـم بقولهـم : إن كـل جسـم انمـا يحتاج إلى الأعراض كالطول والعرض والجهة، وهذه كلها حوادث ، فما يحتـاج إلى الحوادث يعتبر حادثاً والله غير حادث، إذ هو قديم أزلى، ومن ثم فهو ليـس بجسم ويجب لهذا تأويل كل الآيات التى تشعر بالجسمية بالنسـبة لله، فـلا يقـال إنه يمكن رؤية الله بالأبصار، لأن المرئى لابد من أن تكون له جهـة، وأن يكـون فى الضوء، وأن يكون له لون، والله لايتعلق به شئ من هذا ، فهو إذن لاتدركه الابصـار. وقـد جـاء فـى الذكـر الحكيـم : ﴿ لاتدركـه الأبصـار وهـو يـدرك الأبصار﴾[٣] وإنما تتم رؤيته تعالى بالقلب لا بالبصر[٤] .

ومن ناحية الصفات قالت المعتزلة : إن القرآن يحصر صفات الله فى سـبع هى : العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ولكن توجد من بينها ثلاث صفات إيجابيـة لفظاً ومعنـى هـى : الإرادة والقـدرة والعلـم ، وقـد كانت مدار أبحاثهم الرئيسـية فـى التوحيـد . وقـد رأوا أن ذات الله لايمكـن أن

---

(٢) آية ١٠م –س الفتح ٤٨ .

(١) آية ١٨ ك – س الأنعام ٦ .

(٢) آية ٥ ك – س طه ٢٠ .

(٣) آية ١٠٣ك – س الأنعام ٦.

(٤) نهاية الإقدام للشهرستانى ص ٢١٥.

تكون مركبة من إجتماع أمور كثيرة إذ المركب محتاج إلى غيره، والله تعالى منزه عن الافتقار إلى الغير فذاته أحدية فردية .

ولكن كيف يتم تصور أحدية الذات مع وجود الصفات؟ انتهى المعتزلة إلى القول بأن ذات الله وصفاته شئ واحد ، فالله حى عالم قادر بذاته لابعلم ولاقدرة وحياة زائدة على ذاته، إذ لوكانت الصفات زائدة عن الذات لكانت هناك صفة وموصوف وحامل ومحمول، وهذا هو حال الأجسام، والله منزه عن الجسمية ، ولو كانت الصفات قائمة بذاتها لتعددت القدماء فى الذات الإلهية أى لتعددت الآلهة، وهذا شرك صريح . وقد أثار المعتزلة مشكلات تتعلق بالصفات ، منها البحث فى قدرة الله عموماً وعلاقتها بالمقدور، ثم قدرة الله على الظلم، وعلى إفناء الخلدين، وفعل الصلاح والأصلح لعباده .

فمن حيث تعلق القدرة القديمة بالمحدثات المتغيرة، وكيف أنها توجدها من عدم، فقد تساءلوا عن المرجح لإيجاد هذه المحدثات فى زمان دون آخر ، وعن كيفية علم الله الثابت بالمتغيرات وهو غير متغير، وانتهوا فى هذه المسائل إلى إثبات أن علم الله ثابت مستمر لايتغير، وإنما المعلومات هى التى تتغير بحسب الزمان والمكان، بينما لاتنفعل القدرة الإلهية فى بالزمان والمكان لأنه لايمكن قياسها بالقدرة الإنسانية .

وفيما يختص بالقضايا الآخرى التى آثارها المعتزلة حول قدرة الله على الظلم أو إفناء الخلدين .. فقد قالوا : إن الظلم والكذب لايقعان إلا من جسم ذى آفة، والله منزه عن الجسمية، وإذن فهو لايقدر على ظلم عباده أو على افناء الجنة والنار مادام قد أخبر بذلك ، وكانت أفعاله تجرى وفق قوانين معقولة لايمكن له أن يغفلها .

٢ ـ العدل الالهى[1] :

المعتزلة هم أهل العدل والتوحيد ، وليس هناك مسلم أياً كانت دعواه لايؤمن بالعدل الإلهى، ولكن الفضل يعزى إلى المعتزلة فى تعميق مفاهيم المسلمين عن العدالة الإلهية استجابة لدواعى العقل والمنطق، فهم فى هذه المسألة مثلهم فى مسألة التوحيد يتسمكون بدعوى العقل، وبضرورة قضاياه، ويغفلون أمراً هاماً طالما أو قعهم فى تناقض صريح مع أنفسهم، ذلك أنهم بينما يرفضون النظر إلى الذات الإلهية على المستوى الانسانى من حيث الجوهر والطبيعة، نجدهم من ناحية آخرى يخضعون القدرة الإلهية لموازين المنطق العقلى الانسانى، ويتصورون أن ثمت حتمية عقلية يخضع لها الفعل الإلهى، فكيف يمكن للعقل الانسانى بمنطقه المحدود أن يدرك المنطق الإلهى وأقضيته، ونحن عاجزون عن تتبع الأسباب الحقيقية لأفعالنا الإنسانية المحدوده ؟!

وعلى أية حال فإن المعتزلة كما حكموا العقل فى مسألة التوحيد، نراهم يفعلون نفس الشئ فى مسألة العدل الألهى. فهم يرون أن العدل من صفات الله، أما الظلم والجور فهما منفيان عنه تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد﴾[2] ، ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[3] .

وقد رتبوا مباحثهم فى "العدل" فى جملة قضايا منها : أن الله يسير بالخلق إلى غاية، وهو تعالى يريد خير ما يكون لخلقه، وهو لايريد الشر لهم ولا يأمر به، وهو كذلك لم يخلق أفعال العباد لاخيراً ولا شراً ، ومن ثم فإرادة الإنسان

---

(١) راجع : شرح الأصول الخمسة .. ص ٢٩٩-٦٠٨.

(٢) آية ٤٦ك -س فصلت ٤١.

(٣) آية ١١٨ك - س النحل ١٦ .

حرة، وهو خالق أفعاله ، ولهذا كان مستحقاً للجزاء (الثواب والعقاب) .

أما أن الله لايفعل إلا لغاية فذلك بيِّن من معرفتنا أن الحكيم لايفعل إلا لحكمة أو غرض، والله سبحانه وتعالى منبع الحكمه وأصلها، وكذلك فإن الحكيم إما أن ينتفع بعلمه أو ينفع به الآخرين، وتقدس الله عن أن ينتفع من خلقه، وإذن فتكون غاية فعله نفع غيره، فكل ما يجرى فى الكون ويحدث فى الطبيعة من ظواهر إنما هو مسير لنفع الإنسان وخدمته[1] .

ولقد تأدت بهم هذه النتيجة إلى القول : **بالصلاح والأصلح، وبالحسن والقبح** العقليين . فلما كان الله يقصد دائماً إلى نفع العباد، فلهذا هو لايقبل إلا ما فيه صلاحهم بل يجب عليه - فى نظر جمهور المعتزلة ـ فعل الأصلح لهم .

وقد رد المعتزلة على المعترضين القائلين بأن أفعال الله ليست معللة بغرض وأنها لوكانت معللة بغرض، لاستحال علينا تفسير مافى العالم من شرور ـ ردوا عليهم بقولهم : إننا لاندعى الإحاطة بأغراض الله[2]، ولكن الذى نؤكده أن مريد الخير خيِّر، وأن مريد الشر شرير، فيكون الفاعل موصوفاً بفعله، وتنزه تعالى أن يكون مريداً للشرور والمعاصى، بل هو مريد لما أمر به من الطاعات أن يكون، غير مريد للفسق والعصيان والكفر أن يكون، أما المباحات فلايريدها ولايكرهها يقول تعالى :﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[3] .

وقد تفرعت من مشكلة العدل الإلهى أيضاً مشكلة إنسانية ـ أشرنا إليها فيما سبق وهى تتعلق بخلق الأفعال أو مشكلة الجبر والاختيار: فهل أعمال العباد

---

(١) نهاية الإقدام ص ٣٩٧ .

(٢) ابن حزم جـ٢ ص ١٦٦ وما بعدها .

(٣) آية ٣١ك- س غافر ٤٠ .

مخلوقة لهم فتكون راجعة إلى اختيارهم المحض، أم أنهـا ترجـع إلى القـدرة الإلهيـة وبذلك ينتفى مبدأ الاختيار ؟

وترجع خطورة هذه المسألة إلى أن نفى حريـة الإرادة إنمـا يجـب المسئولية ويرفع التكليف الشرعى عن الإنسان، وقد جاء فى الذكر الحكيم "اليـوم تجـزى كل نفس بما كسبت﴾[1] ﴿كل نفس بما كسبت رهينـه﴾[2] ﴿إن ا لله لايغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[3] ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾[4] .

ومن الآيات التى اعتبرها المعتزلة فى مقدمة الآيات التى تفسر العدل الالهـى علـى انه يؤكد الحرية الانسانية ومسؤلية الإنســان عـن فعلـه تلـك الأيـة التـى تقـول: ﴿ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[5] .

وعلى هذا فقد انتهى المعتزلة فى بحثهم عن العدل الإلهى إلى أن ا لله عادل، ويقضى عدله بأنه مادام قد كلف الإنسان فلابد أن يجعل له قـدرة وإرادة بحيـث يحدث الإنســان أفعالـه المسئول عنهـا، ولايكـون لله دخـل فـى إتيانهـا فالعبـاد خالقون لأفعالهم على الحقيقة ومخترعون لها ، وليس لله تعـالى فـى أفعـال العبـاد المكتسبة صنع ولاتقدير لابـإيجاد ولابنفى[6] .

أما بالنسبة للأفعال المتـولـدة فـانهـا تضـاف للإنسـان علـى سبيـل المجـاز

---

(١) آية ١٧ك ـس غافر ٤٠.
(٢) آية ٣٨ك- س المدثر ٧٤ .
(٣) آية ١١م – س الرعد ١٣.
(٤) آية ١٢٣م – س النساء ٤ .
(٥) البقرة آية ١٩٥ .
(٦) الفرق بين الفرق ص ٩٤.

ولايحاسب عليها اذا كان لايستهدف الشر أو الخطأ[1] .

ويرى المعتزلة أن القول بحرية الفعل الإنساني يبرر التكليف الشرعى والوعد والوعيد وإرسال الرسل، وينفى الظلم عن ا لله .

ولما كانت ثمت آيات يشعر ظاهرها بالجبر ولهذا فقد عمد المعتزلة إلى تأويلها للدفاع عن مذهب الاختيار، فتأولوا ماورد فى هذا الشأن من الختم والطبع . مثل قوله تعالى ﴿ ختم ا لله على قلوبهم ﴾[2] ﴿ بل طبع ا لله عليها بكفرهم ﴾[3] .

وسيكون على ابن رشد[4] أن يجد حلاً لهذه المشكلة قد يراه البعض غير موفق. فهو يرى أننا إذا نظرنا إلى الأسباب الخارجية قلنا إن الإنسان مجبر، وإذا نظرنا إلى الإرادة وحدها فى نطاق فعلها المحدود قلنا إن الإنسان مختار.

ومما يتصل بمسألة العدل الإلهى موضوع يتعلق بدراسة القيم، وهو موضوع الحسن والقبح، ويرى المعتزلة أنهما ذاتيان عقليان، فليس الكذب والشر والسرقة والقتل شروراً لأن الشرع نهى عنهما، بل هى كذلك شرور فى ذاتها ، ويجب على العاقل المكلف أن يعرف ذلك قبل نزول الوحى فهو مكلف بشكر المنعم ومكلف بمكارم الأخلاق ولو لم يصله شرع . والشرع مجرد مخبر عن هذه الأمور لامثبت لها والعقل مدرك لها لا منشئ ، والقول بغير ذلك غير سليم، ذلك أن طوائف البشر على اختلاف أجناسهم كانوا يحتكمون إلى العقل

---

(١) مقالات الاسلاميين جـ٢ ص ٦١.

(٢) ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ آية ٧م-س البقره ٢ .

(٣) آية ١٥٥ م - س النساء ٤ .

(٤) مناهج الأدلة ص ١٠٧.

قبل ورود الشرائع، ولولا ذلك لما استقام للرسل أمر نشر رسالاتهم إذ أنهم يدعون الناس إلى النظر إلى الاشياء بعقولهم لتتكشف لهم حقائق الدين والألوهية.

وأخيراً فانه إذا لم يكن الحسن والقبح ذاتيين، كان معنى هذا إبطال القياس الفقهى، واستحالة إعمال العقل فى المسائل التى لم يرد فيها نص .

٣ ـ المنزلة بين المنزلتين:

عرف المعتزلة بأنهم أصحاب القول بالمنزلة بين المنزلتين وربما كان هذا القول سبب اعتزالهم، ومضمون هذا الأصل هو أن مرتكب الكبيرة فاسق، وهو فى منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان.

وقد عرفوا الإيمان بأنه معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، وأن كل عمل ـ فرضاً كان أو نقلاً ـ إنما يدخل تحت الإيمان ، وكلما ازداد الإنسان خيراً ، ازداد إيماناً وكلما عصى نقص إيمانه[1] . لقد جعل المعتزلة للفسق منزلة ثالثة منفصلة عن منزلتى الإيمان والكفر وقالوا بأنه وسط بينهما ، وقد تعددت الأقوال فى أصل هذا المبدأ، فالبعض قال بأن المعتزلة أخذوا هذا المبدأ عن أصول إسلامية كالآية التى تقول ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾[2] وحديث الرسول ﷺ " خير الأمور

---

(١) ابن حزم جـ٣ ص ١٨ ولكن من الكبائر ما يصل إلى حد الكفر مثل تشبيه الله بخلقه ونسبة الجور اليه تعالى أو تكذيبه فى خبر .

(٢) البقرة آية ١٣٧.

أوساطها"[1] .

وقد قرأ المعتزله الفلسفة اليونانية وعرفوا ما يطلق عليه الفلاسفة "بالوسط الذهبى " عند افلاطون،.وبالوسط العدل عند أرسطو، ولكن الحقيقة انهم لم يستفيدوا كثيراً بهذين التفسيرين اليونانيين لمعنى الوسط، اذ بينما نجد ان الوسط الذهبى عند أفلاطون هو القمة فى الجمال ، وكذلك فان الوسط العدل عند أرسطو إنما يتطابق مع معنى الفضيلة تماماً نجد ان هذا التوسط الذى تنتج عنه منزلة بين منزلتى الكفر والايمان إنما يقصد به الدلالة على الفسق والفجور ومن ثم فهو ينطوى على معنى ابعد ما يكون عن المعنى الذى كان يقصد اليه كل من أفلاطون وأرسطو بقولهما بفكرة الوسط .

وهناك من قال إن أصل هذا المبدأ نشأ عن مسألة الخلافة وذلك عندما رمى المعتزلة الخليفة الأموى الأول "معاوية بن أبى سفيان" بالفسق لأنه كان فى نظرهم مرتكب لكبيرة .

وهناك من يرجع أصل هذا المبدأ إلى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذاين اتخذا موقفاً وسطاً بين أهل السنة والخوارج فيما يختص بمسألة مرتكب الكبيرة، وهل هو كافر أم فاسق؟ وقد تصدى القاضى عبد الجبار للرد على الخوارج الذين قالوا ان الانسان المكلف إما أن يكون مؤمناً، وإما أن يكون كافراً واستندوا إلى هذه الآية ﴿ إنا هديناه السبيل أما شاكراً وإما كفوراً﴾ . فقال القاضى يمكن القول ان الشاكر يصح ان يكون مؤمناً وفاسقا، ويبطل زعم الخوارج استناداً إلى هذه الآية ﴿وهل نجازى إلا الكفور﴾[2] فلا تدل هذه الآية

---

(١) المسعودى "مروج الذهب " دار الأندلس بيروت ، بدون تاريخ جـ٤ ، ص ١٧٢.

(٢) سبأ آية ١٧.

على أن كل ما سوف يعذبهم الله كفار لأن المؤمن سوف يأخذ جزاءه على مابدر منه فإذا كان رأى الخوارج صحيحاً لدل على ان المؤمن كافر ــ اذ لايعذب الا الكافر على ماهو واضح من ظاهر الآية .

٤ ـ الوعد و الوعيد:

العدالة الالهية تقتضى إثابة المطيع ومعاقبة العاصى إن لم يتب، وهذا فى نظرهم أمر محتوم "يجب "[١] على الله أن يفعله، بينما يرد عليهم المعترضون بقولهم: إن ثواب الله فضل وعد به، والعقاب عدل وله العفو عنه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ان الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾[٢] .

ان هذا المبدأ يرتبط ارتباطاً قوياً بمبدأ العدل الإلهى عند المعتزلة فلما كان الله عادلاً فهو يثيب المطيع ويعاقب العاصى فهو القائل ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الإرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[٣] فالعدالة الالهية وضعت حدود ومقاييس بين الكافر والمؤمن، لذلك لم يقبل المعتزلة، ولاسيما القاضى عبد الجبار رأى "المرجئة " تلك الفرقة التى زعمت ان الفاجر يتساوى مع التقى طالما كانا مؤمنين .

ولكن العدل الألهى يقرر انهما لايكونا فى درجة واحدة ﴿لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[٤] ، وكذلك الآيه

---

(١) ان أستعمال المعتزلة لمثل هذا الأسلوب المنفر فى الكلام عن الذات الإلهية قد آثار عليهم ثائرة جمهور المؤمنين متهمين إياهم بعدم التزام آداب الحديث فى تناولهم للأمور الإلهية .

(٢) آية ١١٦م–س النساء ٤ .

(٣) سورة ص آية ٣٨.

(٤) سورة الحشر آية ٢٠ .

التى تقول ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[1] فهذه الآية تبطل زعمهم الذى يساوى بين الصالح والطالح فى الثواب، كما أن ثواب العبد قد يقل أو يتحبط نظراً لما يستحقه من العقاب على فسوقه وكفره تطبيقاً لقوله تعالى ﴿ ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعضٍ أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾[2] .

وقد دافع المعتزلة عن هذا المبدأ دفاعاً جعلهم يقررون ان المخالف فيه كافر منكر للنبوة .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

يقضى هذا المبدأ بمجاهدة كل من خالف حكم الله وأوامره ونواهيه تحقيقاً للآية الكريمة ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ﴾[3] .

وقد رأى جمهور المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يبدأ بالقلب ، ثم يدرج إلى استخدام اللسان أولاً، ثم إستعمال اليد ثانية أى أستخدام القوة ، وقد طبقوا هذا المبدأ إبان محنة خلق القرآن، واعتبروه فرض عين لافرض كفاية، ولكن فريقاً منهم لم يتشدد فى تطبيقه مخافة أن يزجوا بأنفسهم فى غمار حلبة الصراع السياسى. وقالوا : لايصلح له إلا من علم المعروف ونهى عن المنكر وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشره.وقد قالت المعتزلة جميعاً بهذه الأصول ، وأضيفت إليها فيما بعد تفريعات أخرى مثل

---

(١) سورة الجاثية آية ٢١.

(٢) الحجرات آية ٢ .

(٣) آية ١٠٤م س آل عمران ٣.

القول بأن الله لايفعل إلا الأصلح لعباده، وأن أفعاله تتمشى مع الحكمة ، وانه يفعل اللطف والعون لابالنسبة للإنسان فحسب بل للحيوان أيضاً ، وهذا كله مما يدخل فى باب العدل ، وكذلك القول بالخلق، والجزء الذى لايتجزأ .

وهذا المبدأ سائر على جميع المؤمنين ابتداء من السيف فما دونه وذلك على حسب استطاعة القائم به، ويرتكز على أصل سياسى فى جوهره اذ بمقتضاه لابد من الثورة على الحكام الطغاة المستبدين وعزلهم إذا لم يذعنوا للحق .

الإمامة (الخلافة أو نظام الحكم فى الإسلام)

لقد أوضحنا كيف أن الخلافة أو الإمامة هي التي تتولى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة العدل بين الناس، ولما كانت رياسة المجتمع ضرورة من ضرورات التجمع البشرى، لهذا كانت الإمامة أو الخلافة فى الإسلام ضرورية لقيام المجتمع الاسلامى والدولة الإسلامية والحفاظ على استقرار الحياة الإسلامية فى أى قطر اسلامى ، ونحن فى محاولتنا لإحياء حركة الاعتزال إنما نشخص بابصارنا إلى مبادئ الاعتزال العظيمة التى تؤكد لنا أن هناك تطابقاً بين العقل والشرع كما يقول ابن رشد ايضاً فى منهجه العقلى فى "فصل المقال" ، وكذلك فإن هذا التطابق بين العقل والشرع إنما ينطلق بنا إلى مفهوم عام آخر وهو تحقيق النزعة الإنسانية عن طريق الالتزام بمبادئ الإسلام فى حياة البشر، بمعنى أنه مادام العقل يقبل طواعية أصول الإسلام ومبادئه، فان أى شخص يعتنق هذه المبادئ يكون فى نفس الوقت مُنتسباً إلى التيار الإنسانى العالمى الذى يحترم كرامة العقل الإنسانى وحجيته المنطقية فى سائر شئون الدنيا، وهنا يجب أن نعيد أو نكرر ما سبق ان ذكرنا فى بداية تعرضنا لمشكلة "الحاكمية الألهية"، وهو ضرورة مواجهة المعترضين على نظام الإسلام السياسى، أو تدخل المبادئ الإسلامية فى النظام السياسى .. أنه مادامت هذه المبادئ الألهية تلتقى مع المنطق العقلى من أقرب طريق، لهذا فلا يُضير مُعتنقوها ان يتمسكوا بها وأن يصوروها بالشكل العصرى المحدث الذى يريدونه، إذ لايوجد ضغط على إرادتهم لكى يطبقوا هذه المبادئ ، وعلى العكس من ذلك فاذا تحقق هذا الضغط الإلهى فإن كل المعانى الدينية ستسقط إذ لن يكون هناك حشر ولابعث ولا ثواب ولا عقاب ولا حساب بصفة عامة، ولن يُحاسب المذنبون على ما أقترفوا فتختل الموازين ويهتز ميزان العدل الإلهى لاقدر الله .

ولهذا فان المعتزلة قد تمسكوا بشدة بالعقل وحريته .

واذا كان الأمر على هذا النحو أى أن مبادئ حركة الاعتزال قد يسرت لنا الطريق الشرعى غير اللاهوتى الذى يساعدنا على تنظيم أحوالنا، وهو التماس الحل فى كل مشكلات النظر والسلوك فى مبادئ حركة الاعتزال وحرية الإنسان وعقله . إذا كان الأمر على هذا النحو فلماذا نغترب ثقافياً فنستند فى تكوين هياكلنا السياسية على مقولات الغرب وصيغه فى الوقت الذى نشهد فيه رصيداً هائلاً من التراث السياسى الاسلامي عند الفارابى ، والماوردى وغيرهما لعلنا نستجيب لهم وعلى ضوءه نتناول التجربة الغربية بالدراسة فنستفيد منها بأفضل ما فيها مما لايتعارض مع عقيدتنا وثقافتنا وتراثنا ، ينبغى لنا إذن أن نتلمس طريقنا أولاً إلى التعرف على المشكلة الأساسية ، أو حجر الزاوية فى قيام الدولة الإسلامية الا وهى مشكلة الإمامة .

لقد أشرنا إلى أن الأمة قد اتفقت على عدم جواز خلو الأرض من الأمام أو الخليفة أسوة بما فعله أبو بكر الصديق بعد وفاة النبى ﷺ ، وانطلاقاً من هذا المبدأ فقد أجمعت جميع فصائل الشيعة والخوارج والمعتزلة ـــ ماعدا النجدات من الخوارج ـــ على وجوب الإمام الذى يرعى مصالحهم الدينية والدنيوية .

وقد اختلف المسلمون بشأن هذه القضية "الإمامة" ودرات حولها كثير من التساؤلات والجدليات الفقهية والكلامية التى تساءلت عن كون وجوبها شرعاً أم عقلاً؟ أم بكليهما ؟

هناك من أوجبها شرعاً كأهل السنة والمعتزلة عموماً وخاصة القاضى عبد الجبار الذى اعترض على أرآء المخالفين ووجه نقده بصورة خاصة إلى الشيعة الإمامية التى تمسكت بوجوب الإمامة نقلاً .

وهناك من أوجب الإمامة عقلاً كالشيعة، والإسماعيلية، وبعض المعتزلة، ومن اوجبها عقلاً وشرعاً معاً كأبى الحسين الخياط والماوردى من المعتزلة .

لكن غالبية المعتزلة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ قالت بوجوب الإمامة شرعاً ويمثلها قاضيهم الكبير عبد الجبار الذى ذهب إلى أن وظيفة الإمام وظيفة شرعية يراد بها أمور سمعية تستهدف حماية الدين وتنفيذ أحكامه إذ هى "أى الإمامة" أداة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام وتحقيق العدل والموازنة بين مصالح الناس فى دينهم ودنياهم ـ والحاكم الذى يقوم بهذه الأعمال ما هو إلا انسان معرض للوقوع فى الخطأ وفى ذلك إبطال لمبدأ العصمة الذى تقول به الشيعة .

لقد أوجب الفكر السياسى المعتزلى منصب " الإمام" لقيام سلطة يكون العدل من أهم سماتها فترعى مصالح الأمة وتعمل على حفظ بقائها .

وخلاصة القول أن هدف الإمامة عند المعتزله والذى تبلور بصورة واضحة عند القاضى عبد الجبار هو "حراسة الدين وسياسة الدنيا "[(١)] .

وبناء على هذا يكون الإمام زعيماً دينياً من ناحية، وقائداً سياسياً من ناحية أخرى .

---

(١) القاضى : "الإمامة " القسم الأول ص ١٩١ .

الفصل السادس

الإسلام فى مواجهة الغرب المعاصر

مقدمة :

لقد يتبادر إلى الذهن أن بدايات العصر الحديث التى تتواكب مع بزوغ عصر النهضة الأوروبية قد انقضت معها سياسة العسف والاضطهاد ومحاربة المسلمين واجتياح ديارهم كما حدث فى القرون الوسطى، وقد تمثل هذا بصفة خاصة فى الحروب الصليبية فقد ظن البعض أن الغرب قد لُقن درساً على الأقل من الناحية الأخلاقية فى مواجهة الشعوب الإسلامية التى كانت تحمى أرضها وشرفها ومعتقداتها، ولكننا مالبثنا أن وجدنا أن صور هذه الحروب القديمة تظهر بطريقة أو بأخرى فى مواجهة الاستعمار الحديث والتى بلغت أوجها فى الحرب العالمية الأولى، فقد عمدت الدول الغربية خلال استعمارها للدول الإسلامية إلى استخدام أبشع أنواع القهر والضغط والإذلال السياسى والعسكرى على الشعوب الإسلامية، ونجد أمثلة كثيرة على هذا التهور الاستعمارى فى بلاد إسلامية متعددة ... ففى الجزائر مثلاً أُستخدمت سياسة مطاردة البشر واقتناص الإنسان La Chasse a` L'homme للقضاء على مقومات الإسلام والعروبة فى الجزائر وكانت هذه أبشع سياسة استعمارية استخدمها الغرب للقضاء على شعوب المستعمرات، وكما فعل أيضاً الأمريكيون بالشعوب الأصلية فى الامريكتين ، هذا بالإضافة إلى استحلال الغرب لتجارة العبيد وإسترقاق زنوج افريقيا، ونقلهم عنوة من وسط وشرق أفريقيا، وكان الإسلام قد انتشر فى هذه المناطق منذ زمن بعيد، وقد كانت هذه المنطقة الواقعة فى أفريقيا الاستوائية وما حولها شمالاً وجنوباً ـــ أى من دار

السلام إلى غرب أفريقيا ـ كانت تموج بحركات اصطياد عنيفة للزنوج المسلمين بعد ان انتشر الإسلام فيها .

وتعطينا رواية الجذور Roots الأمريكية وصفاً لمأساة استرقاق الزنوج المسلمين ، وكيف أن تجار النخاسة الأوروبيين قد تنصلوا من تهمة هذه التجارة، وانتزاع الأطفال والرجال وألصقوها بالعرب المسلمين وبالذات بفرسان مملكة زنزبار .

والأمر الذى لاشك فيه أن مسار حركة تجارة الرقيق ابتداء من شرق أفريقيا، إنما يدل على أن العرب هم وحدهم الذين تقدموا جميع الرحالة الأوّربيين فى الكشف عن هذه المناطق الجديدة بدليل استقرار الحكم فيها ، وقد ساعد هذا الاستقرار على أن يتولى المصريون إدارة مناطق أفريقيا الاستوائية فيما بعد .

وحينما ضعفت أحوال مصر الاقتصادية فى أواخر عصر إسماعيل استولى المستعمرون على هذه المستعمرات الأفريقية الجاهزة، وادعوا أنهم هم الذين كشفوها لأول مرة ولهم الحق كما يزعمون فى أن يضعوا لها أسماءً إنجليزية مثل بحيرة فيكتوريا، ونيل، فيكتوريا، ومارشيزون، واستانلى ... إلخ ، وعلى الرغم من القيود الحديدية التى فرضها المستعمر على هذه الشعوب التى تعيشها فى أفريقيا إلا أنه سرعان ما انتشر بينها شعور قوى يدفع بها إلى التجمع أو الوحدة أو الأرتباط سواء كان إسلامياً أو أفريقياً .

ويبدوا أن الوضع الثقافى والدينى لأفريقيا لم يكن مستقراً إلى حد كبير، وذلك كأثر من آثار حركة التبشير المسيحى، إذ أن تنوع الثقافات الدينيه والسياسية والشعبية قد آذن بانفتاح جديد على الغرب وحضارته، لاسيما وأن

حركات التبشير المسيحى كانت تتوجه إلى البدائيين وإلى المسلمين على حد سواء مستخدمة فى ذلك عوامل القهر والإذلال للشعوب العربية والغواية بالمال والبترول .

وقد أدرك العقلاء من الطرفين "المسلمون والمسيحيون " .

أنه لايمكن لهم أن يتعايشوا سلمياً فى أفريقيا أو فى أسيا بدون تآلف اجتماعى وأخلاقى حتى تشيع روح الألفة والمحبة والتكافل بين الشعبين ، وقد ظل المسلمون فى ظروف القهر الاستعمارى البالغة السوء أكثر استمساكاً بعقيدتهم فى مواجهة ظروف اقتصادية بالغة السوء، إذ بينما كان الغرب يلوح بثرواته الضخمة ويغرى الأخرين بمكانته الاقتصادية الكبيرة، فى ايامنا هذه، نجد أن معظم الشعوب الإسلامية كانت ترسخ فى سلاسل الفقر والعبودية فضلاً عن استسلامها المشين فى مواجهة الغزو الثقافى الغربى وفى تقاعسها فى الدفاع عن الشعوب الإسلامية إزاء السيطرة الاقتصادية للمجموعات الأوربية وحرمان شعوبها من حرية الاستمتاع بثرواتها سواء كانت عن طريق البترول أو غير ذلك، إذ إن هذه الثروات كلها أصبحت تخضع للسيطرة الأجنبية بطريقة أو بأخرى.

وهناك عوامل عدة نستيطيع أن نعرضها فى هذا المجال فى محاولة جادة للأخذ بيد الجماعة الإسلامية عن طريق استقطاب التجمعات الشعبية اليقظة للقيام بدورها فى عملية التكامل اذا كان هذا الأمر ضرورياً لازدهار وحدة العمل العربى والإسلامى فى مواجهة هذا العداء الغربى الصريح لكل ما يعطى دفعة قوية لحركة الإحياء الإسلامى والعربى بعيداً عن أى تدخلات اقتصادية أو عرقية مُريبة .

ينبغى إذن أن نعرض لهذه الظاهرة ، وتتمثل فى عداء الغرب للإسلام ويجب الوقوف عندها لتحليلها علمياً بالاستناد إلى الظروف المحلية والعالمية .

ويمكن حصر أسباب العداء فيما يلى :

١ ـ التفكك الاستراتيجى العالمى بعد إنهيار الاتحاد السوفيتى ، اذ يبدو أنه قد تكشفت لنا صحة مقولة التوازن الدولى بعد ان توقفت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربى والشرقى، فهل يعنى هذا أن النظرية القائلة بوجود قوة عالمية واحدة هى الولايات المتحدة مثلاً تعد نظرية باطلة ؟ أو بمعنى آخر أن العالم لايستطيع أن يعيش فى ظل فراغ إيديولوجى كما يحدث الآن، فكان لابد إذن أن يحاول مفكروا الغرب ومُثقفوه ان يقوم بينهم حوار حول الآراء التى يعتنقوها، وأن تتفتق أذهانهم عن طرف آخر يتمثل فيه المكافئ الجديد لعملية الصراع السياسى الدولى، أى طرف التوازن الذى سيواجه الولايات المتحدة ودول الغرب، ويجسم لهم صورة العدو الجديد الذى عليهم أن يقفوا بالمرصاد .

ويبدو أن ثمة عوامل شتى قد دفعت بالفكر الغربى المعاصر إلى الوقوع فى هذا الخطأ ومحاولة توهم ضرورة وجود عدو مواجه للغرب تحدد فى نظرهم فى صورة الإسلام كدين وكحضارة، ولكن الإسلام الحقيقى لايسمح لمبادئه بأن تقف حجر عسرة فى مواجهة الازدهار الحضارى الغربى ولاسيما فى الجانب التكنولوجى . وكذلك أيضاً فى الجانب الفكرى والمعنوى اذ ينبغى على المسلمين -كما سبق أن ذكرنا- ألا يضعوا فواصل بين الإسلام كحضارة وإنجازات الغرب الحضارية التى نُسهم نحن فيها عن كثب. يبدو إذن أن ثمة مغالطة كبرى تتحكم فى إزكاء روح

العداء والفتنة بين الغرب والإسلام ، وربما كان للصهيونية العالمية اليد الطولى من هذه الناحية، فقد عملت على تشويه سمعة المسلمين وإظهار نواياهم الكذبة "في نظرهم" والمدمرة للعالم العربى والإسلامى، وكلنا يعرف كيف أن إسرائيل هى التى زرعت الشر فى قلب العالم العربى والاسلامى، وعملت على استغلال هذه الشعوب وتشويه أفكارها .

وقد ساعد على ذيوع هذه الفكرة أى فكرة عداء الغرب للإسلام.. إمتلاك المسلمين والعرب بصفة خاصة لمعظم منجزات ومستخرجات البترول وكيف أنهم أدركوا إمكانية الخروج بها من مكمنها ، بحيث أصبح حفنة من العرب يمثلون أكبر أثرياء العالم، وقد صاحب هذا ايضاً ظهور تكتلات سياسية واقتصادية متناحرة بينهم .

٢ ـ وأهم هذه التكتلات الإقتصادية، هو الذى يجمع بين شعوب غرب أوروبا، ثم الذى يجمع بين أمريكا وكندا والمكسيك ، ثم شعوب جنوب شرق أسيا، ثم اتفاقية الجات العالمية التى تجمع بين شعوب العالم كله .

هذه التكتلات الاقتصادية كان لها أثرها فى وضع القيود حول التجارة العالمية .. الأمر الذى كان له أثره عند دول العالم الثالث وفيها الكثير من المسلمين فأصبحت إتفاقية السوق الأوروبية المشتركة سوط عذاب على الشعوب التى تمارس فيها أنشطتها .

٣ ـ على أن الأمر الأكثر خطورة فى هذا الشأن إنما يرجع إلى استفحال النزعة المادية والتكنولوجية مما يكون له أثره فى تراجع واندحار النزعات الروحية والإيمانية، أى أن العلم الغربى والتكنولوجيا الغربية قد تسببا فى العمل على

ضحالة النزعة الايمانية، وأصبحت القوة الأقتصادية هي المعبود الذى تُقدم إليه القرابين فى هذه الأيام .

ولذلك أحسسنا بوجود فراغ إيديولوجى فى العالم، وقد تسرع مفكروا الغرب فى تشخيص هذا الداء وأسروا على أنه لابديل له فى تفسيرنا لهذه المواجهة العنيفة بين الشرق والغرب . وذلك على الرغم من أن بعض المفكرين يرون أنه كلما استحكمت العلاقات الاقتصادية المادية بين الشعوب، كلما كان ذلك دليلاً على ترابطها وتكاملها. ومع هذا فإنه لا يمكن بأى حال إقناع الغرب بالروح الطيبة ورغبة الوفاق التى يحاول المسلمون أن يصلحوا بها الأمور بينهم وبين أمريكا ما دامت هناك مصالح وعلاقات مادية مشتركة بين الطرفين مما هو موجود فى الواقع، وذلك لان هناك طرفاً أخر يتربص بالمسلمين، وهم أصحاب الصهيونية العالمية التى تتمثل مبادئها الخطيرة فى بروتوكولات حكماء صهيون، وما تحمله فى ثناياها من نوايا شريرة لتحطيم العالم وأديانه ومعتقداته توطئةً للسيطرة عليه وإستعلاء الاسرائليين بصفتهم شعب الله المختار على سائر الشعوب الآخرى[1] وكان من نتيجة هذا العداء الصريح للإسلام أن ضاعت حقوق المسلمين فى بلاد كثيرة. ونحن نجد هذا العداء الصريح يتمثل فى :

١ ــ موقف الغرب البغيض من مشكلة البوسنة والهرسك والذى ينم عن رغبة أكيدة فى تصفية كل العناصر الإسلامية فى أوروبا وبصفة خاصة فى البلقان، ولن نسمع خلال أى حرب فى العالمين القديم والحديث عن مثل هذه المذابح والاغتصابات والتنكيل الذى يمارسه الصرب ضد المسلمين العزل من السلاح والذى تمسك الغرب بتجريدهم من السلاح حتى

(١) للمؤلف بحث عن تحليل بروتوكلات حكماء صهيون القى به فى محاضرة عامة عام ١٩٦٣.

يذبحوا ذبح النعاج وتتخلص منهم أوروبا إلى الابد ، وكأنها تريد أن تزيح عن صدرها كابوس الإسلام البغيض، وقد شاهد العالم كله هذه المأساة الدامية وكأنهم يتلهون فى متابعة قصة أو مسرحية طريفة، ويخفى أساطين الغرب كل أسباب التآمر البغيض على شعب مسلم مكافح يتلقى ضربات مريرة فى محاولة لتطهير الأرض منه، وقد ظهر هذا العمل بصورة أبشع من تلك التى صاحبت القضاء على الإسلام فى الأندلس .

وسيأتى بعد ذلك دور المسلمين فى كوسوفو، وفى بلغاريا، وفى مقدونيا، وفى اليونان وفى رومانيا .. إلخ وربما كانت فرنسا وانجلترا هما المحطتان الأخيرتان للقضاء على المسلمين فى أوروبا . ولعل هذا يؤكد لنا المعنى الذى أشرنا إليه فيما قبل وهو أن الحروب الصليبية لم تنته بعد، وكيف لو أن هؤلاء فهموا حقيقة الإسلام ومبادئه لكان لهم موقف آخر إزاء العقيدة الإسلامية ومبادئها، ومن ثم فاننا نجد أن هناك من يترصد خطى المسلمين من اليهود وغيرهم لكى يشوهوا المواقف ويدنسوا المبادئ فيظهر المسلمون فى أعين العالم فى صورة وحوش كاسرة لهم قدرة خارقة على التخريب والتدمير والوقوف فى وجه التقدم والحضارة .

والأمر الذى لاشك فيه أن حوادث التطرف والإرهاب التى يقوم بها البعض فى العالم الإسلامى ستكون أداة سهلة وطيعة فى أيدى المغرضين من أعداء الإسلام لكى يضربوا بها المثل على صحة منطقهم المريض ودعاويهم المزيفة ضد الإسلام مع أن البلاد الأخرى تحفل بموجات أشد من التطرف والإرهاب .

٢ ـ وكما يتضح الظلم الواقع على المسلمين فى البوسنة والهرسك نرى موقف الهند شديد التعصب من المسلمين فى كشمير وجامو رغم أن المسلمين يشكلون أكثر من ٩٠٪ من سكان هذه البلاد ولايريد لهم الهندوس الاستقلال عن الهند مع أن الأمم المتحدة وقرار تقسيم الهند يعطيهم الحق فى هذا لأنه أقر تقسيم الهند بحسب رغبة سكان مقاطعاتها الكبيرة.

ونجد فى غير كشمير بلاداً أخرى مثل بورما حيث يعامل المسلمون معاملة الحيوانات وكذلك فى داخل الهند نفسها .

ولعل الأخبار تنقل إلينا باستمرار الاضطهاد الذى يقع تحته المسلمون فى الفلبين، وكذلك سائر الأقليات الإسلامية فى العالم، ولن تتحسن أحوالهم إلا إذا توحدت الكلمة بين المسلمين ذلك أنهم سيكون لهم شأن كبير إذا ما عرفوا طريق وحدة الكلمة وعدم السماح للشعوب الغربية بأن تتدخل بينهم، لكن البعض من المسلمين الذين ينتمون إلى الاتجاه العلمانى الذين ينادون بعدم اقحام الدين فى أى أمر من أمور حياتنا المعاشة، يرى هؤلاء ان الحضارة الغربية المعاصرة إنما تتسم بطابع العلم والموضوعية والعدل والإنصاف ، وبناءً على هذا فإنهم لايتخذون أى وجهة نظر عدائية نحو الإسلام ولايتحيزون ضده، إذ أنهم إنما يرصدون العالم الإسلامى المعاصر فى واقعه المنظور ، واغراقه فى التخلف الفكرى والمادى، وعجزه عن ملاحقة الغرب فى حضارته العظيمة التى تسطع على العالم فى هذا العصر، أما نحن اصحاب هذا الواقع الإسلامى فانه يتعين علينا معالجة هذه الظاهرة الناقدة للإسلام، وأن نحاول معرفة أسبابها الحقيقية لاسيما أن الإيديولوجية الإسلامية لاتجد لها أصولاً أو صداً فى الدول الصناعية المتقدمة سواء كانت شرقية أو غربية، ولهذا فانها لاتحظى بالقبول السليم عند هذه الدول والشعوب ، بل يرى بعض المفكرين من هذه الدول المتقدمة أن

الإسلام يحمل فى طياتـه سمـات القـرون الوسـطى الثيوقراطيـة التـى كـانت مـن أسباب قيام الحروب الصليبية ضـده وضـد شعوبه كمـا يزعمـون ، وإذن يعتبر الإسلام فى نظرهم بهذه الصورة تهديداً مباشراً للحضارة الغربية يجب الوقـوف أمامه بشدة لاستئصال شأفته ، والتنكيل بشعوبه أينما وجدوا حتى لايستفحل أمره فيقضى على الحضارة الغربية ويُعيـد إلى الأذهـان هجمـات المغـول والتتـار على العالم الوسيط .

وقد كانت هذه الآراء المتعنتة وراء حملات الاستعمار المسعورة فـى العـالم الإسلامى كله، وقام وراء هذه الحملات فكر مسموم يقتر حقداً وعـداوة على الإسلام وأهله، وتمثل فى طائفة المستشرقين وأتباعهم مـن الذين تخصصوا منـذ القرن الثامن عشر فى تصويـر البـلاد الإسـلامية بطريقـة متخلفـة تشـجع القـوة الغربية العسكرية الناهضة علـى احتياحهـا طلبـاً لمصـادر الثروة وبسـط النفـوذ، وهؤلاء المستشرقون هم الذين تخصصوا منذ القرن الثامن عشر فى تصوير البـلاد الإسلامية بطريقة متخلفة تشجع القوة الغربية العسكرية الناهضة على احتياحهـا طلباً لمصادر الثروة وبسط النفوذ، وهؤلاء المستشرقون هم الذيـن مهـدوا للغزو المادى للعالم الإسـلامى، وجـاء الجيـل الثـانى والثـالث منهـم ليقـف فـى عنـف وضراوة حاملاً ما يسمى بالغزو الفكرى المضاد للإسلام .

و لم يكن هذا الفكر المعاكس للإسلام من حيث المبـادئ والحركـة لينتشـر ويذيع إلا اذا كانت هناك تكئة لتثبيت دعائمه تتمثل فيما يمتلكـه المسـلمون مـن أرصدة ذهبية ضخمة انزلقت بهم فى متاهات التأخر والفسـاد وممارسـة سـلوك غريب عنهم قائم على قيم وممارسات تنبذها مبادئ الإسـلام الصحيـح ويعـرف المستشرقون ذلك تماماً ويدركون أنـه لايوجـد أى ارتبـاط بـين مبـادئ الإسـلام القويمة وتعاليمه المُوصى بها بينها وبين سلوك المسلمين فى هذا العصر، ومع هذا

فهم أى الكثرة الغالبة منهم يتجاهلون هـذا التمييز بين النـاحيتين، ويتمسـكون تماماً بتصوير المسلمين فى صورة شعوب تقـع فـى أسـفل الـدرك فيمـا يسـمونه بالعالم الثالث ، وحينما يوجه إلى هؤلاء الذيـن يزعمـون بـأنهم رسـل الحضـارة الغربية المزعومة إلى الشرق تساؤل عن السبب الذى من أجله لم تستطع ان تصل بهذه الشعوب المستعمرة إلى المستوى الحضارى والإنسانى اللائق فى ظل قهرهم واستعبادهم لهـا، فـانهم يـرددون دائمـاً ان هـذه الشـعوب ذات طبيعـة عرقيـة وعنصرية متخلفة بالذات، وتفكيرها لايرقى إلى مستوى التفكـير الغربـى القـائم على المنطق وعلى الاستدلالات العقلية بصفة خاصة، ومن ثـم فـانهم كشـعوب غير آرية لاقدرة لهم على التفكير المستقل والمنتظـم، أو أيضـاً لاقـدرة لهـم علـى الابـداع والتمـيز فـى العلـم، أو فـى الفلسـفة، أو حتـى فـى أسـباب الحضـــارة التكنولوجية ، ويصلون إلى استنتاج أخير كان قمة الغلو فى النزعة العنصرية فـى أواخر القرن التاسع عشر، وهو أن هذه الشعوب مادام هذا حالها فإنهـا لايمكـن لها ان تحكم نفسها بنفسها، أى أن تسـتقل عـن مسـتعمريها مـن العـالم الغربـى "وقد تمثل هذا فى كتابات الكثيرين مثل رينان وجوبينو وغيرهـم من عتاة النزعـة العنصرية" . يتعـين علينـا إذن أن نواجـه الغـرب المعـاصر بإعطـاء أهلـه الصـورة الحقيقية للإسلام ومبادئه بالطريقة التى يفهمها الغرب .

ويعيب الغرب على الإسلام أيضاً أن مثقفيه حينما يدافعون عن مبادئ هذا الدين، إنمـا يضعـون أطـراً فضفـاضـة للإسـلام بمعنـاه الواسـع الـذى يغطـى كـل المذاهب والفرق الإسلامية، بينما يتعقب الغرب هذا الدين الحنيف فـى مسـاراته الضيقة من خلال آراء الفرق الإسلامية السـوية وغـير السوية، ويتعمـد البعـض استبعاد مسار الموقف السـنى البسيط والأقـرب إلى العقـل، وإلى الينـابيع الأولى المطهرة للدين، وشتان ما بين مذهب أهل السنة ومذاهب الباطنية ، والقرامطـة،

أو غلاة الشيعة والدروز، والاسماعيلية، والنصيرية ، والقاديانية، والبهائية التى خرجت من تحت عباءة البابية .

وقد نسى هؤلاء الذين يريدون تمييع الأصول الإسلامية أن هذه المواقف لايصح منها إلا موقف أهل السنة والجماعة، وأن كلاً من هذه المذاهب المنحرفة عن مذاهب أهل السنة إنما ينطوى على نفسه فى شبه جزر عقائدية تضر بالإسلام وبالمسلمين، وبمصالحهم الحيوية، وهنا كان على المسلمين أن يقفوا فى شدة ووضوح فى مواجهة هذه النعرات الطائفية الإسلامية، وان يعاد النظر فى هذه المواقف عن طريق جماعة للتقريب بين المذاهب الإسلامية تُعلن بصراحة شجب المذاهب الضالة والتشهير بها بين كافة المسلمين حتى لا تحدق الضرر بالأمة الإسلامية وبالإسلام كعقيدة وممارسة، والأمر الذى لاشك فيه أن كل محاولة من هذا النوع ينبغى أن تلتزم بالكتاب والسنة فحسب ، وان تحذر من الاسرائليات ، ومن بعض الاجتهادات المضللة حتى يسلم الدين كله من غوائلها، وهذا أمر متروك لأهل الحل والعقد وعلماء هذا الدين .

ومما نأخذ على بعض الذين يتصدون لإظهار عظمة الإسلام الفكرية والمادية أنهم حينما يواجهون عالماً أشتراكياً يقفون فى صلابة موقف المساند للمذهب الاشتراكى مدعين أن الإسلام دين اشتراكى خالص، ولهذا فهو يساند الاشتراكية ويعضدها، وكذلك حينما أنهارت الأشتراكية، يعودون فيقولون أن الإسلام دين الرأسمالية، وأنه يساند الحرية الاقتصادية أى حرية السوق. وأيا ماكان الأمر يتعلق بالديمقراطية فإن المسلمين ينقسمون بصدد تفسير معناها إلى طائفتين، طائفة تقول بأن الإسلام دين ديمقراطى يبشر بالديمقراطية إستناداً إلى مبدأ الإجماع وهم يفسرون قول القرآن ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ بأنه الدليل

القوى والحجة البالغة على ديمقراطية الإسلام، ونحن نوافق على هذا الرأى كما سبق أن أشرنا .

أما الفريق الثانى فهم يرون أن الشورى لاتعنى الديمقراطية بل المقصود بها أن الحاكم يشاور الرعية أى يتعرف على آرائهم فى أى أمر من الأمور، ثم يكون لنفسه رأياً قد يكون موافقاً لآرائهم أو مخالفاً لهم وهم بذلك يفسرون تكملة الآية ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ بأن الحاكم أو رئيس الدولة أو الخليفة هو الذى بيده سلطة اتخاذ القرار، وليس من الضرورى أن يلتزم فيه برأى الشعب، ولايمكن لنا فى عصر غلبة الشعوب، أى عصر الديمقراطية الحقة أن نفسر النصوص بهذه الطريقة إذ أن هذا التفسير يتنافى مع روح العصر ودواعيه ومتطلبات شعوبه .

وهكذا نرى ان الغرب حين يواجه هذه الآراء المشتتة عن معنى الإسلام فى الحكم، وأنه يقبل كل النظم المعروفة عبر تاريخ البشرية الطويل ، يقولون أن هذا الأسلوب إنما يدل على أن الإسلام ومبادئه لاينطويان على موقف تحدد فكرياً يسمح بقيام حضارة إسلامية مغاصرة تلتزم بمبادئ لها حدودها ومراميها ، والحق أن الإسلام فى جوهره إنما يقوم على التوحيد ، والتوحيد ليس أمراً فردياً فحسب، بل هو أمر اجتماعى بالدرجة الأولى وان هدفه هو إحداث التغيير فى المجتمع الإسلامى، إذ أن المسلم لايمكن ان يعيش فى جزيرة منعزلة عن العالم، وأن يتباعد أفراده بل ينبغى أن يحاول تشكيل الجماعة الإسلامية التى يظلها التوحيد وتحكمها مبادئه وقيمه الصحيحة وهذا هو الذى يحفظ على الإسلام وجهه الصحيح فلا يتبدد هباءً وينفرط شيعاً . أما عن أن الإسلام ينطوى على نظام هيكلى سياسى واجتماعى واقتصادى معين، فذلك أمر متروك لأجتهادات المسلمين بحيث يكون لكل عصر تخطيط وصورة تتلائم مع هذا العصر بحيث

لاتخرج عن تعاليم الإسلام الأساسية ولاتتعارض مع الفطرة والعدالة الحقة التى يستشعر بها الضمير ، وأخيراً بحيث لاتنتقص من حرية الإنسان وقيمه الفاضلة التى تحفظ عليه كرامته. ومن ثم فلا يضيرنا أن نقتبس من الغرب بعض نظمه الرشيدة التى تتفق مع هذه المبادئ أو ليس الإسلام دين الفطرة ودين العقل، أى انه دين يتلاءم مع طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان عاقل، وكيف انه هو هو ويظل نسقاً واحداً فى كل زمان ومكان فلايمكن التمييز أو التفرقة بين انسان بدائى وآخر متحضر الا من حيث السلوك الظاهر الذى قد يتبدل بالتدريج كلما أشرب الإنسان روح الحضارة والتقدم ، وعلى هذا النحو ليس هناك اى معنى لمذاهب القائلين بإختلاف البدائيين المتوحشين عن المتحضرين الغربيين من حيث الأخلاق والعقلية ، أو بمعنى آخر ليست هناك عقلية بدائية كما قال ليفى برول ، وعقلية غير بدائية ومتقدمة ، كما يقول الآخرون ، وهذا يعنى أيضاً أن هناك منطقاً واحداً للعقل يظهر بالفطرة كلما تقدم الإنسان خطوات فى طريق النظر والتحضر.

وليس أدل على ذلك من أن المسلمين قد بلغوا أوج حضارتهم فى العصر العباسى من النواحى المادية والثقافية كما سبق أن ذكرنا ، وكان الغرب لايزال يغط فى سباته العميق منبهراً بحضارة الإسلام فى المغرب، وفى المشرق على السواء، فأين كانت عقلية الغرب اذن فى هذا الوقت ؟ لأننا اذا ربطنا التخلف الحضارى بطبيعة الإنسان وبمكونات عقله فإن معنى هذا اننا قد أوصدنا الباب أمام رقية وحضاراته إلى الأبد، ولما كان هذا غير صحيح بدليل أن الغرب استيقظ فى العصر الحديث بعد عصر النهضة ، لهذا فإن غفوة الإسلام الحالية لابد ان تتلوها يقظة إسلامية فى المستقبل القريب اذا دعم المسلمون حضارتهم

بالعلم والتكنولوجيا ونبذوا خرافات الماضي واساطيره التى يروجها العقل والدين على السواء .

ينبغي إذن أن نواجه في حزم التحديات الغربية التى تتمثل فى الصراعات الفكرية تلك التى يثيرها الغرب بهدف التأثير فى شبابنا، لاسيما بعد أزمة المعلومات التى يمر بها العالم اليوم ، وينبغى فى هذه الحالة أيضاً ان نعطى للشباب قسطاً كبيراً من ثقافة الإسلام وقيمه ومبادئه الحقيقية حتى يمكن لهم بها أن يتسلحوا ضد الأفكار المهاجمة للإسلام ، وبذلك نقضى على أزمة التدين بين الشباب المعاصر، ونعمل جادين على شغل أوقات الفراغ بالمدرسة والجامعة والمنزل والشارع، على أن أهم ما يواجهنا فى المستقبل هو ضرورة العمل على توحيد المناهج فى مدارسنا وجامعاتنا فلا يتشعب التعليم إلى مسار أجنبية تقضى على الهوية الإسلامية والعربية للطالب، وتمهد السبيل أمامه للإقبال على الحضارة المعاصرة وما تقدمه من علم وتكنولوجيا دون أن يفقد شيئاً من تراثه الأصيل ، والذى ينبغى إعادة النظر فى تنقيته وترشيده .

على أننا يجب أن لانخشى كثيراً فكرة الغزو الفكرى فهو إنما يحدث اذا كان يصدر من شعوب بالغة الرقى إلى شعوب أخرى بالغة التأخر كما حدث بالنسبة للعلاقات الثقافية بين الغرب وبين زنوج أفريقيا مثلاً، ولكن القياس هنا غير مطابق لأن ما يسمى بالغزو الثقافى لبلاد الإسلام يُعد من قبيل الخطأ الفاحش ذلك لأن شعوب الإسلام لم تكن همجية أو بدائية أو متوحشة، بل كانت شعوباً أظلتها حضارة من أسمى أنواع الحضارات الانسانية سواء كانت الحضارات القديمة قبل الإسلام أو حضارة الإسلام نفسها ، ولهذا فإننا يجب أن نستبدل لفظ الغزو الثقافى بلفظ الانتشار الثقافى، وهو لفظ أو تعبير تعلوه

مسحة علمية اجتماعية، وهو أيضاً يعنى وجود تعايش سلمى بين الثقافات أو الحضارات المختلفة .

ولابد فى عصر انتفت فيه المسافات وتراكمت فيه المعلومات أن يكون الاتصال الثقافى والحضارى أسرع بكثير مما سلف بحيث نستطيع تشبيهه بما يحدث فى الأوانى المستطرقة ان لم تكن ثمت عوائق أو معقبات معاكسة والقياس مع الفارق .

ويفضى بنا الحديث عن الديمقراطية فى الإسلام والغزو الثقافى إلى التساؤل عما إذا كان هؤلاء الذين ينادون برفض فكرة الإسلام السياسى بعد ان وضعوا هم صيغتها فى ابتسار ماكر ــ عما إذا كان هؤلاء إنما يقصدون من وراء ذلك تفريغ الإسلام من محتواه الكامل سواءً من النواحى الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وذلك لكى يعلنوها بصراحة بأنه لايمكن ان يتضمن دستورنا النص على ان الإسلام هو دين الدولة وأنه هو مصدر القوانين بكل صورها، أى انه مصدر النظم التى تدار بها وتنضبط مؤسسات المجتمع ومرافقه .

واعتقد أن مناقشتنا لهذا الموضوع فى هذا الكتاب قد ألقت اضواءاً على مفهوم الإسلام المتكامل والذى يجمع بين دفتيه كل ما يتعلق بهيكل الحياتين الدنيا والآخرة، ومن ثم فإننا نؤكد هنا الشعار القائل بأن الإسلام المتكامل الذى هو ربيب العقل والإنسان والفطرة هو الحل وليس الإسلام السياسى وحده كما شاء له المغرضون والماكرون أن يكون .

إن قبولنا لهذا الشعار أى الإسلام المتكامل ينطوى على قبولنا للمبادئ التالية : -

١ ــ الإسلام دين العقــل وديـن الفطـرة فالكتـاب والسنة يحضـان علـى النظر العقلى فى كل شئون الدين والحياة، وكذلك فــى خلـق الكـون والإنسـان، وفي الحياة والموت، وفي كل تغير يطرأ على المجتمـع الإسـلامى سـواء كـان متعلقاً بالفرد أو بالعلوم الطبيعية والطبية والبيولوجية ، أو بـالمجتمع السياسـى وعلاقة السلطة بالمسئولية ، وبكل ما يتعلق بانتاج الثروة وتوزيعها ومستوى المعيشة وبالدخل القومى، ولايمكننا ان نطالب الإسلام حين نشـأته بـالبحث فى كل هذه الأمور اذ أنها تمثل تراكماً معرفياً ضخماً مر به الإسلام خـلال أربعة عشر قرناً من الزمان حـدث خلالهـا تغير عميـق فـى المجتمـع وقيمـه، والأمر الذى لاشك فيه أن تغير الايام يقتضى تغير الأحكـام بحسـب مبـادئ أصول الفقه .

٢ ــ لما كانت المقاصد العليا للشريعة أى مصلحة الأمة الإسـلامية تقتضـى منـا أن نعمل على تخلصها من الفقر والتخلف، وكيف أن أمامنا نموذجاً واضحاً فى العالم الغربى المعاصر تتفوق فيه الحضارة الغربية تفوقاً ساحقاً قائماً علـى العلـم الطبيعـى والتكنولوجيـا والقـوة العسـكرية والسياسـة، فأننـا يجـب أن نتحرى سر هذا التفوق وكيفية الوصـول إليـه ذلـك أن هـذا التقـدم الكبـير والانجازات العظيمة لم تحدث من فراغ، وقـد ازدهـرت العلـوم الاجتماعيـة والعلوم الطبيعية، وكذلك الثورة الصناعيـة فـى أواخـر القـرن الثـامن عشـر الميلادى، ويجب إذن ان ترسخ فـى أذهاننـا فكـرة الارتبـاط الضـرورى بـين تقـدم العلـوم الطبيعيـة والعلـوم الاجتماعيـة، وهـذا مـا غفلنـا، عنــه فمــن الضرورى إذن ان يصاحب التقدم التكنولوجى تقدم فى العلـوم الاجتماعيـة حتى نحافظ على هويتنا الحضارية ، وأن نـأخذ دائمـاً بأحكـام العقـل حتـى

نستطيع التغلب على رواسب الماضى التى قد لاتتفق مع المبادئ الأساسية للدين.

٣ ـ يجب أن نؤمن بان التفسير المستنير للشريعة الإسلامية لايمكن أن يتعارض مع حقوق الانسان التى كفلتها مواثيق حقوق الإنسان العالمية إذ أننا ما دمنا نقول أن الإسلام دين العقل ودين الفطرة ، فإنه اذن لابد من أن ينطوى على مبادئ الأخاء والحرية والمساواة والعدل الانسانى بما يحفظ على الإنسان كرامته ، ولايمكن أن يكون ثمة أدنى تعارض بين التفسير المستنير للشريعة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان .

٤ ـ لاينبغى أن تتحكم الأغلبية فى الأقلية العرقية أو الدينية حينما تتولى هذه الأغلبية السلطة السياسية، ويجب أن يتحرى الدستور الحفاظ على حقوق الأفراد سواء كان من الأغلبية أو من الأقلية ، وفى ظل التعددية الفكرية ينبغى أن يتاح للأحزاب ضمان تداول السلطة، والحرية الشخصية، وحقوق المرأة، ونظام العقوبات الجنائية، والفوائد المصرفية، والمساواة التامة بين المصريين فى كل شئ، ونحن نجد كل هذا فى القرآن والسنة فضلاً عن إنطواء الكتاب والسنة على دستور كامل فى الأخلاق الفردية والاجتماعية فكيف يمكن إذن القول بأنه لايمكن أن نضع دستوراً اسلامياً نابعاً من هذين الأصلين الكبيرين ؟

يبدو إذن ان التقصير فى هذا الأمر إنما يعود إلينا كبشر وإلى الفكر السياسى عند المسلمين وضحالته بحيث نجد أساطين هذا الفكر يرتمون فى أحضان الفكر السياسى الغربى ومسمياته حتى لايجهدوا أنفسهم فى تلمس أى نظام آخر يصلح للشعوب الإسلامية مع أن أى نظام إسلامى لايتطلب من

المفكر سوى الالتزام بالشريعة الغراء والتـى تنبـع فـى حقيقـة الأمـر مـن الفطـرة الانسـانية الصحيحـة ، وعـن العقـل والضمـير الإنسـانى، ولهـذا فـإن أى نظـام إسلامى لايمكن أن يتعارض مع مطالب الحضارة والمجتمع السياسى المدنى.

خاتمة

لقد عالجنا فى هذه الدراسة مشكلة من أخطر المشاكل التى تواجه عالمنا الإسلامى، ألا وهى مدى استيعاب الإسلام كعقيدة وشريعة لفكرة الإسلام السياسى، التى تبشر فى نظر البعض بقيام حكومة دينية ، يتحقق عن طريقها مبدأ عدم الفصل بين الدين والدولة على خلاف الصورة التى أفضى إليها التطور التاريخى فى الغرب، والقائمة على الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية بطريقة أساسية وحاسمة .

وقد أوضحنا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب كيف أن الإسلام فى جوهره ، وفى ظروفه يختلف من حيث الشكل والمحتوى عن المسيحية، كما لاحظنا منذ البداية أن هذه قضية قد وضعها العلمانيون فى وضع خاطئ، إذ أنهم قد شعروا بمدى سيطرة الدين على كل مناحى الحياة، وعلى مفاتيح المسيرة إلى الآخرة، وكيف أن المسلم الحق ينبغى أن يمسك بتلابيب الدنيا والآخرة معاً ونواصية، ولاسيما إذا كان الدين ينطوى على حلول لمعظم ما يصادفه المسلم من مشكلات فى حياته الدنيوية، وكذلك فقد تطرقنا فى ردودنا على المعارضين لمعنى ارتباط الدين بالدولة فى الإسلام، وكيف أن هذه ظاهرة لأيشارك الإسلام فيها أى دين آخر، وأن الذين يريدون أن يفصلوا الدين عن الدولة إما علمانيون يرون أنه ينبغى تطبيق هذا الفصل قياساً على ماحدث بالنسبة للمسيحية، وهذا قياس خاطئ أو أنهم يتربصون الشر بالعالم الإسلامى ويتوقعون كل الشر من الأمة الإسلامية المترابطة ، لا سيما إذا التزم أفرادها بتعاليم الدين ومبادئه، وكفوا عن المهاترات وإشعال الصراعات الطائفية البغيضة انطلاقاً من تفسيرات فرعية لاارتباط لها مع أصول الدين، ثم حاولنا بعد ذلك

أن نتطرق لإعطاء صورة لمعنى الإسلام المتكامل، وكيف أن الكثيرين لايدركون تماماً الصورة الكاملة للإسلام، ويصدرون أحكاماً مبتسرة لاتتفق مع حقائق الإسلام، بل تنسجم مع أباطيل خصومة دون أن يحس أصحاب هذه الأحكام أو يشعروا بذلك، فمنهم من يخشى أن تقوم حكومة دينية تفرض الرأى الواحد من حيث إنها ستكفر من لايتبع رأيها، وتسم أفعال المعارضة بالحرام، وأوامر الحكومة الدينيه بالحلال، وبذلك تقضى على كل أصحاب الأحزاب المعارضة، وينتهى أمر الديموقراطية السياسة بانتهاء أمر التعددية الحزبية .

ويرى بعض أصحاب هذه الأحكام والمتصدرين ، أن هذه الحكومة الدينية ستنتهى إلى ديكتاتورية ثيولوجية تنبذ الرأى ، وتقضى على الديمقراطية .

ويبدو أن هؤلاء المتخوفين من التمسك بارتباط الدين بالدولة فى الإسلام قد خشوا كثيراً من أن يحتكر رجال الدين السلطة السياسية، فيحولوا بينهم وبين الوصول إلى هذه السلطة، وبذلك تصبح المسألة مسألة سعى إلى الحكم بأى ثمن، الأمر الذى يُكرس له معظم السياسيين نشاطهم السياسى ، وتتمثل فى غاية تطلعاتهم الحزبية .

إلا أننا يجب أن نلاحظ أن هؤلاء لم يكن فى مقدورهم أن يتعرفوا تماماً على حقيقة الدين الإسلامى، أو أنهم يتعمدون عن قصد إظهار الإسلام بهذه الصورة الناقصة .

وكما سبقت لنا الإشارة فإن الإسلام إنما بُنى على عقائد وفروع، والعقائد هى الأصول العليا للإسلام، ولاخلاف بين المسلمين حولها، فإذا وقع هذا الخلاف فلابد أن تنجم عنه انحرافات خطيرة عن جوهر الإسلام وحقيقته كما حدث بالنسبة للفرق المارقة عن الإسلام والتى سبقت الإشارة إليها ، وهذا

يعنى ان المسلم الحق ينبغى له أن يتربص لكل هجوم على العقائد الإسلامية، وأن يحاول مواجهة هذا الهجوم فكرياً على الأقل مهما كان الأمر يتعلق بالتعددية الحزبية فى ظل الديمقراطية أو دعوى الحفاظ على حرية الفكر مادمنا قد التزمنا بأن الإسلام هو دين الدولة الرسمى، إذ كيف نسلم بما يراه البعض من أننا لايجب أن نهاجم أصحاب الآراء الالحادية والمهاجمين للدين ونلوذ بالصمت فلا نرد عليهم ، فكأنهم على هذا النحو يرون الحرية فقط من زاويتهم، أى أنهم يريدون ان يكونوا أحراراً فى الهجوم على الإسلام، ثم تغل يد المسلمين ولاتتاح لهم الحرية للرد عليهم، وهذا منطق معكوس يراد له أن يطبق فى بلاد الغالبية العظمى فيها من المسلمين.

والامر الذى لاشك فيه أن موقف الإصلاحين الإسلامين الذين يتمسكون بالديمقراطية يتيح تماماً فرص الخلاف والمناقشة حول الفروع، أى يسمح بتبادل الآراء والاجتهادات التى تدور حول الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... إلخ ، وكذلك فإن كل المذاهب الإسلامية لاتعترض مطلقاً على قيام أهل الذمة بممارساتهم وبعقائدهم إذا لم يكن فيها هجوماً أو تنديداً بالإسلام ومبادئه .

وقد عرف العالم كله تاريخ الإسلام الطويل أنه منذ نشأته الأولى قد اتسم بالتعايش ، وبالتسامح مع أهل الذمة ورعاية حقوقهم إذا لم يهاجموا المسلمين ويظاهرونهم فى الدين .

أما الإشكال الذى يثيره العلمانيون من ناحية التمييز بين الحلال والحرام، وكيف أن الحكومة الدينية ستكفر من يعصون أمرها، فهذه مبالغة لم تحدث فى تاريخ الإسلام، بل إن الفقه الإسلامى قد احتوى على كثير من الاحكام

المختلفة أو المتفاوتة ، حيث اتباع النص الظاهر أو تأويله اتفاقاً مع ظروف وملابسات الحياة، لاسيما فيما يختص بالفروع والمعاملات ، ومن هنا نشأت مذاهب الفقة الأربعة ، ويمكن لنا التوسع فى هذه المواقف حتى تلتقى مع معنى الحزبية مادامت لاتتعلق بأى أصل من الأصول الدينية التى يقوم عليها بناء الدين، وينبغى فى هذه الحالة أن يحاول أصحاب هذه المذاهب أو أهل الحل والعقد أن يجدوا لهذه الاحكام موقعها الصحيح فى الدين وعقائده حتى يضمن هؤلاء أن تكون سياسة الحزب كأداة سياسية لمذهب فقهى معروف، ومن ثم يصبح الحكم الأفضل على الافعال الصادرة عن الإسلام بالجواز أو عدمه، أما احكام الحلال والحرام فإنها تنصب فقط على الكبائر وهى تلك التى يتفق أصحاب المذاهب الفقهية على أنها تتطلب تطبيق الحدود، ومن ثم فلايصح تكفير من يختلفون مع المسلم فى الفروع، أما الاختلاف حول الكبائر وهى من الاصول فإنها لاتفضى إلى تكفير مرتكب الكبيرة مادام يقام عليه الحد .

وخلاصة القول أن الاختلاف فى الرأى لاسيما فى غير الأصول لاينجم عنه صراع عقائدى يؤدى إلى إراقة الدماء، أو إلى إختلاف جذرى فى شئون الحكم .

ولما كان العلمانيون يريدون أن يقيموا الدولة على أسس من الابداع والعقل والحرية والعدالة الإجتماعية، لذ فقد عرضنا عليهم مفهوم الإسلام، وكيف أنه دين الفطرة، وأن العقل السوى المبرء من الهوى يمثل الفطرة الصحيحة فى نظر الإسلام، وأن على المسلم ان يلتزم بحدود العقل، ومن ثم فإن العقيدة والعقل متطابقان وهذا ما انتهى إليه الكثيرون من مفكرى الإسلام، ومنهم ابن سينا، وابن رشد، ويكون معنى ذلك أن الإسلام لما كان دين الفطرة السليمة، لهذا فمن يتفكر فى قواعده كما وردت فى القرآن الكريم وفصلتها

السنة النبوية سيجد أنها موافقة تماماً للمنطق العقلى المستقيم، وسيعلم حتماً كيف ان الله سبحانه وتعالى قد نزل الذكر الحكيم موافقاً للعقل وللفطرة السليمة ومن ثم فلايوجد تعارض مطلقاً بين العقل والنقل، وعلى العقل أن يمضى فى طريقة على أساس من حرية الفكر لفهم مضمون الوحى وتفسير معانيه وتأويل مراميه، مادامت هذه هى رسالته كوسيط بين القوة الإلهية العظمى والإنسان الذى يدبر شئونه ، وعليه ان يستخدم كلاً من أساليب التفسير والتأويل لادراك مرامى واهداف القوة الإلهية، ومحاولة ترسم الطرق العملية لتحقيق السعادة الإنسانية وإشاعتها بين الناس وإرساء قواعد الخير الأخلاقية، وهنا يرتبط التنفيذ العملى بالأصول النظرية فى السياسة، وفى العدل والأقتصاد ، والاجتماع ، والاخلاق فإذا فعل المسلمون ذلك وتبنى كل فريق رأياً له فى هذه الناحية أو تلك من الفروع أفيعد هذا توطيداً ودعماً للحكومة الدينية التى يرفضها العلمانيون وأضرابهم ؟

لقد حاولنا تمهيد السبيل لقبول معنى ، ارتباط الدين بالدولة فى الإسلام بأن أوضحنا كيف أن الاختلاف فى الرأى وفى الأحكام بين الفرق الإسلامية على الأقل من حيث الفروع لايشكل جريرة فقهية تخضع للحلال أو الحرام. ولقد لاحظنا أيضاً أن الكثيرين يشيدون بالموقف العقلانى للفلاسفة، وبموقف المعتزلة بصفة خاصة من حيث أن هؤلاء يترسمون خطى العقل والحرية فى تطبيقهم للدين ومبادئه. ولهذا فقد حاولنا إعطاء صورة موجزة لحركة الإعتزال منذ نشأتها حتى يمكن الاستفادة من تعاليمها ومسيرتها الكبرى فى تثبيت دعائم الدولة الإسلامية التى يحق لها أن تطالب بأن يكون لها مكان الصدارة فى حياة المسلمين بعامة .

وكان علينا أيضاً أن نعالج بعض مشكلات الإسلام المعاصر في مواجهة الغرب ومعاداته التقليدية للإسلام، وأن نعرض لحقيقة الصراع المرير بين الإسلام وخصومه في معترك السياسة الدولية وتحديات النظام السياسي الجديد ، وقد اتضح لنا كيف أن الهجوم قد اشتد على الحركات الإسلامية سواء كانت معتدلة أو متطرفة ولاسيما بعد أن إنهار التوازن الدولى وتفتت الاتحاد السوفيتى، وحاولت الولايات المتحدة أن تضع نفسها فى مكان السيد الآمر للعالم كله فى النظام الجديد، وقد نسى هؤلاء جميعاً ـ أى المتربصون بالإسلام وأهله ـ أن هذا الوضع السياسى الدولى غير المستقر من الممكن أن يكشف عن أمور خطيرة وأهمها ـ إمكان ـ بروز قوة إسلامية ناهضة تقود مايزيد على مليار مسلم يتحركون شوقاً إلى الارتباط والاتحاد وإعلاء شأن الأمة الإسلامية ، ولاينقصهم إلا الإعداد الجيد لقواتهم والاختيار الصحيح لحكامهم الذين لايلتزم معظمهم ـ حالياً ـ بتعاليم الدين أو مبادئه .

ويبدو أن المفكرين فى العالم العربى قد تنبهوا إلى خطورة هذا التيار الإسلامى الصاعد ، الأمر الذى يدعوهم إلى أن يتوجسوا خفية من ظهور إسلاك قوى متماسك ، ولهذا كله فقد عهد هؤلاء المعادون للإسلام إلى الهجوم عليه باستمرار حتى لاتكون له أية مكانة أو دور فى أى نظام عالمى جديد .

ولاشك أننا فى هذه الكلمة الأخيرة نحاول أن نعالج الموضوع من زاوية جديدة، وهى أنه لما كانت حقوق الإنسان هى مدار الإهتمام والنظر فى الحكم على سلامة النظم السياسية العالمية، وخلوها من الأخطاء والآفات ، وانطباقها على حياة الشعوب لتحقيق آمالها فى الحرية والعدالة الإجتماعية، وكانت قد أتيحت لنا فرصة لحضور لقاء عالمى حول حقوق الإنسان فى البرتغال عام ١٩٩١م ، حيث لاحظت أن المناقشات فى هذا المؤتمر كانت تدور حول

ارتباط حقوق الإنسان بالإتجاهات السياسية والإجتماعيـة، وقـد اتفـق الحضـور على ان المجتمعات الشمولية التى لاتتاح فيها حرية التعبير لايمكن أن تلتزم بتطبيق حقوق الإسلام فى بلادها، لأنها تحيط نظامها بمجموعة من الأوامر والقـرارات الإشتراكية التـى تحـد مـن بعـض الحريـات فـى سـبيل تحقيـق نـوع مـن الاتـزان الإجتماعى والإقتصادى، ولاسيما فى المواجهة بين الطبقات العاملة وغيرها مـن الطبقات الأخرى، وكذلك فإن حقوق الإنسان لايمكن أن يكون لها أى احـترام فى ظل نظم الحكم الديكتاتورية الفردية، يبقى إذن التسليم بأن المجـال الصحيـح للتطبيق الأمثل فى حقوق الإنسان هو فى نطاق النظم الديموقراطية القائمة علـى حرية الأفراد وعدم الإلتزام بالنظم الاشتراكية التى تحد من هذه الحرية .

ولقد حاول بعض المتناقشين فى المؤتمـر أن يتكلمـوا عـن الإسـلام كعـائق لتطبيق حقوق الإنسان من حيث أن الدين هو علاقة بين الإنسان وربه وليسـت بين الفرد والمجتمع وكيف أن هذا الرأى قد التزمت بـه السـعودية فـى تحفظاتهـا على حقوق الإنسان، وقد أغفل هؤلاء المعـترضون الـردود المقنعـة التـى صاغهـا بعض المفكرين الإسلاميين حول هذا الموضوع ومجملها اننا ينبغـى أن نستعرض حقوق الإنسان كما رسمتها اللجنة الخاصة بها والمنبثقة عـن المجلـس الأقتصـادى والاجتماعى للأمم المتحدة، ثم نحاول معرفة هل توجد هذه المبادئ فى الكتـاب والسنة أم لا ، ولايضير الأمر بعد ذلـك أن هـذه المبـادئ والحقـوق التـى أقرهـا الإسلام تكون ملزمة للفرد وبالدرجة الأولى فى الصلة بينه وبـين الله إذ أن هـذا لايمنع أن تشكل هذه الحقوق نوعاً من الصلة بين الفرد والمجتمع أيضاً ، لأنه ليس هناك نص فى الإسلام يمنع من أن يرتبط الفرد المسـلم بمجتمعه فـى ظـل تعـاليم الديـن ومبادئـه ، وإذا كـان الإسـلام ينطـوى علـى كـل الحقـوق والواجبـات الإنسانية التى يقرها المجتمع الأنسانى العـالمى فـإن هـذا يعنـى أن الإسـلام نظـام

سياسى أو أقتصادى أو احتماعى لايمكن ان يخرج بمسار البشرية عن الحدود الوضعية التى يتمسك بها العلمانيون أو الذين يتربصون بالإسلام، ولايهمهم كثيراً ما يقضى به حكم العقل ودواعى المنطق فى هذه القضية حتى ولو كانت شبهة الرجعية أو السيطرة الدينية غير مقبولة فى عصرنا هذا ، إنما الذى يهم هؤلاء والذى لانستطيع أن نتفهم مواقفهم بصدده إلا على هذا الأساس ، هو أن كلمة الإسلام تقض مضاجعهم والدليل على ذلك أنهم يضعون المصالح الشخصية والقومية كغايات لأخلاقهم الفردية والإجتماعية فلايضيرهم أن تنتقص حقوق الشعوب أو الأفراد مادام ذلك لايتعارض مع مصالحهم ومكاسبهم، وأكبر دليل على ذلك بعض مواقف الأخلاق النفعية فى الغرب، ومنها البراجماسية التى تزن كل شئ بميزان العمل وحده دون أى نظر أو ترسم للمثل وللمبادئ المطلقة .

إن كلمة الإسلام تقضى على هدوئهم النفسى ولاتسمح لهم بالاستمرار فى مُلاحقة الانحراف والفساد والخروج عن أبسط مسلمات الأخلاق والقيم الإنسانية ، وعلى أية حال فإن نظرة موجزة على حقوق الإنسان[1] فى الإسلام وعرضها للمقارنة بينها وبين حقوق الإنسان كما أوردتها وثائق الأمم المتحدة كفيلة بأن تبين أن الإسلام ينطوى تماماً على كل هذه الحقوق، بل إنه قد توسع فى الكثير منها قبل أن تخرج على الناس صكوك حقوق الإنسان فى مختلف مراحل التاريخ، فقد شملت حقوق الإنسان فى الإسلام : الحقوق الشخصية والذاتية، والفكرية، والإقتصادية، والقانوينة ، والسياسية ، وكذلك إلتزام الإسلام بتأكيد معنى العدل والمساواة . وتأكيد الحريات العامة ومنها حق التعبير

---

(١) راجع د. محمد فتحى عثمان : حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانونى الغربى ــ القاهرة ــ دار الشروق ١٩٨٢ "النتائج "

عن الرأى، وحق الملكية أن يكون هذا كله مكفولاً للنساء والرجال على السواء وللمسلمين ولغير المسلمين، وبالنسبة للفرد والجماعة والدولة أيضاً ، وفى الإسلام نجد أيضاً أن الحق يقترن بالواجب فحق الفرد يقترن دائماً بحق الجماعة عليه، وكذلك تقترن حقوق الإنسان فى الإسلام بأنه يتجاوز الإتجاهات الوضعية وذلك بإرتباطه بشريعة الله عز وجل الأمر الذى يجعله أكثر رسوخاً بالنسبة لضمائر الأفراد وللمجتمع على السواء ، وهذا مما يجعل إحقاق الحق واجباً على صاحب الحق نفسه على الذى يكون عليه. وإذا أردنا أن نلخص كل مبادئ حقوق الإنسان فى نطاق الحرية والعقل والمسئولية الفردية والإجتماعية التى ترتبط أوثق إرتباط بالمسئولية الدينية أى بالتكليف الشرعى، فإننا لن نجد خيراً من تطبيق المعتزلة لمبدا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هذا الذى يفرضه الإسلام على الفرد وعلى المجتمع كله ودولته ، بل على الحكام أنفسهم . أما ضمان تطبيق حقوق الإنسان فانه كان مرتبطاً بتطبيق نظام الحسبة فى الإسلام[1] الذى كان من إختصاص والى المظالم، وتتولى نظام الحسبة الآن فى شيئ من القصور بعض الوزارات التنفيذية ، بينما كان المحتسبون يلتزمون بالتنفيذ المباشر لاحكامهم فى الأسواق والأماكن العامة مباشرة تحقيقاً للردع السريع لكل عوامل الإنحراف، والفتن، والفساد .

ومن الجدير بالذكر أنه لابد من التنبيه إلى ضرورة أن يستند المشرعون فى تشريعاتهم إلى هذه الأصول الإسلامية التى كانت سباقة إلى الدعوة للحفاظ على كرامة الإنسان وحقوقه بدرجة تفوق مواقف المنادين المحدثين بحقوق الإنسان ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أو مبادئ الأخلاق العامة والخاصة وما أتفق

---

(١) راجع : رسالة ماجستير تحت إشرافنا عن الحسبة فى الإسلام ونظائرها المعاصرة ــ كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية ١٩٩٣ .

عليه الإنسان فى كل زمان ومكان من فضائل العقل والحس ، ومع ما تقبله الفطرة الإنسانية المجردة من الأهواء وما يرتضيه العقل والمنطق القويم .

ونختتم كلامنا هذا بأن نضع إشتراطاً واحداً ، وهو الا ينبرى أنصاف المثقفين الاسلاميين أو العلمانيين أو الحكام، أو كل صاحب مصلحة فى الوقوف أمام المد الإسلامى لكلى يعطى لنا رأيه فى النظام الإسلامى، وعَمّا اذا كان هناك ثمة إرتباط جوهرى بين الدين والدولة فى الإسلام أم لا؟ إذ ينبغى أن يكون هذا الذى يصدر حكماً فى هذه القضية الأساسية ممن درسوا الإسلام دراسة بعيدة عن الاهواء والمصالح المفسدة للنظر وللعمل على أن يستبعد فى بحثه الممارسات الإسلامية فى العصور السابقة تلك التى كان يحيد فيها بعض الحكام عن الإسلام ومبادئه، ذلك أن الإسلام لايمكن أن يتحمل أوزار الممارسات الخاطئة للمسلمين فى أى عصر من العصور، ونحن ننبه هنا أخيراً إلى أن إلتزام البعض بالشعارات البراقة، والعلمانية، والوضعية، والعقلانية غير السليمة، واستبعاد المبادئ الدينية ... ان ذلك إنما يعد من الأمور الخطيرة على الإسلام والمسلمين ، وفى مقابل هذا يجب أن توضع الأمور كلها موضع دراسة عقلية تحليلية متعمقة للإجابة على سؤال هام وهو هل يمنع الإلتزام بتعاليم الإسلام من الأمور التالية :

١ ــ احترام حرية الفرد والجماعة، وكفالة الحريات العامة وأهمها حرية التعبير.

٢ ــ إقرار الديمقراطية بكل صورها مع إلتزام بالتعددية الحزبية، وعدم إقرار الحكم الشمولى والذى يتمثل فى سيطرة حزب واحد على الحكم .

٣ ــ ألا تكون المساواة والعدالة المطلقة مدخلاً إلى إستغلال الإفراد والجماعات والإخلال بعدالة توزيع المنتج الاجتماعى .

٤ ـ ان يكون هناك من القرارات أو القوانين ما يحفظ القيم الأخلاقية وغيرها في المجتمع مع كفالة المراجعة والردع لكل الإنحرافات التى تظهر فى المجتمع.

٥ ـ رفض المجتمع بشدة لكل دعاوى العصمة للحاكم ، وكذلك دعاوى التكفير وسلب الولاية الشرعية عن الدولة إلا إذا أتى ذلك عن طريق الإجماع ، أى أن يتم عزل الحاكم عن طريق السلطة الشرعية اذا لم يلتزم بتعاليم الدولة الإسلامية .

٦ ـ ينبغى أن نضع نصب أعيننا أن فكرة الحاكمية لله مرتبطة بفكرة علم الله المحيط ، وكيف انه مادام الفرد مسلماً فإنه لابد من أن يسلم بأن الحكم لله وحده، ولكن علم الله المحيط لايضغط على العبد فى تصرفه وسلوكه وإلا لبطل معنى الجزاء الأخروى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الحاكم أو ولى الآمر أو رئيس الدولة ليس مفوضاً من الله، أى أنه ليس لديه أى تفويض إلهى بممارسة سلطات الحكم وشئونه ، وإلا لما كان هناك أى معنى لقوله تعالى ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ وكذلك فان هذا التفويض الملزم سيبطل تماماً معنى البيعة للحاكم الإسلامى أى قيام أختيار الحاكم على أسس ديمقراطية، وهذه البيعة هى مسلمة أساسية فى الإسلام، وأننا نتساءل هل كان هذا التفويض عند أصحابه من الشيعة مثلاً ـ الذين يسلمون بهذه الآراء ـ هل كان له أى تأثير على الإلتزام الدينى أو الاخلاقى أو السياسى لجميع الأفراد والجماعات الإسلامية التى تؤمن بهذه الآراء، إذ لو صح ما يفترضه العلمانيون من أن الحاكمية لله ستعطل السلطات المدنية، وستكون مقبرة للحرية وللفكر وللعلم والثقافة على وجه العموم، ولكان معنى هذا التسليم بأن الحضارة الإسلامية فى كل

صورها كانت زيفاً ، فان التقدم الحضارى المعاصر فى إيران، وفى باكستان، وفى غيرها من الدول التى ينتشر فيها التشيع يعد من قبيل الزيف والبهتان إذا سلمنا جدلاً أنها تنعم بالديمقراطية بكاملها، وهذا غير صحيح بمعنى أنه لاتعارض بين الحاكمية الالهية، وبين ممارسة الناس الحرة لحياتهم ولسلوكهم حتى لو أدى بهم ذلك إلى ان تطبق عليهم الجزاءات المختلفة ، وقد سبقت لنا الإشارة إلى أنه اذا كانت المسيحية قد تدخلت فى حياة الناس وفى علمهم فى القرون الوسطى، واخضعت كل أنشطتهم لوجهة النظر الدينية، فاننا نجد أن الإسلام استند إلى تعاليم الكتاب والسنة التى ليست من صنع البشر العاديين والتى لم تتغير على مدى العصور بالزيادة أو بالحذف بعد اكتمال معنى الدين، وهكذا لم نجد فى الإسلام أى "أكليروس" يتحكم فى الناس ويطاردهم أو يصادر حرياتهم ماداموا متمسكين بعقائدهم الأساسية كما وردت فى كتاب الله بالإضافة إلى سنة رسوله الكريم ﷺ بل إن البعض من المسلمين يرون الإلتزام بالقرأن وحده وعدم التمسك بما ورد فى السنة ، إذا لم يرد له أى مقابل فى نصوص القرآن ، بل أننا نذكر أكثر من ذلك ، أن الدولة لاتعاقب من لايصلى أو لايصوم أو لايزكى أو لايحج ان استطاع إلى ذلك سبيلاً، أو حتى من يرفض النطق بالشهادتين ، بل تترك أمر هؤلاء كلهم إلى الله أى إلى الحساب الأخروى وهذا ما تلتزم به الدولة الحديثة فى الإسلام فهى ترغب ولاترهب، تبشر ولاتنفر ... فأين إذن التضييق على حرية الأفراد وإلزامهم بالقيام بممارسة شعائر الإسلام أو بضرورة إعتناق عقائده فلا شأن للدولة الحديثة بأى مروق عن الدين مادام ينحصر فى دائرة حرية الفرد وحده. أما اذا حاول أن يدعو إلى الإلحاد علناً أو أن يسب المسلمات الدينية عن طريق وسائل الاعلام مثلاً، فإن أية جماعة تحترم

نفسها لابد من أن توقف دعواه وأن تدفع به إلى المحاكمة لينال جزاءه العادل من قصاص المجتمع الإسلامى .

وسيقول البعض ان بعض المذاهب المادية تنكر الدين بصفة عامة فكيف تهاجمها وتقضى بذلك على حرية الفكر وحق التعبير؟ والرد على ذلك :إن المسلمين قد تسامحوا فى العصر الحديث بأن تذاع فى مجتمعاتهم الأراء الداروينية، والماركسية، والوضعية، وغيرها بشرط ان يتاح الرد عليها فى كل مناسبة، وألا يتربص أصحابها بالدعاة الاسلاميين الذين ينتقدونها عن طريق الوسوسة وشحن نفوس الحكام بالبغضاء والحقد على الاسلاميين فى كل مكان، واظهارهم دائماً بمظهر المتأمرين على الحكم حتى يتوجسوا خيفة منهم، وبذلك تقوم الصراعات الدموية بين الحكام والجماعات الإسلامية وحتى المعتدلة منها كنتيجة للوشاية الظالمة والحاقدة من أصحاب النميمة من الماركسيين والعلمانيين والماديين ، وهذا ما يحدث اليوم على الساحة السياسية فى معظم بلاد الإسلام، وكذلك فينبغى أن يكون للمسلمين حق الردع القوى العنيف لكل من تسول له نفسه مهاجمة الرموز الإسلامية الكبرى مباشرة واعلان ذلك على الناس، ومن بينها التشكيك فى نبوة الرسول والانبياء وإظهار الأولياء بصورة لاتليق بمكانتهم الروحية، وتدنيس المساجد وأماكن العبادة، وتحريف نصوص القرآن ، والسخرية من كل المواعيد الدينية وغير ذلك من الدعاوى المستفذة التى يدفع بها أعداء الإسلام للنيل من عقيدته ومبادئه، وكيف انه من الواجب شرعاً على المسلم ان يواجه هؤلاء الذيم يخرجون إلى الناس بالسب فى المعتقدات الدينية بالردع والمحاسبة الواجبة .

وهكذا فإننا لانجد أياً ما قلبنا الأمر أى مدخل للمعترضين على الإرتباط بين الدين والدولة فى الإسلام، وقد اتضحت لنا الاجابات الحاسمة من خلال

هذا الكتاب على ضحالة مآخذهم ، وكيف أن الإسلام هو دين العقل والحرية، وأن مبادئه وشريعته موجهة دائماً كما يتبين لنا من مقاصده إلى إسعاد الإنسان وتحقيق خلافته فى هذه الدنيا مادامت هى المسيرة إلى الآخرة، وهكذا فإن المقصود كما ذكرنا هو الهجوم على الإسلام والقضاء عليه كدين حتى يتفكك المجتمع الإسلامى وينال منه أعداؤه، ونحن كفيلون كمسلمين بالوقوف فى مواجهة أعداء الإسلام والخارجين عليه من غير المسلمين .

إلا أننا نتوجه إلى الله بأن يساعدنا فى كف شرور وغوائل المتربصين بالإسلام من بين الذين يعيشون بين ظهرانيه ، ومن يلوذون بهم من بعض الحكام الذين يتظاهرون بأنهم يساندون هذا الدين ، وهم فى الحقيقة أشد ضرراً ونكيراً على الإسلام وأهله من غير المسلمين ، والله يهديهم جميعاً إلى الحق وإلى صراطه المستقيم .

ملـحق

المـدخـل الإسلامى للأيديولوجية العربية

(نحـــو أيديولوجيـة عربية إسلامية)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

البقرة - ١٣٦

معنى الأيديولوجية[1]

تضاربت الآراء منذ القرن الثامن عشر إلى عصرنا هذا حول تحديد مدلول "الأيديولوجية" والمعانى الذى ينطوى تحتها هذا المصطلح بحكم اشتقاقه ، ونحن نساءل عما إذا كان اللفظ يشير إلى مجموعة الأفكار المجردة المستمدة من الإحساس كما يرى De Tracy واضع هذا المصطلح فى القرن الثامن عشر، أو أنه أُريد به ــ فى عصر نابليون ــ الدلالة على فئات المعارضة السياسية لحكمة

---

(١) Aiken (Henry), The Age of Ideology, Mentor Books, U.S.A., 1956.

يصف المؤلف القرن السابع عشر بأنه عصر العقل، والقرن الثامن عشر بأنه عصر نقد العقل، أما القرن التاسع عشر فهو عصر الأيديولوجية ويسم مذاهبه الفلسفية جميعاً بالطابع الأيديولوجى .

Aron.(L.), Ideologie, Recherches Philosophiques (Vol.VI, 1937,P.65)
Barth (Hans) , Wahrheit und Ideolgie, Zurich, 1945.

كتاب شامل وجامع عن الأيديولوجية .

Goldmann (Lucien), Sciences Humaines et Philosophie, Paris 1952.

وينطوى الكتاب على محاولة لتعميق مضامين الموقف الماركسى.

Gurvitch (George), Sociologie de la Connaissance, Paris.

يعرض هذا الكتاب لجميع الآراء مع اتجاه واضح الى الانطلاق من الفكر الماركسى .

Marx (Karl) and Engles, The German Ideology, Berlin, 1932.

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة نقد الاقتصاد السياسى بقلم كارل ماركس ــ لودفج فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية بقلم أنجلز .

Moreno, Who Will Surivie, New York, U.S.A.

يشتمل هذا الكتاب على فصل عن الأيديولوجية .

Picavels, Les Ideologues, Paris, 1891
Popper (Karl), The Open Society and Its Enemies, London; 1945.

يهاجم كارل بوبر فكرة الأيديولوجية .

Parsons (Talcott), The Social Systems, Glenco, 1951.

وهو يبحث فى الأيديولوجية فى الاتجاه المعارض لوجهه النظر الماركسية فى العلوم الاجتماعية

E.of Philo; Webster's Dict; Voc. Philo., Lalande, Int. Ency.of Social Sciences.

من بين الجمهوريين والثوريين، أم يشير إلى مجموعة الأفكار المعبرة عن مصالح الطبقة الإجتماعية كما يرى كارل ماركس وأنجلز ـــ وكيف أن الأيديولوجية في نظره إنما يقصد بها مجموعة الأفكار التى تنطبق باسم البورجوازية، والتى كانت ـ فى نظره ـ لاتستقيم مع الماركسية أى مع المادية الجدلية التى نصبها هو واتباعه علماً للطبيعة ، ومع ذلك فقد أصبحت المادية الجدلية نفسها فيما بعد سلاحاً ايديولوجياً للطبقة العاملة ، وارتبطت بالعلم والمعرفة فى نطاق التركيبات الفوقية الظاهرة .

والحقيقة أن الأيديولوجية لايمكن أن تتطابق مع العلم على أى صورة من الصور من حيث أنها لاتخضع لمنطق العقل لانطوائها على وعى تاريخى يعبر عن وجدان الجماعات والشعوب وارتباطها بالسلوك فى الحياة ـ وليس على فكرها النظرى فحسب ـ بل عن ارتباط الموقف الفكرى والشعورى بسلوك الأفراد والجماعات فى خضم الحياة .

على أن مفكراً مثل أيكن Aiken يرى أنه حتى الفكر الفلسفى النظرى المجرد لايعتبر ترفا تحف به المخاطر ، بل هو فى حقيقة الأمر عنصر لازم وضرورى لاغنى عنه للانسان اذ هو ذو تأثير أيضاً على سلوك المرء فى مضمار الحياة ، (المقدمة Age of Ideology P. VIII) ومع هذا فنحن لانتفق مع هذا الرأى ذلك لأن الفكر النظرى قد ينحصر تأثيره المباشر فى نطاق الصفوة من المفكرين، وربما امتدت آثاره إلى الجمهور فيكون إنتشاره بصورة مبتسرة مهزوزة كما حدث بالنسبة للوجودية فى عصرنا هذا .

وقد أشار كارل مانهيم (فى كتاب الأيديولوجية واليوتوبيا) إلى أن ثمة نوعين من الأيديولوجية : فاسدة وهى التى ننعت بها آراء الخصوم فنقول : "أن

أيديولوجيتهم فاسدة ولاتقوم على أسس صحيحة ، وأن أصحابهـا يعلنـون غـير ما يبطنون من آراء ويستترون وراء شعارات زائفة تخفى نواياهم الحقيقية حفاظاً على مصالحهـم واطماعهم ، وينطبق مدلـول هـذه الأيديولوجيـة المذمومـة علـى الأيديولوجية النازية التى كانت تعلن على الملأ أنها تعبئ الشـعـب الألمـانى لرفـع الظلم الذى حاق به بعد هزيمته فى الحـرب العالميـة الأولى والحفـاظ علـى المجـال الحيـوى لهـذا الشـعـب، بينمـا كـانت تخفـى فـى بدايـة الأمـر طابعهـا العنصـرى والتوسعى. وينطبق هذا كلـه أيضـاً علـى الأيديولوجيـة الصهيونيـة التـى تخطـط للتحكم فى المنطقة بل وفى سياسات العالم أجمع تحت ستار انشـاء وطـن قومـى لليهود المستضعفين فـى الارض، كمـا ينطبـق علـى أيديولوجيـة جنـوب افريقيـا وأيديولوجية البيض ضد السود فى أمريكا .

أما النوع الثانى من الأيديولوجية فهو الـذى يعبر عـن الـتركيب أو البنية الفكرية لطبقة من الطبقات فى عصر من العصور، أو يشير إلى الطريقة التى ينظر بها فرد أو جماعة إلى عالم الواقع .

ولكن مفهوم الأيديولوجية الآن قد اتسعت دائرته إلى حد كبير فـأصبحت لاتعنى طبقة دون أخرى بعد أن تحللـت الطبقـات إلى فئـات، وتلاشـى المفهـوم الطبقى الماركسى مع ظهور عوامل وضغوط اجتماعيـة جديـدة وشـيوع أفكـار التحرر والسلام والعدل ومناداة الشعوب فـى كفاحهـا العـادل ضـد الاستعمار والتخلـف بـآراء ثوريـة سياسـية واجتماعيـة واقتصاديـة تؤلـف فـى مجموعهـا أيديولوجية خاصة لكل فريق من البشر، بل إن انقسام العـالم الى شـرق وغـرب قد كشف عن أيديولوجية للغرب تقوم على أساس نظرية اقتصادية خاصة تتبنـى فكرة السوق الاوروبية المشتركة ، ونظرية اجتماعية وثقافية لها طابع مميز يختلف عن اقتصاد الشرق الشيوعى ومفاهيمه، وثقافته المكونة لأيديولوجيته .

وهناك بعد الغرب والشرق نجد مجموعة الدول النامية أو دول العالم الثالث ولها أيديولوجيتها الخاصة بها. ولايزال كل تجمع أو فريق ممن ذكرناهم يبذل غاية جهدة فى مجال العلم والتكنولوجيا لدعم ايديولوجيته وتثبيت اركانها، ويزعم أصحاب كل ايديولوجية انهم يتوخون النظرة العلمية والانسانية، ويتمشون بطريقة موضوعية مع العقل والمنطق و مبادئ العدالة ، بل وتحمل شعاراتهم الدعائية ما يفيد أنهم مع الحق سائرون وعلى مستوى الخير سالكون، وهذا كله لاينفى ذاتية منطلقهم الذى يشجب أى أثر للموضوعية، ومن ثم فإنه كما يقول أحد المفكرين :" إن صراع الأيديولوجية المعاصرة إنما يكشف عن زيف وتهاوى الكثير من مبادئها مما لايسمح بأن نضع معيار نقيس به مدى صحتها أو صدقها ، فتظل فى دائرة الأوهام والأساطير والأحلام تحتمل نوعاً من الصحة البراجماسية فحسب، وذلك فى حالة تحققها ونجاحها بالقوة الغاشمة، ومثال ذلك ما ادعاه الألمان من "أن ألمانيا فوق الجميع "، وما ادعاه اليهود من "أنهم شعب ا لله المختار"، وما ادعاه موسولينى من أنه صاحب ميراث الحضارة الرومانية، وأن البحر الأبيض بحيرة إيطالية الخ .....

وقد أنجز روبرت لين Robert Lane مؤخرا (وهو أحد الكتاب الأمريكيين المعاصرين) كتابا عن الأيديولوجية السياسية[1] كشف فيه بأسلوب علمى استبيانى وإحصائى ـ بعد دراسة قام بها فى بيئة مكانية محدودة فى الولايات المتحدة الامريكية ـــ عن ثلاث اتجاهات فى البحث عن الأيديولوجية:

أ ـ الكشف عن الأيديولوجية السياسية المتكاملة عند العاديين من البشر.

---

(١) Lane (Reobert), Political Ideolgy, Free Press, New York, 1968.

ب ــ وتقودنا حصيلة هذه الوقائع الأولى إلى الشكف عن منابع الأيديولوجية واصولها فى الثقافة وفى تجربة المواطن العادى وخبراته الذاتية ، حيث نتعرف على مصادرها وأسباب استمرارها بوجه عام .

جـ ــ واستناداً إلى حصيلة (أ) ، (ب) نتجه للكشف عن الطرق والأساليب التى تساند بها الأيديولوجية النظام السياسى القائم مهما كانت صبغته، وكذلك النظام الاجتماعى .

ولكن هذا الاتجاه الجديد فى دراسة الأيديولوجيات عند (روبرت لين) يحاول فيه صاحبه اعتبار الأيديولوجية السياسية الممثل الوحيد والهام لأنواع الأيديولوجيات ، ثم يتدرج من مفهوم المواطن العادى لها إلى أن يصل إلى مصادر الأيديولوجية، وأخيراً إلى الكشف عن الأساليب التى تساند بها الأيديولوجية النظام السياسى .

أما منهجنا فى البحث فهو لايقتصر على المفهوم السياسى للأيديولوجية فحسب بل يستهدف الإحاطة بالمعنى العام للأيديولوجية من النواحى السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، والأخلاقية، والمزاجية، وكل ما ينطوى عليه الشعور العام للمواطن من وعى ديناميكى بتاريخه متأثراً بالبيئة المكانية والبشرية، ومؤثراً فيمن حوله من البشر ومتأثراً بهم . فقد أدرك علماء الاجتماع المعاصرين أن دراسة الأيديولوجية لدى أى جماعة يجب أن تتجه إلى رصد نسيج العلاقات المترابطة داخل الجماعة المدروسة بحيث نصل بعد هذه الدراسة العلائقية الى الكشف عن النسق الذى يحرك هذه الأيديولوجية ، وقد اختصت

المدرسة السوسيومترية بالقيام بمثل هذه الأبحاث ولاسيما عند جورفيتش، ومورينو .

ولما كان من العسير القيام بمثل هذا البحث الميدانى فى مدة قصيرة، فضلاً عن أهمية الدراسة الفلسفية والتاريخية فى هذا الموضوع، لهذا فنحن نكتفى بعرض وجهة نظر مبدئية تعد كفرض إجرائى يصلح للتحقيق الإمبريقى فى المستقبل، ومع هذا فاننا نحس بأن الوقائع التى نعرضها إنما نستشفها من خلال الوجدان العربى خلال التاريخ واستمداداً من أصوله وينابيعه الأولى .

وسيكون من السهل علينا أن نرصد المعطيات الأيديولوجية فى الوجدان العربى إذا ما وضعنا نصب أعيننا تعريفا للأيديولوجية يجمع الاتجاهات الصحيحة التى أشرنا إليها .

تعريف الأيديولوجية :

الأيديولوجية تنطوى على مجموعة من العقائد والأفكار والتصورات والمشاعر، والتقاليد، والآمال، والظروف الزمانية والمكانية التى تؤثر فى أنماط السلوك للأمة والجماعة . ومن ثم فلابد من ملاحظة الارتباط الوثيق بين الفكر والعمل فى مكونات الأيديولوجية بصفة عامة والأيديولوجية العربية التى نحن بصدد الكلام عنها صفة خاصة .

ماهى الأيديولوجية العربية :

ماهى الخطوط العريضة للأيديولوجية العربية ، أهى مجموعة الأفكار، والقيم والآمال، والأهداف التى تؤثر فى سلوك المواطن العربى بقطع النظر عن الأفكار والمعارضات الخاصة بالجماعات الصغرى المنطوية تحت التجمع العربى الكبير، ومنها آراء الصفوة التى يمكن أن تشكل بذاتها أيديولوجية خاصة يعتنقها فريق من المثقفين ؟

ولكن مدار البحث فى رسالتنا هذه هو التعرف على أفكار المواطن العربى العادى، ومشاعره، وتصوراته وآماله فى المستقبل ، تلك التى تحدد مسار تجربته الحيوية الواعية التى يرتبط فيها تراث الماضى بآمال المستقبل وأهدافه .

منهج البحث :

والأمر الذى لاشك فيه أن هذه المعطيات التى سنعرض لها هى بعينها وقائع الوجدان العربى التى يمكن لنا استشفافها من خلال الاتصال المباشر ووسائل الإعلام ومراجعة أمهات كتب التراث، ومتابعة الأحداث على مسرح الحياة العربية المعاصرة. واخيراً فإنها وقائع تنبع من وجدان عربى يشهد بها غير العربى، وينطق بها العربى، ويشعر بأنها احاسيس وأفكار تنطلق من جوانبه، وتنطوى عليها جوانحه .

الأساليب الاجتماعية والأساليب العقلية :

ومن ثم فإن الباحث فى مجال الأيديولوجيات لا يتوقع أن تنكشف له النتائج على صورة تركيبية منطقية، أو على صورة عقائدية متماسكة من خلال

العمل الميدانى ـ سواء أكان من قبيل المسح أو منصبا على عينات مختارة ـ ، اللهم إلا إذا تدخل فى عملية الصياغة أصحاب مذاهب ونظريات عقائدية يحاولون اقحامها على أفكار المواطن العادى، وهذا نوع من الإيحاء العقائدى الذى قد ينطوى على تفسير أو آخر للحركة القومية فيرتفع كالشعارات عن طريق السلطة المؤقتة ، ثم لايلبث أن ينهار ويتلاشى فى غمضة عين ـ كرواسب وزبد الصراعات القومية المستعمرة ـ إذا لم يكن على ارتباط وثيق بوقائع الوجدان الشعبى العام .

مصادر الأيديولوجية العربية

وعلينا قبل أن نكشف عن وقائع الوجدان العربى أن نحدد مصادر أو منابع الأيديولوجية العربية أو الأصول التى تصدر عنها الأفكار والمشاعر والأحكام التى تحدد أنماط السلوك العربى. وقد لانستطيع الاحاطة بهذه المصادر كلها لما ينطوى عليه هذا المسلك من خطورة لأنه يهمل بعض المصادر المجهولة لدينا والتى توافدت تأثيراتها على المنطقة العربية من خلال عمليات الانتشار الثقافى التى وجدت فى هذه المنطقة مجالا فريداً للتقابل والاختمار والتفاعل فى بيئة مكانية هى نقطة التقاء بين قارات ثلاث . ولهذا سنكتفى باستعراض أهم هذه المصادر وهى : العروبة ، والدين ، والبيئة المكانية والثقافية ، واللغة، والتاريخ المشترك ووحدة المصير .

وليس هناك شك فى أن هذه المنطقة التى يسكنها العرب تشكل وطنا لهم يمتد من المحيط إلى الخليج العربى، وتعتبر فى الجزء المركزى منها ـ أى ما يسمى بالشرق الادنى ـ منطقة هبوط الوحى ، وحياة الأرض فيها ترتبط بأحكام السماء وتصطبغ بلونها، وهى منطقة ظهور الاديان السماوية منذ دين ابراهيم عليه السلام إلى ظهور محمد ﷺ ، ولهذا اصطبغت الحياة اليومية للمواطن العادى فى هذه المنطقة بصبغة روحية ذات رباط وثيق بأحكام السماء ونذر الغيب ومواعيد النبوة وأقطاب الحياة الروحية ومثلها . يتساوى فى هذا الشخص الممارس للعبادات وغير الممارس لها فى الأديان الثلاث وغيرها، وبعبارة أخرى فان الخشية من عقاب السماء بعد الموت ولقاء الله فى عالم آخر غير منظور، يعتبر امتداداً حتمياً ومنطقياً لحياتنا هذه، قد صبغ حياتنا فى هذه المنطقة بصبغة الدين وبالشعور الدينى على وجه العموم .

العروبة والإسلام :

ولما كان الإسلام هو دين أغلبية المواطنين فى المنطقة، وكانت العربية لغة القرآن، وكان روح الإسلام وثقافته هما لحمة الثقافة العربية وسداها منذ أن دخلت الامة العربية طور التكوين القومى منذ أربعة عشر قرنا مضت ، فأثرى الإسلام تركيبها القومى الداخلى وأمدها بامكانات جديدة فى مسيرة تطورها، فان أول ما يتبادر إلى اذهاننا هو التساؤل عن العلاقة الجدلية بين الإسلام والعروبة؟ فهل يتعارض الإسلام مع العروبة ، أو تشتق العروبة من الإسلام، أو ينطوى أحد الطرفين على الآخر ؟؟

إن الاجابة عن هذا السؤال تلقى ضوءاً كاشفاً على مضمون التيار الوحدوى العربى ومداه، من حيث الوحدة العربية ـــ كحركة قومية عظمى ضاربة فى المنطقة تستمد وجودها من كيان عربى انصهرت حياته وآماله فى بوتقة تاريخ مشترك طويل ولغة قومية حية معبرة عن متطلبات الحضارة والحياة والعلم والفن ـ هى الركيزة الأولى فى بناء الايديولوجية العربية .

لقد تسرع لفيف من المثقفين ففرغوا معنى العروبة من كل محتوى دينى، ونادوا بعلمانية القومية العربية تأثراً منهم فى ذلك بمبادئ الثورة الفرنسية العلمانية وخضوعاً لبعض العوامل المحلية التى تخوف القوميون من خطورة استغلال الاستعمار لها فى اشاعة الفرقة واعاقة التيار الوحدوى .

ولكن الحقيقة التى لامناص منها هى أن اللغة العربية ـــ وهى وسيلة التفاهم بين العرب ـ لايمكن ان تزدهر أو تحيا بدون دستورها الأول أى القرآن.

ولهذا فإن الكثيرين ممن أسهموا فى حركة إحياء التراث العربى فى الفترة الأخيرة من العصر العثمانى ، وقبل الحرب العالمية الأولى، وكانوا من رجال الدين المسيحى كالاب "أنستانس مارى الكرملى" ــ قد درسوا القرآن واستمدوا لغتهم منه مع احتفاظهم بعقائدهم ، وهذا يعنى أن العربى لابد له ــ إذا أراد أن يحتفظ بصلة "العروبة" ــ أن يلتزم لغة وثقافة وحياة بالقرآن . وهذا التخريج يفضى بنا إلى التمييز بين الإسلام بالمعنى العقائدى ، والإسلام بالمعنى الحضارى.

الإسلام العقائدى والإسلام الحضارى:

فالمسلم بالمعنى العقائدى هو الذى يؤمن بالعقيدة الإسلامية ويلتزم بأداء عباداتها وفرائضها ، والمسلمون العقائديون يشكلون الغالبية العظمى من العرب.

أما المسلم الحضارى فهو الذى يدين بدين سماوى آخر غير الإسلام ولكنه يدخل فى الزمرة العربية ، لأنه يشترك مع الغالبية فى اللغة والتاريخ المشترك والآمال والأهداف فضلاً عن البيئة المكانية، ويغترف مع المسلمين جميعاً من تراث فكرى وثقافة واحدة، وعلى هذا نجد اسماء كثيرة من أهل الذمة شقت طريقها فى الدول الإسلامية عبر التاريخ ومنهم الوزراء والأطباء والمفكرون، وهؤلاء جميعاً قد أظلتهم الحضارة الإسلامية وجاءت أفكارهم وليدة البيئة الإسلامية وثمرة للإنتاج الثقافى الإسلامى فى ذلك الوقت .

وعلى هذا النحو فإن العرب : مسلمون وغير مسلمين عقائدياً يندرجون جميعاً تحت معنى الإسلام الحضارى. ونحن فى محاولتنا تفسير المحتوى الواقعى للعروبة وبيان كيف أنه يرجع إلى الإسلام، لانلتمس تفسيراً أو تحليلاً متعسفا،

فالحق أن المواطن العربى بعامة لا يكاد يفصل بين معنى العروبة ومفاهيم الإسلام، وعلى الباحثين ـ إذن ـ أن يتعرفوا على مصدر هذا الفهم الشائع عند غالبية الشعوب العربية .

وحدة الدين :

على أن ثمة تفسيراً لمفهوم الإسلام قد يقنع المتصدرين للدعوى العلمانية ومن التف حولهم، وهو تفسير نابع من ذات النصوص القرآنية:

لما كان المصدر الأوحد للأديان السماوية هو إله واحد، فمن ثم ينبغى أن يكون مايصدر عنه من رسالات متطابقة من حيث الجوهر، ويكون اختلافها بحسب الزمان والمكان ومناسبات النزول فحسب، وهذا يفرض علينا أن نتناول هذه الأديان من منظور واحد تكاملى، إذ لا تعارض بين اليهودية الحقة والمسيحية الحقة والإسلام الحق، بل لابد أن يكون ثمة تلاق وارتباط وتكامل بين هذه الأديان جميعاً.

ونحن نجد فى القرآن تصديقاً لهذا البرهان النظرى البحت، وتواجهنا آى الذكر الحكيم بما نزل على الرسول الكريم يوم الفتح : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] .

والمقصود بداهة بهذا القول الآلهى ، أن الله قد ختم رسالاته بالإسلام وأنه أكمل به معنى الدين .

ولما كان الله عز وجل قد ذكر فى محكم آياته أن الرسالات السماوية

---

(١) ٥/٣٠.

بدأت بابراهيم أبى الأنبياء(١) وأن إبراهيم كان مسلماً حنيفاً ولم يكن يهودياً او نصرانياً(٢) وان الإسلام الذى جاء به الرسول الكريم، تلقياً من الوحى، هو ختم للإسلام الذى بدأ به ابراهيم ـ يكون معنى هذا أن مطلق الدين السماوى هو "الإسلام" كما ورد فى الذكر المبين ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٣) .

فقد بدأت مسيرة الإسلام بإبراهيم وتتابعت مسيرة الوحى من السماء وتمثلت فى مواقف عدة منها ثلاث رئيسية هى الموسوية والعيسوية والمحمدية، فثمة أربع مراحل كبرى للإسلام هى : الإسلام الإبراهيمى الحنيف ثم الإسلام الموسوى ثم الإسلام العيسوى ثم الإسلام فى مرحلة الختم على عهد الرسول.

نزول الوحى على موسى لهداية قومه وتبصيرهم بشريعة الله وتميزت التوراة بطابعها الحى، ولكن اليهود فسقوا وبدلوا الكلم عن مواضعه، وقست قلوبهم واعتدوا على أنبيائهم، فكان من الضرورى أن ترسل السماء كلمتها بدين الحب (الله محبة) دين عيسى بن مريم لكى يصلح قلوب بنى اسرائيل، ولهذا جاء مفرغاً من الشرائع التفصيلية .

---

(١) ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ (سورة ٣٠ الآية ٣٠) .

(٢) ﴿ماكان إبراهيم يهودياً ولانصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ سورة رقم ٣/ آية ٦٧ وكذلك الاية رقم ١٣٥- سورة ٢.

(٣) سورة رقم ٣/ آية ١٩ وراجع أيضاً الآيات التالية التى تعطى لنا فى مجموعها صورة متكاملة عن وحدة الدين، ويشير الرقم الأول إلى السورة والرقم الذى يليه للآيات : ٦٢/٢، ١٠٩، ١٣٥، ١٤٠ - ١٩/٣، ٦٤، ٦٧، ٨٤، ١١٣، ١٩٩- ١٢٥/٤، ١٦٢ - ٣/٥،٤٤،٤٨،٦٩ - ٥٢/٢٨،٥٣ - ٤٦/٢٩ - ٣٠/٣٠ - ١٤/٤٢ - ٢٨/٤٨ ، ٢٩ - ٥/٩٨ .

وجاء الإسلام المحمدى ليجمع بين التيارين : المادى والروحى وليتم الشريعة ، وهذا هو معنى الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وقول الرسول الكريم " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وفى هذا التفسير رد على الذين يتشككون فى معنى انتهاء الرسالات بالرسول الكريم ، فالله سبحانه وتعالى قد أتم نوره وأكمل كلمته بالقرآن الذى جمع بين دفتيه قواعد السلوك والهداية فى الدنيا والاخرة .

وهكذا نجد فى مقولة "وحدة الأديان" على النحو الذى سقناه ـــ تفسيراً وتبريراً لما يشعر به المواطن العربى العادى من حيث انتمائه الأول إلى الإسلام، وإنه إذا فرغنا العروبة من محتواها الإسلامى بالمعنى الحضارى على الاقل نجد لها معنى لدى هذا المواطن الذى هو محور الدراسة للكشف عن أيديولوجيته .

ومع هذا فان الأديان الأربعة الكبرى تصل فى النهاية إلى نتيجة واحدة ألا وهى التوحيد فاذا أضفنا إلى ذلك أن "الإسلام يعنى التسليم بأوامر الله ونواهيه واطاعتها والانقياد والاستسلام لله عز وجل ... وجدنا أنه لايوجد فى هذا المعنى للإسلام ما يبرر ما حدث من احتكاكات تاريخية بين أصحاب هذه الأديان السماوية" .

نخرج من هذا العرض إلى أن التجانس والتماسك الذى يؤسس مفهوم الأمة العربية ويصلح أساساً لقيام دولة عربية واحدة، إنما يستمد مقوماته الواقعية من الإسلام كدين وكحضارة على السواء يرسم معالم الطريق لسلوك المسلم فى مضمار الحياة وينطلق من حقيقة راسخة هى أن الله كرم هذا الشعب

العربى فانزل القرآن بلغته[1] وبذلك رفع قدره فى نطاق الامة الإسلامية على العالمين[2] .

وهكذا أصبح الإسلام عقيدة وسلوكاً، يشكل البنية الأساسية للحياة العربية وقد أسهم فى بنائه المسلمون وغير المسلمين من العرب، فكان لهم تاريخ وكانت لهم أمة، وصار ركيزة أساسية من ركائز الوجود القومى العربى، ويعتبر المنطلق الاول نحو بناء مستقبل عربى للمسلمين وغير المسلمين من العرب .

فليس هناك شك إذن فى أن المواطن العربى إنما استمد معنى الأمة ومدلولها من مضامين الإسلام دين الأغلبية العربية بالاضافة إلى وحدة اللغة والاصل والتاريخ المشترك. وهنا نجد أن غير العربى أمة ونسبا لايلبث ـــ حينما يحويه التجمع العربى الكبير ــ ان يكتسب من معينه قوام خلقه وصفاته المزاجية مادام يتنفس فى جو الحضارة العربية ذات الثقافة الضاربة فى أعماق التاريخ، والمتفتحة على مستقبل مفعم بالامل والتقدم والتى بلورتها الظروف التاريخية والمكانية ووحدة المصير والحركات الثورية من أجل قيام نظام سياسى عربى موحد .

ومما يجدر الاهتمام به أن الإسلام هو أول الاديان وآخرها الذى احكم النظر فى تنظيم هذا البعد السياسى والاجتماعى، فبعد أن أتم بناء الفرد أخلاقياً اتجه إلى وضع الحدود والمعايير لتنظيم علاقاته مع أقرانه من البشر على أساس من العدل والحرية والمساواة . فظهرت صورة التكافل الاجتماعى فى محيط القومية

---

(١) ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾ س١٢/ آية ٢.

(٢) ﴿كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله﴾ سورة ٣/ آية ١١٠ .

العربية الواحدة الرامية إلى اقامة دولة ذات سيادة تحكم الأقاليم العربية وترعى شئون هذه الامة المتماسكة، ولذلك كام من الضرورى أن يكون لدى القائمين عليها تصور ما للنظام السياسى لهذه الدولة .

وعلى هذا النحو، فبعد أن رتب الإسلام للفرد حقوقه وواجباته وأفاض فى توجيهه إلى المثل والغايات الأخلاقية، عنى بأن يصب هذا كله فى بنية النظام السياسى للأمة دون استبداد أو جور على حقوق الأفراد .

النظام السياسى :

والكلام عن شكل هذا النظام يدفع بنا إلى أسلوب المقارنة المطروق بين النظم السياسية على اختلاف أشكالها. والحق ان النظام السياسى الإسلامى أقرب إلى الديمقراطية منه إلى سائر واشكال النظم الاخرى، وهى ديمقراطية قائمة على الشورى[1] .

ولكن القرآن والسنة لم يحددا شكل النظام بصورة قاطعة ، فترك للمسلمين تحديد معالمه عن طريق الاجتهاد العقلى، و لم يكن العصر حينذاك يسمح بتطبيق الديمقراطية الاثينية على الرغم من أن الفكر السياسى الإسلامى كان قد عرض لها .

وإذا كان المسلمون قد سلكوا من قبل (بعد الرسول والخلفاء الراشدين) طريقا يتعارض مع الديمقراطية الحقة واتبعوا أسلوب الحكم الفردى الاستبدادى

---

(١) ﴿وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ ٣٨/٤٢ .

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ ١٥٩/٣.

احياناً ، فإن ذلك لايعنى ان النظام الممارس يستمد شرعيته من أحكام الدين[1] .

فالقرآن ينص على ضرورة الحوار بين الآراء المختلفة فى غير العقائد أو فى غير ماورد فيه نص قرآنى واضح وصريح، ولايعنى الحوار هنا مجرد الاستشارة ولكنه حوار لابد أن ينتهى الى العمل برأى الأغلبية المطلوبة التى يشار اليها بالإجماع فى أصول الاحكام .

ولما كانت الدولة فى هذه العهود غير مرتبطة ارتباطاً عضوياً وثيقاً بجمهور المسلمين أو برجل الشارع العادى بصفة خاصة، لهذا فقد فسر الإجماع عند البعض على أنه إجماع أهل الحل و العقد أى ذوى السلطة والمفكرين والفقهاء وغيرهم، ولكن ما ينطبق على هذا العصور التاريخية لايجب بالضرورة أن ينسحب أيضاً على عصرنا هذا، لاسيما وأن النصوص الإسلامية قد تسمح فى رأى البعض بأن تكون الشورى على مستوى القاعدة الجماهيرية العريضة .

والأمر الثانى أن رئاسة الدولة أى الامامة أو الخلافة لابد أن تتم بالبيعة سواء أكانت صورية فى كل نظام وراثى ، أو عامة فينشأ عنها النظام الجمهورى[2] .

---

(١) ونشير هنا إلى ان حكم الفرد المستبد يتساوى فيه الحكم الوراثى والحكم الجمهورى على السواء، وقد تستقيم الديمقراطية فى ظل الملكية أو الجمهورية اذا ما سهر الحاكم على تدبير شئون الرعية وتطبيق أحكام الشريعة .

(٢) وقد تحقق هذا الشرط خلال عصور الإسلام التاريخية بالمبايعة الصورية فى نطاق الوراثة الأسرية و لم تكن الحقبة التاريخية الماضية تسمح بغير هذا التنسيق الملكى الوراثى . على أن أصحاب مذهب التشيع قد قصروا الامامة (رئاسة الدولة الدينية والزمانية) على الوراثة الدموية لرسول الله ﷺ.

هكذا تؤسس الديمقراطية الإسلامية شعار الحرية فى الوجدان العربى وهى الركيزة الثانية للمجتمع العربى الإسلامى، إذ أن ديمقراطية الإسلام إنما تقوم على أساس من الحرية والعدل والتزام حدود الله فى المجتمع، وإقامة توازن بين حق الله وحقوق الناس وتبنى موازين العدالة الاجتماعية تحقيقا للتكافل الاجتماعى وإشاعة الامن والاستقرار فى نفوس المسلمين فى ظل نظام يؤمن بعدالة توزيع المنتج الاجتماعى عن طريق تطبيق مبدأ الحلال والحرام ـ والالتزام بالحدود التى شرعها الله حماية للضعيف من القوى وللفقير من الغنى .

ونحن إذ دققنا النظر فى هذه التعاليم الخالدة خرجنا منها بصورة واضحة عن أسس النظام السياسى والاجتماعى فى الإسلام وهى تحدد فى مجموعها

- وكان البعض أيضاً قد قصرها على القريشيين عامة وليس على بنى هاشم خاصة الأمر الذى تصدى المعتزلة لشجبه فى ابانه .

أما الوجه الآخر للبيعة التى تصدر عن أهل الحل والعقد أو جمهور المسلمين عامة ـ تطبيقاً لمبدأ الإجماع ـ فقد تبناها فريق من المجتهدين وقصدوا بها التدليل على أن الإسلام يؤيد النظام الجمهورى الديمقراطى

ونحن فى بحثنا هذا إنما نعرض لآراء الطرفين التزاماً منا بمتطلبات البحث العلمى غير أننا نلاحظ بهذا الصدد ما يلى :

أولاً : أن الإسلام لايعطينا صورة معينة ومحددة لنظام الحكم السياسى. بل لقد حرصت نصوصه على الإشارة إلى جملة من المبادئ العامة التى ينبغى للمسلمين الاسترشاد بها فى كل زمان ومكان، وبذلك تركت مجالاً لتطويع النظام حسب دواعى التطور التاريخى للبشرية وفى ثناياها الأمة الإسلامية. وهنا نلمس مواطن الحكمة فى أعمق صورها .

ثانياً : إنه مهما اختلفت آراء الفقهاء حول شكل النظام السياسى وبنيته، فإننا نجد اتفاقاً بين جمهورهم على أن الإمامة لاتخلع إلا على المسلم الذى يتميز بصفات كثيرة يعددها الفقهاء كالماوردى وغيره فى كتبهم ومنها الورع والتقوى والفضيلة واكتمال العقل ونضج الفكر، والعلم بشئون الدين والدنيا الخ ....

شكل هذا النظام الحرى بأن يسمى باسم "العدلية الإسلامية" هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لما كان الإسلام ديناً سماوياً وأنه سابق على المذاهب الإشتراكية المعاصرة تاريخياً من حيث اللفظ والمفاهيم السائدة ، فإننا لانرحب كثيراً بوصف النظرية الإسلامية بأنها اشتراكية أو داخلة تحت المد الاشتراكى.

ذلك أن الإسلام يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً على أسس الحرية والعدالة والمساواة، بحيث لايتقيد إلا بتعاليم السماء التى تتطابق مع فطرة الإنسان وفكره الحق ــ فكان النظام العام الذى يستمد جذوره من القرآن يعتبر نظاما إنسانياً بالدرجة الأولى رغم أن مصدره الهى .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الديمقراطية الإسلامية ــ كما أشرنا ــ تقيم وزنا لآراء المجتمع وافراده، وهى ليست من نوع الديمقراطية الشعبية الموجهة التى تعصف بالحرية والديمقراطية وتخضع البشر لانساق من التنظيم الحديدى القائم على البطش والارهاب تحقيقا لمزيد من التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فكأنها تقضى على حرية الانسان وسعاداته وامنه وطمأنينته فى مقابل احداث مزيد من الرفاهية والتقدم لهذا الانسان نفسه، وثمة تناقض صارخ لايستسيغة العقل ولايرتضيه الوجدان .

والاسلام فى جوهره لايعترف بالتساوى المطلق بين الناس فى الداخل[1] والثروة ولا فى العلم والجهل ولا فى مراتب التقوى[2] بل المساواة الحقة انما

---

(١) ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ ٧/١٦ ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده﴾ ٢٩/٦٢.

(٢) ﴿إن اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ ٤٩/١٣ ومعنى الآية ان الناس يتفاضلون من حيث التقوى والصلاح ولكل منهم منزلته حسب تقواه .

تكون فى حق المسلم ـ مهما كان مركزه ـ فى الحرية والعدل وكفالة المعيشة الإنسانية اللائقة بالبشر .

ولهذا فإن القرآن ينص على أن الطبقات الفقيرة لها (حـق) وليس إحسانا فى أموال الاغنياء[1] .

وكذلك فهو يحذر أصحاب الثروات من منعها من التداول فى السوق حتى يعم نفع دوراتها المالية المسلمين أجمعين وحتى لاتتركز الثروة فى أيدى قلة تحتكرها فتخضع النظام السياسى لسلطانها[2] .

هذا فضلا عما سنه المشرع من فرائض كالزكاة، وما أعطاه للحاكم من سلطة فرض المكوس والضرائب حماية للوطن من اعداء الخارج وعدم استقرار الداخل . وإذا كان الإسلام يتجه بنظامه هذا ـــ سواء من النواحى السياسية والاجتماعية والأخلاقية إلى الموقف الوسط الذى أشار إليه القرآن[3] ، هذا الموقف الذى تنتفى معه جميع صور العُدم أى الفقر المدقع، وكذلك جميع صور الثروة والغنى الفاحش ـ إلا أنه لايحاول مصادرة جسم رأس المال اذا كان قد

(١) ﴿ الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ ٧٠/ ٢٤- ٢٥ ﴿وآتوهم من مال الله الذى أتاكم ﴾ ٢٤/٣٣.

(٢) ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ ٩/٣٤ ﴿ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالاً وعدده، يحسب أن ماله أخلده ﴾ ١٠٤/١-٣ ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دُولة بين الاغنياء منكم ﴾ ٥٩/٧ .

(٣) ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ ٢/١٤٣ .

حازه أصحابه عن طريق الحلال[1] . وذلك خلافاً لما تلتزم به بعض المذاهب الاجتماعية الاخرى .

والأمر الذى لاشك فيه أن الإسلام ـ على هذا النحو ـ إنما يتطابق فى تعاليمه مع فطرة الانسان الحقة، بلا غلو أو اسراف وذلك لان البشر جميعا يحبون التملك[2] وهم يختلفون الواحد عن الاخر ، قدرة وكفاية ويصبح عدم الاعتراف بهذه الحقائق الانسانية نوعا من المعارضة غير الطبيعية للانسان ولفطرته[3] ومع هذا فاذا أردنا التماشى مع العصر ومسمياته من حيث أن تجمع النظم المتقاربة تحت اسم واحد يولد قوة عظمى دافعة الى التقدم، فيمكن لنا على ـ هذا النحو ـ أن نصف الإسلام بأنه دين اشتراكى فى نطاق المعنى التى تشير بها تعاليمه، أى أن تكون اشتراكية الإسلام نوعاً قائماً بذاته بين الاشتراكيات ، مع الاحتفاظ بالأولية التاريخية للإسلام على سائر النظم الاشتراكية أو أن نقول أن الاشتراكية المعاصرة ذات ملامح إسلامية ، لاسيما وأن سائر النظم الاشتراكية تشجب جميع صور الكسب بدون عمل ، ويتفق معها الإسلام فى ذلك حينما يرفض الربا ويترصد أصحابه بالعقاب الشديد .

وهكذا نصل إلى الركيزة الثالثة للأيديولوجية العربية وهى تثبيت مفاهيم الملامح الاشتراكية بعد ركيزتى الحرية والوحدة .

---

(١) ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون﴾ ٢٧٩/٢ .

(٢) ﴿وتأكلون التراث أكلاً لما﴾ ١٩/٨٩ ﴿وتحبون المال حبا جما﴾ ٢٠/٨٩ .

(٣) ﴿فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله﴾ ٣٠/٣٠ .

مكونات الأيديولوجية العربية

ونعنى بها المعطيات المباشرة للوجدان العربى. فبعد أن تناولنا الأصول التاريخية التى تؤسس حياة هذه الأمة العربية عبر التاريخ وعالجنا الموضوع بطريقة تحليلية ، واتضح لنا أن المعول الأساسى فى تحديد مفاهيم الأيديولوجية العربية هو ما ينطق به المواطن العربى من أفكار وآراء وتصورات وما يحس به من مشاعر تؤثر فى حياته وفى أعماله وتسبغ على مواقفه لوناً خاصاً به قد لايتماثل مع مواقف المواطنين فى شعب آخر إزاء نفس المشكلات. بعد كل هذا نريد الآن أن نضع هذه المعطيات فى صياغة أولية بسيطة تبدو كما لو كانت مستمدة من خلال حوار مع عدة أفراد من المواطنين العرب فى بلاد عربية مختلفة.

وفى هذا الحوار نطرح تساؤلاً أولياً عن المعانى التى يفهمها المواطن العربى العادى من مفهوم العربية، هذا المفهوم الذى تجسده حركات الثوريين العرب وأعمالهم وتناصره جماهير الامة العربية كمحرك لطاقتها الخلاقة ، وأمل فى قيام وحدة عربية من المحيط إلى الخليج .

واستناداً إلى ما سقناه من تحليلات متشعبة حول هذا الموضوع، ومن رجوع إلى مصادر عدة من بينها التراث، ووسائل الاعلام، والخبرة، والممارسة الشخصية للعمل العربى[1] فإننا نتوقع أن تكون إجابات المواطن العربى على النحو التالى :

---

(١) لقد انضم كاتب هذه السطور إلى الرعيل الأول من رواد الحركة العربية وعاصر نشأة الجامعة العربية واشتعال الثورة الفلسطينية ومأساة التقسيم . وقد انشأ هو وزملاء له جمعية الوطن العربى سنة ١٩٤٤ ، واشرف على تحرير لسان حالها (بجلة الدفاع) بالإسكندرية وانضم إلى –

١ ــ إن الفكرة المسيطرة على المجتمعات القائمة فى هـذه المنطقـة تنطـوى علـى إيمان راسخ بأن هذا المجتمع الإنسانى يسوده تيـار جـارف ينضـج بالقوميـة كحركة تاريخية وكمنطلق أساسى وأمل فى مصير عربـى واحـد متماسـك، وهذا الوجدان العربى المتحمس هو كلمة المواطن العربى الاخيـرة فـى حقيقـة انتمائه الذى يؤثر فى حياته بنية وشكلاً وحركة، رغم ما يعترضه من عوائق ونظم وشعارات مؤقتة ومتعارضة .

٢ ــ إن القومية العربية كمسلمة أساسية فى الأيديولوجية العربية تتخذ من اللغة العربية وسيلة للتفاهم والتماسك بين أفراد الأمة العربية . وتستند هذه اللغـة إلى القرآن كمصدر و دستور لها. وقد أثرَتَ السماء هذه اللغة فجعلت منها وسيلة للتعبير عن رسالتها فاصبح للقـرآن مفهـوم قومـى عنـد العـرب علـى اختلاف عقائدهم .

٣ ــ إن الامة العربية تؤمن بجميع رسالات السماء وترى فى الإسلام ديناً يوحد

= حركة الاتحاد العربى واصبح نائباً لرئيس الاتحاد العربى بالاسكندرية . وقد قدم فى هـذه الفـترة أول مشروع لانشاء دائرة المعارف العربية إلى المؤتمر الثقافى العربى الاول فى لبنان سنة ١٩٥٠. وانضم إلى جمعية التقريب بين المذاهب الإسلامية، وإلى الهيئة العربية العليا لإنقاذ فلسطين، وتولى الإشراف على مكتب اللاجئين ومكتب النشر العربى، وأسـهم فـى إعـداد المتطوعين مـن الاسكندرية وامدادهم بالعدة والمواد الطبية، واشترك فى تأسيس نوادى الاتحاد العربى فى البـلاد العربية فى العراق وسوريا وغيرهما كما اشترك فـى تأسيس نـوادى الاتحـاد العربـى فـى البـلاد العربية فى العراق وسوريا وغيرهما، كما اشترك فى انشطة مكتب المغـرب العربـى فـى القـاهرة والنشاط العربى بباريس . وزار معظم البلاد العربية محاضراً وداعياً إلى حركة الوحدة العربية عن طريق سفارة العلم والتعليم بعد أن تولت الثورات العربية مهمـة العمـل الرسمـى لتحقيـق الهـدف الوحدوى المقدس ، كما اسهم فى حركة المد الاشتراكى ممارسًا وداعياً ومحاضرًا ومؤلفًا .

بينها على أساس من العدل[1] والتعايش السلمى مع أصحاب الأديان السماوية الأخرى . ومن ثم فإن الأمة العربية تنبذ جميع صور التعصب الدينى والعنصرى[2] وترسى دعائم الأخوة والمحبة انطلاقاً من سماحة الإسلام وتسامحه[3] وهو عقيدة الغالبية العظمى من العرب، وهو الجامع للأديان السماوية إذا ترجمت وحدة الدين على هذا النحو إلى واقع ظاهر للعيان مؤثر فى السلوك العام للأفراد وراء الشعائر والرسوم الظاهرة فى كل دين من هذه الاديان.

٤ ـ لما كان المفهوم الدينى هو البعد الأول فى الحضارة ، لهذا فإن أول ما يقابلنا هو ارتباط الحياة الدنيا ارتباطاً وثيقاً بالاخرة وبعالم السماء على وجه العموم وأن الانسان لايواجه الطبيعة أو غيره من البشر أو الكائنات الحية الأخرى مواجهة استقلالية تامة، بل إن سلوكه على أى نحو إنما يرتبط بنظام آخر غير منظور يشده فى النهاية إلى عالم آخر غير عالمنا ، ويشعر المواطن بأن ثمة تنظيما وعدالة فى الخلق والتكوين وأن سائر مخلوقات الله من جماد وحى إنما صدرت عنه وفق تصميم إلهى وهى تسيير بتدبير وحفظ وعناية

---

(١) ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان﴾ ٩٠/١٦.

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ ٨/٥ .

(٢) ﴿ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ ٢٩/ ٤٦.

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا النصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ ٢٦/٢.

(٣) ﴿ لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ ٢٥٦/٢ .

إلهية إلى نهايات معلومة، والآجال والأرزاق مقـدرة وتخضـع لحسـاب الهـى دقيق .

٥ ــ إن الله تعالى خلق الانسان فى أكمل صورة واستخلفه فـى الارض، وقـد كشف الله سبحانه وتعالى عن إرادته وحقيقة خلقه لأنبيائه ووجـه الإنسـان إلى إطاعتها تحقيقاً لمصلحته، من حيث أنها تتمثل فى قيـم للسلوك السـوى تتفق مع فطرة الانسان الحقـة لتحقيـق صلاحـه كفـرد وتقويـم علاقتـه مـع الآخرين فى المجتمع بما يكفل البناء والتنظيم وحفظ التماسـك لهـذه الأمـة ، ومنحه العقل للتمييز بين الصـواب والخطـأ والخـير والشـر، وحملـه الأمانـة الكبرى أى الإرادة[1] فأصبح بذلك مسؤولاً عـن سلوكه فـى الحيـاة الدنيـا ومن هنا تبلورت المسئولية الفردية ﴿ ولاتزر وازرة وزر أخرى﴾[2] .

٦ ــ إن استخلاف الإنسان فى الأرض يصبح بلا معنى إذا لم يكـن يعنـى بـذل الجهد لتنظيم الحياة الدنيا، أى العمل علـى تقـدم البشـرية ورقـى المجتمعـات الإنسانية. ولايتم هذا إلا بالعمل ، فالعمل المنتج أى الصالح هـو مركبنـا إلى عالم الآخرة. وهكذا تعتـبر حياتنـا الدنيـا رحلـة إلى الآخـرة إذ هـى مرتبطـة بالجزاء الأخروى .

٧ ــ إن العمل الصالح هو الذى يتجه إلى الحلال وينبذ الحرام وقد حدد الله لنـا ذلك ــ فالحلال بين والحرام بين ــ وأوضح لنا مستويات الأفعـال الفاضلـة واحكامها وكذلك اضدادها على مستوى الدولة وعلى مستوى الفرد .

---

(١) ﴿وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفه ﴾ ٢/٣٠.

(٢) ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنهـا وأشـفقن منهـا وحملهـا الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ ٣٣/ ٧٢٠ .

٨ ـ إن الأخلاق سواء أكانت عامة أم فردية تصدر ضوابطها عن مبدأ عام وهو قول الذكر الحكيم ﴿ وجعلناكم أمة وسطاً﴾ ﴿ أى لا افراط ولاتفريط﴾ ، والشعور بأن العرب أمة وسط يتخلل حياتهم الأخلاقية والسياسية على حد سواء، ونحن نميز بين قيم الاخلاق ومثلها وكذلك بين ما تنطوى عليه الطبائع مع خلق وسمات وأمزجة مؤثرة فى السلوك أيضاً. ويميز المواطن العادى بين الفلسفة الأخلاقية التى قد لايفهمها، والأخلاق العادية ومثلها كما يمارسها هو وأضرابه، غير أن المثل العليا الاخلاقية التى يتعمق مضامينها المثقف العربى وتنضج بها العقائد والمعاملات فى الإسلام، إنما تتخذ مسارها الضاغط وغير الملموس فى التجربة الشعورية للمواطن العادى وهى تتمثل فى : سيطرة العقل على الإرادة وذم الهوى وقمع الشهوة والغضب فى نطاق تحصيل الوسط العدل بحيث تتحقق للمرء عن طريق العلم والعمل فضائل رئيسية هى العفة والشجاعة وسيطرة العقل التى تنشأ عنها الحكمة، وهذه الفضائل الاربعة تصل بالمرء إلى مرتبة العدالة فى سلوكه الحيوى مع نفسه ومع الآخرين، فإذا أضيفت المحبة إلى العدالة خرجت لنا الصيغة الفاضلة التى تعتبر نموذجاً لاخلاق الكمال المثالى عند العربى المسلم، كما تنطوى هذه الصيغة على فضائل موروثة ومكتسبة تعتبر لازمة للخلق العربى يحسها العربى فى وجدانه فى جميع الظروف والاحوال وهى على سبيل المثال لا الحصر: النجدة والوفاء بالعهد والبساطة والترفع والصبر على المكاره والجود والكرم والايثار[1] والنظرة الواقعية والتسامح والسماحة والتواصل والتراحم والانتصار للحق ونصرة المظلوم والضعيف مع التمسك بالحرية سواء بمعناها الفردى أم العام فى مواجهة الحاكم

---

(١) ﴿ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ ٩/٥٩ .

والتغنى بالأمجاد ومدح الفروسية بما تنطوى عليه من معانى الفتوة والإباء والشمم، والتغنى بالأرومة، ووضوح النسب، دون تعصب أو تحيز مذموم.

على أن هذه الأخلاق بنوعيها الفردى والاجتماعى قد وجدت لها متنفسا فى النصوص القرآنية ، وهى تشير إلى الوقائع البسيطة للشعور الأخلاقى لدى المواطن العادى من منظور مراتب الحياة الأخلاقية التى تحياها النفس ، ويشير القرآن إلى المرتبة الدنيا الغريزية للأخلاق التى تتحكم فيها النفس الأمارة بالسوء[1] فاذا استيقظت النفس اللوامة[2] أى الضمير ــ وهو العقل فى ممارسته للاحكام الخلقية وهذه هى مرتبة الاختيار الحر فى الحياة الأخلاقية- يرى المواطن العادى أن لامعنى للخلق أو للتكليف بصفة عامة إذا لم يكن الفرد حرا يخضع فعله للثواب والعقاب .

فإذا ما استقرت فى النفس معانى الاخلاق القويمة وأصبح الخير لازماً لسلوكها ، تزكت وارتقت إلى مرتبة التقوى وهى مرتبة النفس المطمئنة[3] ، وأخيراً حينما تتأصل فى النفس معانى الخير والحكمة والعدالة والسلام النفسى فإنها تصل إلى مرتبة السكينة[4] وهى مكانة الأولياء والقديسين والشهداء.

وأيا ما كانت قيم الأخلاق فإنها لابد أن تكون ذات تأثير فى الفعل، أى فى السلوك حتى تستقيم حياة الفرد والمجتمع على السواء .

---

(١) ﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لامارة بالسوء﴾ ١٢/٥٣ .

(٢) ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ ٧٥/٢ ﴿وهديناه النجدين ﴾ ٩٠/١٠ .

(٣) ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ ٨٩/٢٧ - ٣٠.

(٤) ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ ٤٨/٤.

٩ ــ إن الدولة العربية هى التعبير النهائى لمنطق الثورة الوحدوية ولابد للثورة أن تظل قائمة حتى يتحقق هـذا المصير الـذى تنشده الأمـة وهـو قيـام النظـام السياسى الواحد على أساس الشورى، أى على أسس ديمقراطية جمهوريـة[١] تقوم على ركائز الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وتنبذ الصراع الطبقـى وتحقق السلام الاجتماعى ابتداء من الخلية الأولى وهى الأسرة ـــ التـى هـى أساس تكوين الأمة العربية ــ وقد تحقق لها استقرارها وتماسـك بنائهـا عـن طريق التشريعات الدينية والمدنية .

ولما كان الإنسان العربى يواجه عالماً انتفت فيه الأبعاد نتيجة للسرعة المذهلة فى وسائل المواصلات ، لهـذا فإنـه مطـالب بـأن يكـون علـى وعـى بصلتـه بالشعوب الاخرى المجـاورة لكـى يتحقـق الاسـتقرار السـلمى بـين شـعوب المنطقة. وهذا هو مفهوم السلام العام، فلا يجنح العربى إلى الحرب إلا دفاعاً عن الحمى ، وانتصاراً لمظلـوم دون بغـى أو اعتـداء[٢] ويتضـامن مـع النظـم الشبيهة بنظامه حفظاً لمكانته بين الكتل العالمية دون ذوبان مُضَيع أو ارتبـاط مهين مع أى اتجاه يقضى على تراثه التاريخى والعقائدى .

وهذه الوقائع النابعة من الشعور العربـى وهـى : المسـاواة والحريـة والعدالـة والسلام مع واقعية فى الفكر واتزان فى السلوك، تتفاعل فيمـا بينهـا ويقـوم على أساسها مجتمع له صفة التماسك العضوى، وتكتسى حياة أفراده بطابع روحى متأصل ووجدان حمس .

---

(١) هذا إذا انعقد الإجماع على هذا المطلب ــ كما سبقت الاشارة .

(٢) ﴿ ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين ﴾ ٥/ ٨٧ .

هذا فضلا عن وجود صلة جدلية بين هذه الوقائع الأربع فى الوجدان العربى: فالله تعالى قد خلق البشر متساوين ومن ثم تشتق الحرية كحق الهى من المساواة بين الخلق ويأتى العدل ليحفظ التوازن بين المساواة والحرية وينتج عن هذا كله حق المواطن والأمم جميعاً فى سلام عادل دائم .

١٠ـ وإذا كانت الدولة العربية تسعى إلى اقرار السلم فان المعاملة يجب أن تكون مثلية وهنا يظهر مبدأ القوة المتمثل فى فريضة الجهاد ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[١] ولايكون التصالح وحفظ العهد[٢] إلا مع الذين يقبلون نفس المبدأ دون انتقاص أو تحيف على حقوق الأمة ومجالها الحيوى .

١١ـ إن المواطن العادى يشعر بأنه يجب أن يتعلم للقضاء على مرحلة التخلف، وتعليم الأبناء حسب مناهج صالحة للعصر مع ربط بينها وبين التراث ، وهو الطريق الصحيح إلى الكمال المنشود وازدهار العلم العربى (اطلبوا العلم ولو فى الصين) (طلب العلم فريضة) ، ومن ثم فإن المواطن العربى يشعر بأنه فى مواجهة الحضارة الغربية والتكنولوجيا ينبغى له أن يتعلم الكثير مع احتفاظه بشخصيته، وهكذا يتم احداث موجات صاعدة ومتلاحقة من التقدم فى الوطن العربى فى ظل تكامل اقتصادى وطيد الأركان وقائم على تخطيط علمى مستمر، مع ضرورة الحذر واليقظة فى وضع السياسات الاقتصادية حتى لاتتسرب ذئاب الاحتكار والرأسمالية إلى الثورة القومية فتسيطر على ثرواتها الوطنية ويصبح الوطن العربى مرة أخرى عرضة لأبشع صور الاستعمار الاقتصادى .

---

(١) ٨/٦٠ .

(٢) ﴿وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ﴾ ١٦/٩١ ﴿ ان العهد كان مسؤولا ﴾ ١٧/٣٤.

١٢ـ لما كان رصيد العرب من التخلف كبير، سواء فى الفكر أو فى الماديات أو فى الاوضاع الاجتماعية، وحتى فى بعض المفاهيم الدينية الجامدة التى لاتزال ترفض فتح باب الاجتهاد ، فإنه يتعين إحداث ثورة ثقافية وثورة أخلاقية إلى جوار الثورتين السياسية والاجتماعية للعودة إلى الينابيع المطهرة وتطوير حياتنا وفق حاجات العصر ومتطلباته دون سيطرة الأفكار المستوردة، حتى نتجنب الوقوع فى مخالب الغزو الثقافى والأخلاقى وبالجملة يجب أن تتسم أفكارنا وتصوراتنا بطابع الحركة وأن تشتق كلها من واقع المجتمع ومصيره .

١٣ـ إن الحاكم العربى الديمقراطى مطالب من المواطنين بأن يكون دائماً على مستوى ثقة الجماهير فلا يظهر غير ما يبطن ، ولايتخذ حاشية سيئة السيرة مغامرة، فان اهتزاز صورة الدولة كنتيجة لاخفاء الحقائق أو تشويهها يؤدى إلى فقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وهو الأمر الذى يدفع بطوائف شتى إلى الاغتراب السياسى والاجتماعى فتظهر موجات النقد الخفى والسخرية المقنعة واللامبالاة ، كأن أمر الدولة لايعنى هؤلاء المغتربين، وهذا يحدث فى الغالب عند المثقفين من فرط ارتكان الدولة إلى أهل الثقة المتآمرين مع مراكز القوى الاجتماعية والسياسية ضد مصالح الكثرة الغالبة من أفراد الشعب، وعدم افساح مجال العمل امام المستنيرين من أهل الكفاية، والوقوع فى خطأ استعداء الجموع الكادحة على فئات المهنين والمثقفين، الأمر الذى قد يحدث معه انفصام مرضى فى المجتمع ويؤدى إلى شيوع الهموم والقلق والضيق والتبرم والسخط والخشية من الحاضر والمستقبل لدى أجيال الشباب الصاعد وهم الابناء الروحيون لعقل المجتمع وفكره الكامن فى فئات المثقفين .

١٤ــ إن كل المؤسسات الثقافية ــ مثل المــدارس والجامعـات وأجهـزة الاعـلام والفن ــ عليهـا أن تراجـع مناهجهـا وأسـلوبها فـى العمـل بطريقـة جذريـة مخططة ، حتى تتناسب مع الاطر العامة للحركـة الوحدويـة العربيـة، وحتـى تخرج قطاعات الامة العربية الشعبية سليمة مـن معـارك النضـال بـين النظـم المؤقتة ومواقف الحكام المتعارضة فى البلاد العربية .

المعارضات المعاصرة للأيديولوجية العربية الإسلامية

لاشك أن الكشف عن الارتباط الجوهرى بين الأديـان السـماوية الكـبرى الثلاث وانضوائها تحت الإسلام: دين إبراهيم الذي اختتم بالوحى القرآنى علـى عهد محمد الرسول الكريم (صلوات الله عليه وعلـى آلـه أجمعـين) مـن ناحيـة، ومن ناحية أخرى محاولتنا التمييز بين الإسلام العقائدى والاسلام الحضارى -اذا أردنا التجاوب مع العرب غير المسلمين الذين قد لاتقنعهم مقولة وحدة الديـن- هذا الاتجاه تواجهه فى عصرنا تحديات صارخة ينبغى لنا أن نعرض لبعضها حتى تستبين معالم طريق الحق :

١ ــ وتتمثل أولى هذه المعارضات فى موجات الإلحاد المادية التى تواجه الإيمـان الدينـى فـى عنـف وضـراوة، فتنكـر عـالم الغيـب وترفـض فكـرة الألوهيــة وتشجب الوحى، وتلقى بالإنسان مثلـه كمثـل الجمـاد فـى أحضـان طبيعـة يستنطقها التطور المادى على مايزعم الماركسيون وأتبـاع لامـارك وداروين وسبنسر، وليس الدين فى نظر الماركسيين سـوى أداة رجعيـة تسـتخدمها الطبقة الإقطاعية أو الحاكمة للضغـط علـى الطبقـات الكادحـة واستغلالها، فهم يزعمون أن العدالة لاتنزل من السماء بل تنبع من الارض .

٢ ــ وإذا كان الماركسيون والماديون على السواء قد أسفروا عن موقف واضـح منكر للدين، فإن طائفة أخرى رغبة من أصحابها فـى التخفـى وراء "العلـم ومنجزاته المعاصرة" نادوا فـى القـرن التاسـع عشـر بضـرورة إحيـاء الـتراث العربى الإسلامى بمعزل عن الإسلام وعقائده وهؤلاء هم العلمـانيون الذيـن اختطوا هذا المنهج لإحياء العروبة المجردة من الدين و لم يكن هـذا الأسـلوب سوى وسيلة ناجحة لمقاومة الدولة العثمانيـة الإسـلامية باسـم العروبـة، و لم

يلبث أن سار على الدرب مفكرون من أمثال شبل شميل، وسلامه موسى، وإسماعيل مظهر، وغيرهم، وقد أسسوا دعوتهم على مبادئ تفصل بين الدين والدولة، وترفع علم العروبة لتعزل العروبة عن الإسلام والإسلام عن العلم .

٣ ـ إن الشباب المسلم المعاصر يوشك أن يصاب بانفصام في شخصيته أو بالاغتراب على أقل تقدير، ذلك لأن حياته اليومية تزخر بمنجزات الغرب المادية والمعنوية، ففي كل يوم نطالع بأنباء انجازات تكنولوجية جديدة فضلاً عن طوفان الكتب والنشرات والمجلات الصادرة عن الغرب والتي تكشف عن تياراته الثقافية وفكره النابض بالحياة .

وهو مضطر إلى الأخذ بهذه الأساليب التكنولوجية الحاملة للثقافة المعنوية للغرب دون اختيار منه، ولاتزال الصحف والإذاعة المسموعة والمصورة والكتب صادرة في تزويده بحضارة الغرب وثقافته بأبسط الطرق وأقربها منالاً، وإذا ما تلفت إلى واقعه الحضاري فإن عينيه ستصدمان بصور التخلف، والتفسخ الأخلاقي والسطحية العلمية فضلاً عن الجمود الديني ورفض كل محاولة لإثراء الإسلام بما لايمس جوهر العقيدة من مفاهيم الحضارة الغربية، ثم هو يجد في الغرب فصلاً للدين عن الدولة بينما يلتزم المسلمون بعدم الفصل بينهما وذلك تطبيقا لتعاليم الإسلام.

ونتيجة لهذا كله يتجه فريق من شباب المسلمين المتمسكين بدينهم إلى الخضوع لثنائية نفسية صارمة، فيكون الإسلام قبلتهم الدينية ، والغرب وثقافة حياته اليومية قبلتهم الحضارية وفي هذا ما فيه من تمزق للشخصية يسلبها عناصر القوة والصمود والفعالية الحقة .

أما الفريق الآخر فإنه إما أن يتجه البعض منه إلى موقف الامبالاة والاغتراب، فيحس أن ذاته وتكوينه الثقافى الغربى فى غربة عن قيم الإسلام ومبادئه، فيتجه إلى الغرب وحضارته كلية جاعلا منه القدوة والمثال، وأمثال هؤلاء الشباب قد تتملكهم عوامل الترفع الكاذب والتعالى على القيم الموروثة الخالدة.

وقد يتجه البعض الآخر من هذا الفريق إلى "التجديد" فى الإسلام فيصبغون الإسلام بصبغة غربية، وينادون بمساواة المرأة بالرجل فى كل شئ حتى فى الميراث، وأداء الشهادة، وتولى مناصب الدولة العليا، والقضاء والفتيا ...الخ.

وذلك على غرار مافعل كمال أتاتورك الذى اعتصر الدين فى تركيا فلم يبق منه إلا اسمه بعد أن فصله عن الدولة .

وقد حدث ما يقرب من هذا فى إندونسيا وفى تونس مؤخراً، على درجة أقل مما فعل كمال اتاتورك .

يبقى فريق ثالث من الشباب وهم المتأثرون بدعوى "التحديث" وهم وسط بين أصحاب التغريب الكامل، إذ يرون أننا يجب أن نطلع على كل ما أنتجه الغرب من حضارات مادية ومعنوية ثم نعمل فيها العقل الإسلامى النقدى لنتخير من بينها ما يصلح لنا فى إطار التعليم والمفاهيم الإسلامية وبمعنى آخر يجب الحفاظ على الشخصية الإسلامية، على أن ننمى جوانبها بالعناصر المختارة والصالح من حضارة الغرب شاخصين بأبصارنا إلى تراثنا القديم لإحيائه بروح العصر وبذلك تتجمع لدينا طاقة خلاقة أصيلة تدفع بنا فى طريق التقدم والنمو الحضارى بطابع إسلامى مميز . فلا علمانية ولافصل للدين عن الدولة.

وهكذا يستطيع المسلم المعاصر أن يواجه تحديات العصر ومذاهبه التى تتجه فى مجموعها إلى اقتلاع جذور الإيمان والتضحية بالدين على مذبح العلم الكاذب، أو الفلسفات المتوهمة فلا تعارض أصلا بين العلم والدين أو بين الفلسفة والدين .

وستظل الفلسفة المنكرة للإيمان تدور على نفسها وعلى غير هدى، فيتوهم المثاليون أنهم كشفوا عن الحقيقة ويعارضهم الماديون، ثم ينقض البناء على رؤوسهم جميعاً إذا غلب الشكاك على حرية الفكر، وقد يتحمس البعض للفرد وحريته كالوجوديين، ويتحمس البعض الآخر للإرادة الكلية التى تسحق الفرد وتقضى على كيانه الشخصى، ولكن هذا الفكر فى جملته مشوب بنقص خطير وهو أن صاحب المذهب إنما يرصد الوجود من زاوية خاصة به، أما النظرة الكلية الشاملة التى يتوخاها الدين ولاسيما الإسلام ـ فإنها بعيدة عن أن تكون فى منال البشر بل هى من عمل الخلاق العظيم سبحانه، فهذا هو طريق الهدى للشباب إذ يجب أن نؤمن لكى نعرف وليس العكس .

الخاتمة

هذه نظرات مجملة وخطرات فكر، جمعت بين الأسلوب العلمى والنظرة الفلسفية وحصيلة الممارسة ، والخبرة فى مجال العمل العربى، توخينا من وضعها أن تكون محاولة أولية لاستشفاف مضامين الوجدان العربى والكشف عن معطياته المباشرة والعقبات التى تعترضه مادامت تؤثر فى سلوك الأمة، حتى نستطيع أن نكون على بصيرة بخطوات المسيرة الشاقة نحو الغاية العظمى وهى الوحدة الشاملة ، مطلب الأمة العربية الأساسى والمنطلق والغاية لجماهيرنا شيبة وشبابا، رجالاً ونساءً، وقصارى ما أطمع أن تصل إليه قيمة هذه المنجزات هى أن تكون علامات على الطريق نحو مستقبل مشرق وأفضل باذن الله .

والله ولى التوفيق

فهرس الأعلام والفرق

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

الفهرس

(الملحق)

للمؤلف

– مؤلفات باللغة العربية : "الناشر دار المعرفة الجامعية"

(١) أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردى.

(٢) تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان جـ١ من طاليس إلى أفلاطون.

(٣) تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان جـ٢ أرسطو والمدارس المتأخرة.

(٤) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام: المقدمات– علم الكلام– التصوف الإسلامى.

(٥) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام: الفلسفة الإسلامية.

(٦) تاريخ الفكر الفلسفى : الفلسفة الحديثة.

(٧) الفلسفة ومباحثها.

(٨) ترجمة المدخل إلى الميتافيزيقا لبرجسون.

(٩) النظم الإشتراكية ، مع دراسة مقارنة للإشتراكية العربية.

(١٠) فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة.

(١١) قراءات فى الفلسفة الإسلامية.

(١٢) هيراقليسط وأثره فى الفكر الفلسفى المعاصر.

(١٣) أسس المنطق الصورى ومشكلاته.

(١٤) المدخل الإسلامى للأيديولوجية العربية.

(١٥) الإسلام فى مواجهة تيارات الفكر الغربى المعاصر (الإسلام والماركسية)

(١٦) الحركة الصوفية فى الإسلام.

(١٧) العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر الإسلام.

(١٨) مقولة الإسلام السياسى فى الميزان.

(١٩) هياكل النور للسهروردى الإشراقى تحقيق ودراسة.

(٢٠) اللمحات فى الحقائق للسهروردى الإشراقى تحقيق ودراسة.

(٢١) شرح هياكل النور تحقيق ودراسة.

(٢٢) كتاب المسائل فى الطب لحنين بن اسحق تحقيق ودراسة (مع آخرين)

(٢٣) كتاب تواريخ الحكماء تقديم وإشراف على التحقيق.

- مؤلفات باللغة الفرنسية:

(24) Essai d'un Platonism Muslman tramission dela theorie des Idees Platoniciennec dons L'ecole Philosophique Musulmanne.

- مؤلفات باللغة الإنجليزية :

(25) Contribution of Ancient Alezandrian culture to Ancient Civilizations with Particular reference to Islamic Philosophy.

Political Islam

VS.

The Integrated Islam

With an annex
"Towards an Arabic- Islamic Idiology"

Prof. Muhammad Ali Abu- Rayan
Professor of Philosophy
Director of the center of National Heritage & Manuscripts

Publisher
Dar al- Maarifa al- Gamiyya
40 Soter st., Alexandria

